سلسلة
آفاق عالمية
122

المائة كتاب
8 / 100

رواية

الأب جوريو

أونوريه دو بلزاك



الهيئة العامة لقصور الثقافة

ترجمة :

محمد محمد السنباطي

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• الأب جوريو
• ترجمة: محمد محمد السنباطى
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013 م
13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ١٧٣٧٥ / ٢٠١٣
• الترقيم الدولى: 978-977-718-497-7
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

122

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

أونوريه دو بلزاك

الأب جوريو

ترجمة: محمد محمد السنباطي

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

هذا الكتاب هو الترجمة العربية الكاملة والدقيقة لرواية:

Honoré de Balzac,
Le Pére Goriot,
Paris 1835.

وقد رُوجعت هذه الترجمة على الأصل الفرنسي، وتم تصحيح ما احتاج إلى تصحيح، واستعادة ما سقط من المترجم- سهوًا أو عمدًا- من جُمل أو سطور أو فقرات؛ مع ضبط الصيغة الأسلوبية لتتوافق مع أسلوب بلزاك؛ فضلاً عن إضافة الهوامش التوضيحية الضرورية.

ر.س

مقدمـة

أية دهشةٍ هائلةٍ تلك التي يمكن أن تعتري أولئك الذين يعشقون "فن الرواية" مبدعين كانوا أم قارئين، عندما يعلمون أن أحد كُتاب هذا الفن أنجزَ في "تسعة عشر" عامًا من الإبداع "إحدى وتسعين" رواية؟! بل إنه- خلال حياته القصيرة نسبيًّا، التي لم تتجاوز الخمسين عامًا إلا بعام واحدٍ- خَطَّ مئاتِ الكتب!! ناهيك عن مخطوطاتٍ كثيرة غير مكتملة، فقدم للمكتبة العالمية أضخم إنتاج أدبي عرفه التاريخ!

ذلكم هو المبدع الضخم الفخم الذي طبَّقَ الآفاقَ باسم: "أونوريه دو بلزاك". «كان والده يسمى "برنار فرنسوا بليسيا" وغيرَ اسمَه إلى "بلزاك" دون أن يهمنا الاسم ولا اللقب؛ فالرجل بذاته وإبداعاته عظيمٌ فخيمٌ، بغض النظر عن اسم أو لقب.

مؤلفُ روايتنا هذه هو من كتبَ تحت صورةٍ لنابليون بونابرت: "ما لم يحققه سيفك سأحققه بريشتي"!!

فأية "ماكينة أدبية" كان هذا العملاق القدير؟!

ذلكم الذي لم تكن كتاباته ضربًا من الخيال والفانتازيا، وإنما حافيةَ

القدمين على دروب الواقع المفجع تسير! شخصياته من صميم الحياة، كأنما اقتطفها وأعاد زرعها على أوراقه، وسقاها من حبر دواته، فأينعت أيما إيناع. ويكفي أن نعرف أن "**الكوميديا الإنسانية**" التي أبدعها "بلزاك" تضم أكثر من ألفين وخمسمئة شخصية تطل برؤوسها من بين السطور، بل وتغادرُ أوراقَها لقالت لك: أنا فرنسا، بشحمها ولحمها، بقوتها ووهنها، بثورتها ومحناتها، بنهضتها وانتكاساتها، بنقائها وفسادها، بخيرها وشرورها. هنا الدولة، هنا الشعب، هنا المعاناة. هنا مولد الرأسمالية وصعود البرجوازية، هنا المال ورنين الذهب، هنا "الوصول" أيًّا ما كان السبيل، هنا الجشعُ والطمعُ والتصفية الجسدية. باختصار، هنا الحياة بكل صورها.

ونظرًا لهذا الكم الهائل، وذاك الحشد المدجج من الإبداع، فلا عجبَ ألا نجد "بلزاك" يراجع كتاباته فيقلل من بعض "الثرثرة" التي تَطالها أحيانًا، أو يحدَّ من "الجهامة" التي تكشر عن أنيابها مراتٍ، أو يتأنق في العبارات التي تسبقه لتسكنَ سطورَ أعماله. لم يكن لديه الوقت السامحُ بذلك؛ ولذا فإن قارئ اليوم سيجري على كثير من السطور في روايات "بلزاك" عندما تهاجمه الاستطرادات الثرثارة، أو التعميمات المتعجلة، أو النصائح الأخلاقية التربوية، في العديد من تلك الأعمال، والتي تخلَّصَ منها- إلى حدٍّ كبير جدًّا- في روايات مثل: الأب جوريو و"**يوچيني جرانديه**" و"**ابن العم بون**" وهي من روائعه الخالدة.

كان "بلزاك" يحلم بالثروة والمجد، ولم يكن الأدب بالنسبة إليه- وأكاد أشك في هذه المقولة المتكررة عنه- سوى "وسيلة للوصول" إلى تلك الهيمنة المجتمعية، مهما كان الثمن الذي يدفعه من صحته، التي راح يضنيها ويطحنها أكثر من ست عشرة ساعة يوميًّا، في الكتابة، لينشر خمس رواياتٍ أو ستًّا في العام الواحد. القهوةُ السوداء تحرق دمه، أعداؤُه يتآمرون عليه،

ولا ينفكُّون يدسُّون له السموم مشوِّهين صورته اللامعة، وينتقصون من قيمة أدبه ورواياته. و"الدَّيَّانة" يطالبون بمستحقاتهم المالية، مما جعله يهيِّءُ لنفسه فرصة الهرب منهم، باختراعه سردابًا داخل بيته يؤدي به إلى حيث لا يعلمون! ولا يُسمح لهم بالدخول إلا بكلمة السر: "آن أوان الخوخ!

وقد يجد ذلك الكاتب النهم أن إحدى رواياته تستوجبُ وقتًا أطول، فيركنها على جنبٍ ليكتب غيرها، ثم يعود إليها، فإذا وجدَ فيها ما يستوجب الإرجاء أرجأها مرةً أخرى، بعد أن يكون قد قطع فيها شوطًا أو أشواطًا؛ وهو ما حدث لروايته "**الفلاحون**"؛ فـ على حد قوله ـ تركها خلال ثمانيةِ أعوام، مئةَ مرةٍ، ومئةَ مرةٍ عاد إليها، فهي من أهم رواياته.

ويحدثنا "جوتييه" أن "بلزاك" كان ربما عاد إلى منزله في بواكير الصباح بعد أن يكون قد ظل يشتغل الليل كله، وهو يعود إليه جوعانَ جوعًا شديدًا، فلا يملك إلا أن يلتهم عددًا كبيرًا من الشطائر بشيءٍ من السردين، ثم يستلقي بملابسه من غير أن يخلعها، بعد أن يطلب إلى "جوتيه" أن يوقظه بعد ساعةٍ فقط. وكان جوتيه لا يستطيع تنفيذَ هذا أبدًا، ويترك بلزاك نائمًا نومًا عميقًا حتى يغشاه الليل، فإذا صحا في حالةٍ شديدةٍ من التهيج، راح يصبُّ سيلا من اللعنات على رأس الرجل المنعم عليه، صارخًا صاخبًا، مدعيًا أنه أضاع عليه ـ بعدم إيقاظه ـ آلافًا وآلافًا من الفرنكات نظير الفصول التي كان حريًّا أن يكتبها من روايته. وكان هذا يحدث بين الفينة والفينة...



تكالب العديدُ من النقاد على هدم "بلزاك" ولكن أي هَرَم ذاك الذي استخفوا به، وكاد يُدحرجُ عليهم كتلا عُليا من أحجاره الضخمة!

لكننا نختار هذه الفقرة لناقد معاصر، هو "جورج لوكاش" من كتابه "**بلزاك والواقعية الفرنسية**" (ترجمة "محمد علي اليوسفي، ص22): "لا أحدَ

مثل "بلزاك" أحسَّ بعمق الآلام اللاحقة بكل طبقات الشعب، من جراءِ الانتقال إلى الإنتاج الرأسمالي، والانهيار الروحي والأخلاقي العميق، الذي كان ضروريًّا في تطور كل طبقات المجتمع. ومع ذلك، فإن "بلزاك" لم يشعر فقط وفي نفس الوقت بضرورة مثل تلك البلبلة الإجتماعية، بل أيضًا بحقيقة طبيعتها التاريخية التي كانت- في المحصلة- تقدمية. وهذا التناقض موجودٌ أيضًا في عالمه المعاش، ولقد حاول "بلزاك" أن يدخله بقوة ضمن منظومةٍ (..) دُحضت من قبل، وباستمرار على محك واقع مجتمع عصره، وبفضل الرؤيا البلزاكية لهذا الواقع. إلا أن الحقيقة الأصيلة كانت تتوصل، عبر هذا الدحض، إلى التعبير عن نفسها بجلاء. فهم "بلزاك" للطابع التقدمي في التطور الرأسمالي رغم تناقضه. وبتغيير ما ينبغي تغييره، فإن ذلك ينطبق أيضًا على "تولستوي". ولدى الشرعي الملكي "بلزاك" يبلغ هذا التناقض ذروته، نظرًا لكون الأبطال الحقيقيين والعريقين في عالمه الغني بالشخصيات هم فقط أولئك الذين يصارعون بعزم وإصرار ضد الإقطاعية والرأسمالية: اليعاقبة وشهداء المعارك على المتاريس. وهكذا يتضافر المذهب الواقعي والمذهب الإنساني الشعبي من أجل تشكيل وحدة عضوية".

وفي موضع آخر من نفس الكتاب، نضع عيوننا على هذه العبارة (ص28): "تكمن عظمة "بلزاك" تحديدًا ، في هذا النقد الذاتي اللا متساهل، لتصوراته ولأعز أمانيه وأعمق اعتقاداته، وذلك بوصفه للواقع وصفًا قاسيًا وصائبًا في قسوته. ولو أن "بلزاك" تمكن هو ذاته من الانخداع ببطلان أحلامه "الطوباوية" لما كان يهتم به أحدٌ اليوم. ولنُسي تمامًا مثل العديد من الصحفيين المتمسكين بالشرعية الملكية والمداحين للحقبة الإقطاعية الذين لمعوا في تلك السنوات. وبالتأكيد لم يكن "بلزاك" أبدًا، باعتباره مفكرًا وسياسيًّا أيضًا، مجرد ملكي مبتذل وتافه لا فكر له. أما

"طوباويته" فهي بدورها لم تكن تدعو إلى العودة تحت أي شكل من الأشكال إلى القرون الوسطى الإقطاعية، ولكنها تريد، بالعكس، توجيه تطور الرأسمالية الفرنسية، خاصة في المجال الزراعي، نحو طريق إنجليزي. إن المثل الأعلى الإجتماعي عند "بلزاك" هو في تلك التسوية الطبقية ما بين الملكية الكبيرة والرأسمالية التي تحققت منذ 1688 في انجلترا إبان "الثورة المجيدة" وصارت فيما بعد أساس التطور الإنجليزي وخطه الخصوصي. إذ عندما ينتقد "بلزاك" الأرستقراطية الفرنسية بكل قسوة، فهو إنما يفعل ذلك انطلاقًا من إعلائه للأرستقراطية المحافظة الإنجليزية كمثل أعلى. وهو يأخذ على الأرستقراطيين الفرنسيين كونهم في 1789، بدل إنقاذ الملكية ومواصلة التطور بإصلاحات حكيمة، دبروا "دسائس صغيرة ضد ثورة كبيرة"(..) لذلك- حسبَ رأيِهِ- فلا يوجد تحالف أو وحدة مصالح بين الأرستقراطية وجماهير الفلاحين، وبسبب ذلك انتصرت الثورة في باريس؛ إذ، قال "بلزاك" لكي يسعى المرء للحصول على بندقية، كما فعل عمال باريس، يجب أن يعتقد بأن مصالحه مهددة".

ولنا أن نقول- مع "ستيفان زفايج" في كتابه "**البناة العظام**" ترجمة محمد محمد فرج، ص 33: "إن جوهر عبقرية "بلزاك" يكمن في قوته الخارقة المحيطة بكل شيء رغم أنه لا يقارن بعباقرة الأدب في القدرة على التنظيم والتصنيف أو ربط الشخصيات بعضها ببعض؛ إذ كان على قدر محدودٍ من الموهبة في هذه الناحية، وهناك ما يغري بالقول إنه لم يكن فنانًا بقدر كونه عبقريًا تنطبق عليه الحكمة المأثورة "إن قوة هائلة كهذه ليست بحاجة إلى الفن". إنها مثل قوة ملك الغابة الذي يأبى أن يُستأنس، قوة كالسيل العرِم، أو العاصفة تتجمع فيها كل صفات هذه الظواهر، ويكمن تقديرها من ناحية الجمال في قوة مظهرها وعظمته، ويرجع تأثيرها لتعدد أشكالها غير

المحدود ونشاطها".

❖

ولد "أونوريه دو بلزاك" في مدينة "تور" الفرنسية في العشرين من مايو 1799، تلك المدينة التي أقامت فيها عائلته ست عشرة سنة قبل أن تهجرها نهائيًّا. عاش في كنف مربيته، في إحدى ضواحي "سان سير" هو وأخته "لور" التي تصغره بعام واحد، والتي ستصبح أديبة هي الأخرى، وإن كانت شهرتها أقل بكثير. التحق بـ"ليسيه فاندوم" وهي مدرسة داخلية، لم يتوفر له خلال السنوات الست التي قضاها فيها أن يزورَ منزلَ العائلة، أو حتى أن يرى والدته، سوى مرةٍ واحدة!

فأية أم قاسيةٍ كانت أمه "آن شارلوت لور سالامبييه"؟!

يُقال إنها كانت تنفر منه، باعتباره "ابن الواجب والصدفة"؛ أما شقيقه، ابنها الثاني، "ابن العشق والغرام" فكانت تدلله وتفضله عليه. وواضح تمامًا أن ذلك ترك جرحًا لا يندمل في قلب "أونوريه" وقد صرح به مرارًا، وترك أثره في أعماله، بل جعله يردد: "كانت تكرهني حتى قبل أن أولد!

أما والده "برنار" فكان الوحيد الذي تعلم القراءة والكتابة من بين أحد عشر أخًا وأختًا، وعمل ككاتبٍ لدى كاتبِ عدلٍ في البلدة المجاورة لمسقط رأسه، بعد أن قام بحراسة نعاج أهله، ثم غادر عائلته ليلبي طموحَه؛ هذا الطموح الملتهب كشمس بلاده، ورحل في السادسة عشرة من العمر سيرًا على قدميه، سالكا الطريق الملكية المؤدية إلى باريس، وهو لا يملك من متاعَ الدنيا إلا هراوة في يده، وحذاءً في قدميه، وصُرَّة فوق ظهره، ليصبح فيها كاتبًا لدى الوكيل، ويتولى فيما بعد منصبَ أمين سر مجلس الملك، كما نقرأ في كتاب "بلزاك" لفيليب برتو (ترجمة دونا مدثر الرافعي)؛ ليتوفى بالغًا من العمر اثنين وثمانين عامًا.

ولأن والده كان كاتبًا عدليًا، توجهت اهتمامات "أونوريه" الباكرة إلى دراسة القانون، لكنه تابع دراسة الأدب في "السوربون". واعتزل الناس ليكتب، فلا يعطله شيء. لكنه- عام 1820- يعود إلى منزل العائلة في "ڤيل بارسيس" أو في باريس. ويقع في غرام السيدة "دو برني" التي كانت تقضي الصيف في "ڤيل بارسيس" وتكبره باثنين وعشرين عامًا، وظلت مخلصة له حتى وفاتها، وكان لها تأثيرها عليه.

وها هو يجمع ثروةً لا بأس بها من خلال كتاباته، فيندفع ليؤسس دارًا للطبع والنشر، فإذا به ينهارُ ماليًّا ويلاحقه القضاء حتى يفلس، فيُضطر إلى نشر أعماله في عدة صحف، ويحضر ندوات ومجالس كبار القوم من أمراء أو بارونات، فيسهر لديهم قبل أن يعود أدراجه إلى منعزله، فيلبس ثوبَ الراهب والبرنوس الكشمير الأبيض، ويعب القهوة السوداء.

تتحسن أحواله. ويقع في غرام "الماركيزة دو كاستري" ابنة "الدوق ڤيتز جامس" ويمضي معها إلى "جنيڤ".

يقيم باسمه صالونًا خاصًا يسميه: "الفتاة ذات العيون الذهبية". يشتري مجلة "وقائع باريس" تلك الصفقة التي ستجلب عليه الكثير من المتاعب المالية والذهنية، ويشيد لنفسه "ڤيللا" تُفاقم من تردي وضعه المالي.

وحدث أن تسلمَ خطابًا من إحدى المعجبات المجهولات لديه، وتُدعى الكونتيسة "اڤلين هانسكا" وهي سيدة بولندية فاحشة الثراء، متزوجة من أحد النبلاء الروس، وتقيم في "أوكرانيا". راح يتبادل الرسائل معها، وكانت توقع رسائلها إليه بـ"الغريبة". واستمرت هذه المراسلات عامًا ونصف العام قبل أن يلتقيا في "نيوشاتيل" فراح يرجوها أن تنفصل عن زوجها الكونت لتتزوجه هو. وتماطله وتراوغه سبعةَ أعوام لم تنقطع فيها المراسلات بينهما، ولا يلتقيان سوى مرة كل سنة في "سويسرا" حتى مات

الـزوج؛ فرجاهـا "أونوريـه" أن تقبـل العـرض الأزليّ، فوافقـت. وتزوجهـا وعـاد بهـا إلى بـاريس، فخـورًا بمـا حققـه مـن إنجـاز ضـخم، لأن المـال معـه والجاه، لكن، ما الفائدة وقد ركبه المرض، وتمكن منه الإعياء والإرهاق؟!

وكتب عنها لأخته، كما نقرأ في مقال للدكتورة "داليا سعودي": "كتب بلزاك عنها لأخته تلك الكلمات: "إنه لمدعاة للتفاخر في باريس أن يفتح المرء صالون بيته ليجمع فيه صفوة المجتمع، فيجدوا فيه امرأة لها مهابة الملكات، ذات أصل عريق، ومنتسبة لأكبر العائلات، وهي إلى ذلك لبقة، ومثقفة، وحلوة. ولو أحسن المرء استغلال ذلك الوضع ففي وسعه أن يضمن وسيلة كبرى لتحقيق السيادة والهيمنة، (..) فبغض النظر عن ثروتها الطائلة، تجلب لي هذه الإنسانة معها أعظم المزايا الاجتماعية. (..) فإن لم أصبح عظيمًا بفضل "الملهاة الإنسانية" فستجعلني هذه الزيجة عظيمًا".



هكذا، نال مرادَهُ وتزوج من محبوبته السيدة "هانسكا" التي لم تكن لسوء حظه مخلصة له! وها هي الآن في بيت الزوجية في باريس تتخذ لها عشيقًا كان يعمل مصورًا بذيئًا لا ينفك يحكي عن صولاته وجولاته مع النساء، يذكر أسماءهن وأسماء أزواجهن! ويبلغ النبأ الزوجَ، فيتكالب عليه الحزن والمرض، وتشتد الذبحة الصدرية إيلامًا قاتلاً.

يرقد على شفا الموت بعد ثلاثة أشهر من الزواج، فينتفخ جسده، ويزوره صديقه "فكتور هوجو" ليفاجأ- وهو يعبر ردهة مفضية إلى حجرة المريض- بباب غير محكم الإغلاق، يمكنه من رؤية المصور في مخدع الزوجية مع السيدة "بلزاك". ولا يكاد بلزاك يعي ما قال، وهو رازح تحت سيطرة الحمى، يصرخ: أدركوني بالطبيب بيانشون! لا يعرفُ علتي سوى بيانشون! هو الذي بإمكانه شفائي! (سيعرف القارئ العزيز مَن هو بيانشون هذا بعد

قراءته لهذه الرواية التي بين يديه). ولا يغادر "هوجو" ذلك البيت إلا بعد أن يستدعي الزوجة، ويخبرها أن حال زوجها تتدهور بصورة مفجعة، وأنه على شفا الموت. يتركها معه ويذهب لإحضار طبيب. ولا تمر ساعات إلا ويكون "بلزاك" قد فارق الحياة.



وفي مقبرة "الأب لاشيز" بباريس، وقف الشاعرُ الكبير، والصديق الوفي، "فكتور هوجو" يلقي كلمته التأبينية: "**ليست جميع كتبهِ سوى كتابٍ واحد، كتابٍ نابض بالحياة، مشرق، عميق، نطالع فيه حضارتنا المعاصرة من ألفها إلى يائها، وهي في جيئةٍ وذهابٍ، وخطو وانتقال، كتاب رائع أسماه صاحبه "كوميديا" وكان بوسعه أن يطلق عليه "تاريخ" كتاب هو رصدٌ وخيالٌ، يقدم الحقيقيَّ، الحميميَّ، البرجوازيَّ، الغثَّ، الماديَّ، ويترك أحيانًا، وعبر كل الحقائق التي تنهار فجأة، وعلى نطاق واسع، لمحةً من أحلك التصورات وأشدها مأساوية. وبدون علمه، وسواءٌ أكان يحب ذلك أم لا يحبه، يوافق هواه أم لا يوافق، فإن مبدع هذا العمل الهائل والغريب هو مِن السلالة الفذة لهؤلاء الكتاب الثوريين. انطلق "بلزاك" مباشرةً صوبَ هدفه لا يحيد عنه، وقبض بيديه الاثنتين على المجتمع الحديث. وراح يخلع عن كلٍّ شيئًا: عن البعض نزعَ الأوهامَ، عن الآخرين الآمالَ، عن هؤلاء صرخاتهم، وعن أولئك نزع الأقنعة**".



أخيرًا

أسأل الله أن يكون هذا الجهد الذي بذلته، منصفًا لي، وأن أكون عند حسن الظن، والله ولي التوفيق.

محمد محمد السنباطي



إهداء الترجمة

إلى زوجتي: "**وفاء محروس عبد المجيد موسى**"

تلك الوفية الصابرة،

التي ما إن أشرع في كتابة رواية أو ترجمة كتاب، حتى أصيرَ موجودًا بالبيت ولا موجود، غارقًا في بحر، ويكون العبءُ عليها ثقيلاً.

ولعلي بهذا الإهداء أن أقدم لها باقة شكر وامتنان.



أونُوريه دو بلزَاك

الأب جُــوريُــو

إهداء:

إلى القدير الشهير:

جيوفردي سانت- هيلير

شهادة إعجابٍ بأعماله وعبقريته.

دو بلزاك



الفصــل الأوَّل

بنسـيُون بُرجـوَازِي

السـيدة ڤوكيه، ابنة "كـونفلان"*، امـرأة عجـوزٌ، تـديرـ منـذ أربعـين عامًاـ بنسيونًا بورجوازيًّا في شـارع "نيڤـسانت-جانڤياڤ" في باريس، فيمـا بيـن الحـي اللاتـيني وضـاحية سـان مارسـو. يَقبَـل هـذا البنسـيونـ المعروف باسم دار ڤوكيهـ الرجالَ والنساءَ على السواء، شبابًا كانوا أم شيوخًا، دون أن تتناوش الألسنُ الحِدادُ أخلاقياتِ هذه المنشأة المحترمة. لكنهـ منذ ثلاثين عامًاـ لم تطرق بابه فتاة، ولكي يدخله شاب، فلابد أن تكون عائلته بلا شك هزيلة الإمكانات.

إلا أن سنة 1819 تهلُّ على البنسيون لتَشْرَعَ في نسج خيوط هـذه "الدراما"، حيث كان ثمة فتاة شابة، فقيرة، تقيم فيه. ورغم أن كلمة

* عند الميلاد، تُمنح البنت لقب أسرتها، وعند زواجها، يسقط عنها هذا اللقب، وتُمنح لقب أسرة الزوج؛ (المحرر).

"دراما" قد استُهلكت بفعل الطريقة المبتذلة المروِّعة التي تناولها بها الأدبُ المؤلم في أيامنا هذه، إلا أن مِن الضروري استخدامها هنا، لا لأن هذه القصة هي "دراما" بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما لأن العينَ قد تذرف بعضَ الدموع *فيما بين الجدران وخارجها* قبل أن تنتهي. تُرى، هل ستكون مفهومة خارج جدران باريس؟ مسموحٌ بالشك؛ فخصوصياتُ المشهدِ هذا الغاصِّ بالملاحظات والألوان المحلية لا يمكن استيعابها وتذوقها إلا بين هضاب مونتمار ومرتفعات مونتروج، في ذلك الوادي الشهير، من ركام يكاد طوال الوقت أن ينهار، إلى جداول مائية سوداء بغِرْيَنها. ذلك وادٍ مفعمٌ بآلام حقيقية، وبأفراح زائفة، ومضطربٌ بوحشية، وعصيٌّ على أن يُدرَك بإحساس دائم. مع ذلك، فهنا وهناك، كانت تتلاقى آلامٌ يجعلها تراكمُ الفضائل والرذائل هائلة ومهيبة، وإزاءها تتوقف الأنانية والأثرة مشفقين؛ لكن الانطباع الصادر عن ذلك لا يشبه إلا ثمرة فاكهة شهية ما أسرع أن التُهمت.

إن مركبةَ الحضارة- الشبيهة بالمعبود "جَجْرنات"* - ربما يؤخرها قلبٌ أقل سهولة في سحقه من تلك القلوب الأخرى، ويعرقل عجلاتها، لكنها سرعان ما تحطمه وتستمر في انطلاقتها الظافرة. وهو نفس ما تفعله، أنت يا مَن تمسك هذا الكتاب بيدٍ بيضاء، يا مَن تغوص في مقعد وثيرٍ قائلاً: "ربما يكون هذا مسليًا لي". وبعد أن تقرأ نكبات الأب جوريو الخفية، تتناول عشاءك بشهية، محملاً المؤلف مسئولية تحجر إحساسك، معتبره مبالغًا، ومتهمه بالشاعرية! آه! فلتعلم: إن هذه الدراما ليست

---

* تعني "سيد العالم" في السنسكريتية، أي "كريشنا". ويحتفلون به كل عام بتحميل تمثاله على عربة ضخمة، يرمي الهندوس أنفسهم تحت عجلاتها الساحقة. (المحرر).

خيالاً ولا رواية. *كل شيء حقيقي*، وهي حقيقية إلى حد أن أيًّا مَن كانَ يمكنه التعرف على عناصرها في بيته، وربما في قلبه.

يعود المنزل- الذي يقع فيه البنسيون- إلى السيدة ڤوكيه. ويقع أسفل شارع "نيڤ-سانت-جانڤياڤ"، في الموضع الذي ينحدر باتجاه شارع أرباليت انحدارًا مفاجئًا وحادًّا، حتى إن الجيادَ نادرًا ما تصعده أو تنزله؛ وذلك مدعاةٌ للسكون السائد في تلك الشوارع بين قُبتي ڤال دوجراس والبانتيون، وهما أثران يغيران الجوَّ ببعثرتهما لتدرجات الأصفر فيه، وتضفي القتامة على كل شيء بالتلوينات الصارمة التي تعكسها القبتان. هنا، البلاط جاف، والجداول بلا طين ولا ماء، والعشب على طول الجدران. أما الرجل الأكثر مرحًا من سواه فيُصاب هنا بالتعاسة شأن جميع المارة، وضجيجُ عربةٍ تمرُّ يُعتبر حدثًا، والمنازلُ واجمةٌ، والجدران تُشعر بالسجن. ولن يرى باريسيٌّ ضالٌ هنا إلا بنسيونات بورجوازية أو مؤسسات للبؤس أو الضجر، للشيخوخة التي تحتضر، للشباب اليانع المكره على العمل. ما من حي في باريس أكثر فظاعة، لا، حيٌّ مجهولٌ مثله. وشارع "نيڤ-سانت-جانڤياڤ" خاصةً، الذي يشبه إطارًا من برونز، هو الوحيد الملائم لهذه القصة التي لن نعرف كيف نجهز الذهن لها بألوان كابية وأفكار صارمة؛ وهكذا، شيئًا فشيئًا، يتضاءل النهار وينشرخ غناء السائق، فينزل المسافر إلى سراديب الموتى. تشبيه صحيح! فمَن يستطيع أن يجزمَ أيُّ الأمور رؤيتها أفظع، القلوب المتيبسة؟ أم الأدمغة الجوفاء؟

تطل واجهة البنسيون على حديقة صغيرة، حيث يقع على الناصية

اليمنى لشارع "نيف-سانت-جانفياف"، فيتبدى لأنظاركم مقطوعًا في عمقه. وعلى طول هذه الواجهة، فيما بين المبنى والحديقة الصغيرة، يقبع ركام من الحصى على هيئة حوض بقامة إنسان، يواجهه ممشًى رملي محاط بأزهار إبرة الراعي، والرند الأحمر، وأشجار رمان مزروعة في زهريات ضخمة من الخزف المزخرف بالأزرق والأبيض. نجتاز لهذا الممشى بوابة مستديرة تعلوها لوحة مكتوب عليها: "**دار ڤوكيه**"، وتحتها: "**بنسيون برجوازي للجنسين وغيرهما**". أثناء النهار، ثمة باب مَنوَر، له ناقوس مزعج، يسمح بأن تلحظ في آخر بلاطة صغيرة، على الحائط المقابل للشارع، رواقًا مرسومًا على الرخام الأخضر من أحد فناني الحي. وتحت هذا التجويف الذي يصوره هذا الرسم، ينتصب تمثال يجسد الحب. ولدى إطلالتهم على الطلاء المتقشِّر، فإن هواةَ الرموز قد يكتشفون أسطورةَ حبٌ باريسية على بُعد خطوات من هنا. وعلى قاعدة التمثال نقشٌ يكاد يكون ممحوًّا يُذكِّر بالزمن الذي تعود إليه هذه الزخرفة بفعل الحماس الذي كان شاهدًا على "فولتير" لدى عودته إلى باريس عام 1777:

«أيًّا مَن تكون، فها هو سيدك:

هو كذلك، كان كذلك، أو لابد أن يكون كذلك»

وعندما يخيمُ المساء، يتحول باب المَنوَر إلى بابٍ مُصمَت. والحديقة الصغيرة- العريضة بقدر امتداد الواجهة- محصورة بحائط الشارع وحائط المنزل المجاور، الذي يتغطى ببالطو من نسيج اللبلاب يحجبه بأكمله، ويجتذب انتباه المارة بتأثيرهِ الغرائبي في مدينة كباريس. وكل حائط مفروشٌ بالنباتات المتسلقة والكروم، التي تمثل ثمارُها النحيلة المغبرة

موضوع الهواجس السنوية للسيدة ڤوكيه وأحاديثها مع زبائنها. ويمتد على طول كل جدار ممشًى ضيقٌ ينتهي بتعريشة من أشجار الزيزفون، تلك الكلمة التي تصر السيدة ڤوكيه- بما أنها ابنة "كونفلان"- على أن تنطقها "زيفون"، رغم الملاحظات النحوية لضيوفها. وفيما بين الممشيين الجانبيين، ثمة مربع من الخرشوف محصنٌ بأشجار فاكهة مشذبة الشكل، وعلى الحواف ينمو الحميض والخس والبقدونس. تحت تعريشة الزيزفون منَضدةٌ دائريةٌ مطلية بالأخضر تحيطها مقاعد. وهنا، وخلال أيام القيظ، فإن الضيوفَ الذين يسمح لهم غناهم بالقدوم لتناول القهوة، يجيئون للتلذذ بارتشافها في جوٍّ حرارتُه جديرةٌ بإفقاس البيض. والواجهة، التي ترتفع لثلاثة طوابق وتعلوها سقيفة مائلة، مبنيةٌ بالأحجار، ومدهونة بذلك الأصفر الذي يمنح سمةً بشعة لمعظم منازل باريس. وبالفتحات الخمس المتقاطعة في كل طابق مربعاتٌ صغيرة مزينة بمشربيات لا تشبه واحدةٌ منها غيرَها؛ حيث تتنافر الخطوطَ فيما بينها. ولخلفية المبنى نافذتان في كل طابق، لكنهما- في الطابق الأرضي- مزينتان ومسيجتان بقضبان حديدية. وخلف المبنى أيضًا فناء باتساع نحو عشرين قدمًا تمرح فيه الخنازير فضلاً عن الدجاج والأرانب، وفي آخره سقيفة يُرَصُّ عليها الخشب. وبين هذه السقيفة وشباك المطبخ تمتد خزانة الأطعمة، وتحتها تجري مياه الغسيل الدهنية. ينفتح هذا الحوش على شارع "نيڤ سانت- جانڤياڤ" ببابٍ ضيق، تتخلص الطاهية من خلاله من مخلفات البنسيون، وهي تنظف هذا الفنطاس الضخم بكم هائل من المياه، وتزكم أنفها الرائحة النتنة.

ويتألف الطابق الأرضي- المعد لاستخدام البنسيون البرجوازي- من

مدخل تنيره نافذتان تطلان على الشارع، ويتم الدخول إليه عبر باب يعتبر نافذة في نفس الوقت. ويتصل هذا الصالون بصالة طعام يعزلها عن المطبخ تجويف سُلَّم درجاته من خشب ومربعات ملونة مصقولة. ولا شيء يقبض عينَ الرائي كهذا الصالون المؤثث بـ"فوتيهات" وكراسي منجدة بنسيج من الوبر ذي خطوطٍ تتناوبها القتامة واللمعان. في الوسط منضدة مستديرة تعلوها رخامة من طراز "سانت-آن"، تزينها آنية من البورسلين الأبيض معروقة بخيوط مذهبة ممحوة قليلاً، مما نلقاه اليوم في كل مكان. وجدرانُ تلك الغرفة مبطنةٌ بالخشب بطريقة سيئةٍ، حتى ارتفاع المسند. أما بقية الجدران، فبالورق المرسومة عليه المشاهد الرئيسية لـ"تليماك"*، وقد تلوَّنت شخصياتها "الكلاسيكية". واللوحة- التي تقع بين النافذتين المسيجتين- تقدم للزبائن مشهدَ الوليمةِ التي قدمتها "كاليبسو" لابن "عوليس". ومنذ أربعين عامًا، وهذا الرسم يثير تندر شبان البنسيون، الذين يرون أنفسهم أرقى من أوضاعهم، وهم يسخرون من العشاء الذي فرضته عليهم فاقتهم. والمدخنة الحجرية نظيفة الفُرن دائمًا كشاهد على أنها لا تعمل إلا في المناسبات الكبرى، تزينها زهريتان مليئتان بزهور صناعية، قديمة ومحبوسة، ترافقهما ساعة حائط على رخام مائل للزرقة من أردأ ذوق. وتفوح تلك الحجرة برائحة لا تجد لها اسمًا في اللغة، ويمكنك تسميتها *رائحة* البنسيون. تفوح بالنتن، والعطن، والزنخ؛ تجعلك تبرد، وتنز بالرطوبة في منخريك، وتخترق

---

* **تليماك**: شخصية أسطورية إغريقية من "الأوديسا"؛ ابن عوليس وبينيلوب. قام بالدفاع عن أبيه- لدى عودته- وساعده على استعادة عرش إيثاكا. وقد استعاد فينيلون الشخصية في كتابه الذي ألفه لتعليم دوق بورجوني بعنوان "مغامرات تيليماك" (1699)؛ (المحرر).

ملابسك، كما لو كانت صالة طعام تعشيتَ فيها لتوِّك؛ وتلاحقك رائحة الخِدمة، وغرف الخدمة، والمأوى. وربما يمكن وصفها إذا ما أمكن اختراع طريقة لتقدير الكميات الأصلية والمقززة التي تضخها هنا أجواء نزلات البرد الفريدة في حدتها والخاصة بكل نزيل، شابًّا كان أو شيخًا. مع ذلك، وبرغم هذه الفظائع المطروحة، فلو قارنتموها بصالة الطعام الملاصقة لها، لتبدَّت لكم معطرةً كمخدع عروسين. وهذه الصالة المبطنة كلها بالخشب كانت قد طليت في غابر الأيام بلون لا يمكن تمييزه اليوم، وتشكل عُمقًا تُراكم عليه القذارة طبقاتها بطريقة ترسم بها عليه أشكالا غرائبية. وهي مغلفة ببوفيهات لزجة تطالع عليها مغارفَ عميقة كامدة، ذات حوافٍّ زرقاء، ودوائر متماوجة معدنية، وأكداس من أطباق البورسيلين السميك ذات الحواف الزرقاء، المصنوعة في "تورنيه". وفي إحدى الزوايا، ثمة صندوقٌ ذو فتحاتٍ مرقمةٍ يحفظ فيها كل زبون- على حدةٍ- منشفاتِهِ القذرة المبقعة بالنبيذ. وهنا تشهد هذه الموبيليا العتيقة من النوع الذي لا ينكسر، التي حُظر استعمالها في كل مكان، لكنها موجودة هنا كبقايا حضارة غابرة. وسترى هنا- عندما تمطر السماء- باروميترًا يخرج من داخله قردٌ بشعُ المنظر، ونقوشًا تفقدك شهيتك، مؤطرة كلها بالخشب المطلي والمخطط بماء الذهب؛ وبطاقة إعلان من الصدف الموشى بالنحاس؛ ومقلاة خضراء اللون، ومسارج "أرجان" التي يتحد فيها الغبار بالزيت، ومنضدة طويلة مفروشٌ عليها مشمع بلغ من القذارة حد أنه يمكِّنَ أيَّ شخص من كتابة اسمه عليه بإصبعه، وكراسي كسيحة، وممسحات أرجل من الحلفاء تدعو للرثاء لا تُنزع عن أماكنها أبدًا، ومدافئ صغيرة بائسة ذات ثقوب مهشمة ومفصلات مفككة

تفحم خشبها. ولكي أصف كم هي قديمة هذه "الموبيليا" مشققة، عفنة، مضطربة، منخورة، كتعاء، عوراء، عاجزة، محتضرة، فسيتوجب حينئذٍ القيام بوصف سيعطل كثيرًا متعة هذه الرواية، مما لن يغفره القراء المتعجلون. والمربع الأحمر غاصٌّ بالوديان التي تمخضت عن الاحتكاكات أو التلوين. في النهاية، يسود البؤس بلا أدنى شاعرية، بؤس مقتصد، محتشد، رث. وإذا لم يكن ذلك البؤس غارقًا في الطين بعد، فإنه ملطخٌ بالبقع، وإذا لم تكن به مِزق أو خرق بالية، فإنه واقع لا محالة في بؤرة العفن.

في كامل أبهتها تتبدى القاعة الآن، حيث يدخل- والساعة نحو السابعة صباحًا- قطُّ السيدة ڤوكيه يسبق سيدته، ويقفز على البوفيهات، يتشمم فوقها اللبن الذي تحويه العديد من القصاع المغطاة بالصحون. ويصدر صوت *لعاقهِ* الصباحي. في الحال، تظهر الأرملة في قلنسوتها المنسوجة من "التول"، وقد ظهر تحتها جانب متهدل من شعر مستعار رديء؛ تخطو وهي تجرجر شبشبها المتغضن. وجهها الشائخ اللحيم يتوسطه ويتقدمه أنفٌ كمنقار ببغاء؛ يداها الصغيرتان مربربتان، وهيئتها السمينة تشبه فأر الكنيسة، و"الكورساج" المتخم الرجراج يتناغم مع هذه الصالة التي تنضح بالبؤس والشقاء، حيث تتراكم التكهنات، وتنشق السيدة ڤوكيه هواءها الحبيس العفن بلا تقزز. سيماءها طازجةٌ كبشائر جليدِ الخريف، وعيناها مغضنتان، وينتقل تعبيرهما من الابتسام الموصوف للراقصات إلى التقطيب المرِّ للمرابي؛ وباختصار، فهيئتها كلها تفسر كينونة البنسيون، كما يفسر البنسيون هيئتها. وإذ لا يُدار سجنُ الأشغالِ الشاقة بدون مراقب، فلن تستطيع أن تتخيل أحدهما بدون

الآخر. فالسمنة الشاحبة لهذه المرأة الضئيلة هي نتاج لتلك الحياة، مثلما أن التيفوس هو نتاج للروائح الكريهة للمستشفيات. تنُّورَتُها الداخلية من صوف التريكو تتدلى إلى ما تحت تنورَتِها الخارجية المصنوعة من ثوب عتيق، وحشوها من القطن المندوف يهرب من فتحات القماش المتشقق وهو ما يلخص الصالون وصالة الطعام والحديقة الصغيرة، ويدل على المطبخ، ويشي بالنزلاء. وعندما تكون هي هنا، فالمشهد كله يكتمل. في حدود الخمسين، وتشبه جميع *النساء اللائي ينغمسن في الشقاء*. عيناها زجاجيتان، وهي على شاكلة السماسرة أو القوادين الذين يبدون أبرياء ومتأهبين للغضب والاحتداد والاحتدام ليقبضوا ثمنًا أعلى. لكنها- مع ذلك- مستعدة لكل شيء لتكون لطيفة في النهاية بإرضاء جميع الأطراف. ومع ذلك، فالنزلاء يرون فيها *امرأة طيبة في سريرتها*. إذ يظنونها غير محظوظة، وهم يسمعونها تتأوه وتسعل مثلهم. فماذا كان إذن "السيد ڤوكيه؟" لم تكن تفصح أبدًا في الحديث عن المرحوم. فإذا ما سُئلت كيف فقد ثروته؟ تجيب: "في المصائب". كان سيءَ المعاملة لها. لم يترك لها سوى عينين لتذرفا الدموع، وهذه الدار لتقيم فيها، والحق في ألا تشفق على أي بائس؛ فهي- كما قالت- عانت من كل ما يمكِن أن تعاني منه. وإذ سمعت وقع خطى سيدتها، سارعت سيلڤي السمينة، الطاهية، بإعداد فطور النزلاء الداخليين.

وعمومًا، فالضيوف الخارجيون لم يكونوا يشاركون إلا في العشاء، الذي يكلف ثلاثين فرنكا شهريًا. وفي الوقت الذي بدأت فيه أحداث هذه القصة، كان النزلاء الداخليون سبعة. كان الطابق الأول يضم أفضل شقتين في البنسيون. تقيم السيدة ڤوكيه في أقلهما اعتبارًا، فيما

تقطن الشقة الأخرى السيدة كوتور، أرملة مأمور صرافة بالجمهورية الفرنسية. ومعها فتاة في ريعان الشباب تُدعى ڤكتورين تايفيه، تعاملها كابنتها. وكان سكنهما وإعاشتهما يكلفان ألفا وثمانمئة فرنك سنويًّا. فإذا ما انتقلنا إلى الطابق الثاني، وجدنا الشقتين مسكونتين، إحداهما يشغلها عجوز يُدعى پواريه، بينما الأخرى تخص رجلاً في حوالي الأربعين من عمره، يضع على رأسه باروكة سوداء، ويصبغ سوالفه، ويُقال إنه تاجر قديم، يدعى السيد ڤوتران. لكن الطابق الثالث يحتوي على أربع حجرات، منهما اثنتان مستأجرتان: واحدة لعانس تُدعى الآنسة ميشونو والأخرى لصاحب مصنع شعريَّة وعجائن إيطالية ونشا، يطلقون عليه الأب جوريو. تتبقى حجرتان خُصصتا للطيور العابرة، وأعني بهم تعساء الحظ من الطلبة الذين- شأنهم شأن الأب جوريو والآنسة ميشونو- لا يستطيعون دفع سوى خمسة وأربعين فرنكًا شهريًّا للطعام والسُّكنى. ولكن السيدة ڤوكيه لم تكن تأمل كثيرًا في أن يظلوا هنا، وما كانت لتقبلهم إلا لأنها لم تجد ما هو أفضل: لقد كانوا يلتهمون كمية كبيرة من الخبز. في ذاك الوقت، شُغلت إحدى الحجرتين بشاب قادم من ضواحي "أنجوليم" إلى باريس ليدرس القانون، وعانت عائلته كثيرة العدد من حرمان هائل لتتمكن من إمداده بألف ومئتي فرنك سنويًّا. كان يوچين دو راستنياك، وهذا هو اسمه، واحدًا من أولئك الشبان المعتادين على الشغل منذ نعومة أظفارهم، ويعلمون أن والديهم يعقدان عليهم الآمال، ويتهيئون لمصير رائع حيث يوجهون دراساتهم ويطوعونها مع الحركة المستقبلية لمجتمعهم، ليكونوا أوائل مَن يجنون الثمار. ولولا ملاحظات هذا الشاب المثيرة، والعنوان الذي استطاع به التوغل في

صالونات باريس، فما كان لهذه القصة أن تتلون بهذه النبرات الحقيقية، التي تعود- على الأرجح- إلى بصيرته الثاقبة، ورغبته في التغلغل في أسرار وضع رهيب، يخفَى بعناية بفعل أولئك الذين خلقوه، وأولئك الذي يعانونه.

وفوق الطابق الثالث، ثمة حجرةٌ للغسيل وحجرتان صغيرتان لنوم اثنين، هما: صبيٌّ كادح يُدعى كريستوف، والطاهية السمينة سيلڤي. وعلاوة على النزلاء السبعة، كان لدى السيدة ڤوكيه ثمانية طلابٍ يدرسون القانون أو الطب، فضلا عن اثنين أو ثلاثة من أهل الحي اعتادوا أن يشاركوا في طعام العشاء ليس إلا. كانت صالة الطعام تضم، في وجبة العشاء هذه، ثمانية عشر شخصًا، ويمكن أن تتسع لعشرين، إلا أنها في الصباح لا يُرى فيها سوى السبعة الأصليين الذين يتبدى تجمعهم على الفطور وكأنهم في وجبة عائلية. كان كل منهم ينزل وهو يرتدي الشبشب، ويبدي ملاحظاته الحميمة حول وضع أو هيئة المشاركين من الخارج، أو أحداث السهرة الفائتة، واثقًا من سريان الألفة والمودة. كان هؤلاء السبعة هم الأطفال المدللون للسيدة ڤوكيه، التي كانت تزنهم- بدقة فلكية- بحسب ما ينفقون في البنسيون. فثمة اعتبارٌ يَرينُ على هؤلاء السبعة الذين جمعتهم الصدفة وحدها. ولم يكن مستأجِرا الطابق الثاني يدفع الواحد منهما سوى اثنين وسبعين فرنكا شهريًّا. وهذا السعر الزهيد- الذي لا تجده إلا في ضاحية "سان-مارسيل"، بين "البورب" و"السالبترير"، والذي تمثل فيه السيدة كوتور الاستثناء الوحيد- يؤكد أن هذين النزيلين يرزحان تحت خط الفقر، أو يبدوان كذلك، على نحوٍ ما. وأيضًا، فالمشهد المزري الذي كان يتجلى داخل هذا البنسيون كان يتكرر

في ملابس نزلائه، المهلهلة الرثة! كان الرجال يرتدون "ردنجوتات" يستشكل لونها على العين، وأحذية كتلك التي يُلقى بها على قارعة الطريق في الأحياء الراقية، وفانلات رثة، وثياب لفظت آخر أنفاسها. وكانت للسيدات ثياب غابرة، أعيد صبغها، ورِفَاء ثقوب الدانتيللا، وقفازات أضناها طول الاستعمال، وياقات محمرةٌ وأوشحة منتسلة. فإذا ما كانت هذه هي الملابس، فقد كانت تكشف أجسادًا قوية البنية، وبِنيات قاومت عواصف الحياة، ووجوهًا باردة، حادة، ممسوحة كما العملات التي ألغي تداولها. أما الأفواه الذابلة، فكانت مسلحةً بأسنان شرهة. وكان هؤلاء النزلاء يستشعرون وقوع درامات تمت، أو ما تزال تجري: لم تُمثَّل إحداها تحت أضواء المسارح، بين الأقمشة الملونة، بل هي "درامات" حقيقية، صامتة، "درامات" ثلجية، وإن كانت تنفث سخونتها في القلوب، "درامات" متواصلة.

وكانت الآنسة العجوز ميشونو تضع فوق عينيها الكليلتين وقاءً قذرًا من قماش التفتة الحريري، أخضر اللون، محاطًا بخيط نحاسي، بما يمكن أن يفزع ملاك الرحمة. أما شالها ذو الشراشيب النحيلة النائحة، فيتبدى وكأنما يغطي هيكلا عظميًا، والتكوينات التي يحجبها كانت بارزة. فأي حامضٍ قد سلخ هذه المخلوقة عن التكوينات النسائية؟ فقد كان لها أن تكون جميلة، جيدة الشكل: أهي الرذيلة؟ أم الحزن؟ أم الجشع؟ هل أسرفت في الغرام؟ أكانت بائعة أدوات زينة، أم عاهرة فحسب؟ أتدفع الآن ثمن انتصاراتِ شبابٍ وقح، كانت الملذات زاده، بشيخوخة ترعب المارة؟ كانت نظرتها البيضاء تنضح بالبرودة، ووجهها الذاوي يتوعد.

وكان لها الصوت الحاد لزيز الحصاد الصارخ في الدغل لدى اقتراب الشتاء. كانت تردد أنها تعتني برجل عجوز مصاب بالتهاب المثانة، هجره أبناؤه فاقدين الأمل في شفائه. وقد أوصى لها ذلك العجوز بألف فرنك معاشًا سنويًّا لها، مما جر عليها الشجار مع الورثة بين الحين والحين، إثر وشايات تعرضت لها. ومع أن لعبة الشهوات قد أتلفت هيئتها، إلا أنها ما تزال تحمل في بشرتها آثار بياض ونعومة تسمح بأن نفترض أن الجسد ما يزال يحتفظ ببقايا جمال.

أما السيد پواريه فكان رجلا آليًّا. وإذ يلمحونه ممددًا كظل داكن بطول ممر حديقة النباتات، ورأسه مغطًّى بـ"كاسكتة" قديمة رخوة مفلطحة، ممسكًا بعصاه ذات القبضة العاجية المصفرة، تاركًا أهداب "الردنجوت" الذي يخفي بنطاله القصير الفارغ تقريبًا، وساقيه- حيث يدس قدميه في جوربين زرقاوين- تصطكان كساقي سكران، كاشفًا عن صدرية بيضاء قذرة، وحاشية من الموسلين الشفاف ملتوية بلا توافق نهائيًّا مع "كراڤتته" التي تحيط برقبةٍ كرقبة ديك رومي، كان الكثيرون يتساءلون ما إذا كان هذا الظل الغريب منتميًا إلى أبناء "يافث" المتهورين الذين يتهادون على الطريق الإيطالي. فأي عمل قد جعَّده هكذا؟ وأيةُ عاطفة قد سخَّمَت هذا الوجه المنتفخ كبصلة، الذي إن رُسم- على نحو كاريكاتوري- فسيبدو كأنما لا يمت بصلةٍ للحقيقة؟ فماذا كان من قبل؟ ربما كان موظفًا في وزارة العدل، في المكتب الذي يرسل منه منفذو الإعدام مذكراتِ التكاليف، وحسابَ لوازم العصابات السوداء التي تُغطى بها رؤوس المحكومين بالإعدام، والنشارة، وحبال للسكاكين. ربما كان جابيًا على بوابةِ مجزر، أو معاونًا لمفتش صحة. وفي النهاية، فذلك

الرجل يبدو أنه كان أحد حمير طاحونتنا الاجتماعية، أو أحد "الراتونات"* الباريسية، ممن لا يعرفون، حتى، أولئك الذين نصبوا عليهم؛ بل هم محاور تدور فوقها النكبات أو القذارات العامة.. في نهاية الأمر، هو أحد الرجال الذين نقول عنهم عندما نراهم: ***ومع ذلك، فينبغي أن يوجدوا هكذا***. ويجهل الوجهُ الجميل لباريس تلك الوجوهَ الشاحبة المتقعة من المعاناة الخلقية أو الجسدية. ولكن باريس محيط حقيقي. ألقِ مسبارَك فيه، فلن يصل إلى قاعه. طُف بها، صِفها! فمهما بذلت جهدك لتحيط بها أو لتصفها، فإن كهوفًا منها ستظل مجهولة لك، وزهورًا، ولآلئ، ومسوخًا، وأشياءَ خارقةً كثيرة، سينساها غواصو الأدب. و"دار ڤوكيه" هي إحدى تلك الغرائب البشعة.

كان ثمة وجهان فقط يصنعان مفارقة لافتة مع النزلاء والمترددين. ومع أن الآنسة ڤكتورين تايفيه ذات بياض مرَضيٍّ يشبه ما يحدث للفتيات الشابات اللائي يضربهن فقر الدم، وبكونها محسوبة على المعاناة العامة التي تشكل عمق هذه اللوحة، بحزنها الاعتيادي، وحالتها المرتبكة، وبسيماء بائسة نحيلة، إلا أن وجهها لم يكن شائخًا، بل كانت حركاتها ونبرات صوتها متوقدة. هذا الشقاءُ اليانعُ كان كشجرة اصفرَّت أوراقها إذ غُرست في أرض لا تناسبها. فسيماؤها الضاربة للصهبة، وشعرها الأشقر الأصهب، وقوامها النحيل، كان كل ذلك يشي بلطافةٍ وأناقة يجدها الشعراء الحديثون في تماثيل العصر الوسيط. كانت عيناها الرماديتان في أسودٍ تعبران عن رقة، واستسلام مسيحي. أما ثيابها

---

* الراتون Raton: حيوان ثديي، يشبه الدب أو الغرير؛ (المحرر).

البسيطة، الرخيصة، فكانت تفضح التقاطيع الشبابية. كانت جميلة بفعل المجاوَرة؛ فمتى كانت سعيدة تلمحها فاتنة؛ فالسعادة هي شِعر النساء، مثلما الزينة هي خضابهن. ولو أن إحدى حفلات الرقص عكست ألوانها الوردية على وجهها الشاحب، أو إذا ما نعومةُ حياةٍ أنيقةٍ ملأت أو انغمست في وجنتيها اللتين تحددتا على نحوٍ ما فعلاً، ولو أن الحبَّ أعاد الحيوية إلى عينيها الحزينتين، لتمكنت ڤكتورين من أن تباريَ الفتياتِ المشهود لهن بالحسن والجمال. ما كان ينقصها هو ما يعيدُ خلقَ المرأة مرةً ثانية، الثياب وكلمات الغزل. ويمكن لقصتها أن تشكل موضوع كتاب. كان والدها يعتقد أن لديه أسبابه لئلا يعترف بها، رافضًا أن يدعها تعيش معه، دون أن يمنحها سوى ستمائة فرنك سنويًا من ثروته التي راح يتلاعب بها، حتى ينقلها بكاملها إلى ابنه.

تمتُّ السيدة كوتور بصلة قربى بعيدة لوالدة ڤكتورين، تلك الوالدة التي أتت لتموت يأسًا وقنوطًا لدى السيدة كوتور التي غمرت اليتيمة الصغيرة بعنايتها، كما لو كانت طفلتها هي. ولسوء الحظ، فإن أرملةَ مأمور الصرافة في جيوش الجمهورية لم تكن تمتلك شيئًا في هذا العالم سوى صداقها ومعاشها؛ كان يمكنها أن تتخلى ذاتَ يوم عن هذه الفتاة المسكينة، بلا خبرة ولا وسائل إعاشة، تحت رحمة العالم.

صباحَ كلِّ يوم أحدٍ، كانت هذه السيدة الطيبة تصحب ڤكتورين إلى القُداس، وإلى الاعتراف كلَّ أسبوعين، لتجعل منها- مهما كانت الظروف- فتاةً نقية. والحق معها. فالمشاعر الدينية كانت تقدم مستقبلاً لهذه الفتاة المجحودة، التي كانت تحب والدها، وتغذ الخطى إليه مرةً كلَّ عام، لتحمل إلى بيته غفرانَ والدتها، لكنها- كل عام- تصطدم ببوابة

البيت الأبوي الموصدة تمامًا في وجهها. أما أخوها، الوسيط الأوحد لها، فلم يأتِ لرؤيتها، ولا حتى مرةً واحدة خلال السنوات الأربع، ولم يرسل لها أية مساعدة. وكانت تضرع إلى الله ليفتح عيني والدها، ويحنن بقدرته قلب شقيقها، تصلي من أجلهما دون أن تشكوهما. ولم تجد السيدة كوتور والسيدة ڤوكيه في قواميس الشتائم ما يكفي ليناسب ذلك السلوك البربري. وعندما كانتا تلعنان هذا المليونير الدنيء، كانت ڤكتورين ترد بكلام رقيق، شبيه بهديل يمامة جريحة، تعبر صرختها الأليمة ما تزال عن الحب.

أما يوچين دو راستنياك، فكان له وجهُ أهالي الجنوب الفرنسي: السحنة البيضاء، والشعر الأسود، والعينان الخضراوان. هيئته، وسلوكه، ولفتته الاعتيادية، كانت تدل على أنه من عائلة نبيلة، حيث كانت تربيته الأولية وتعليمه لا يتواءمان إلا مع تقاليد الذوق الرفيع. فإذا ما كان مقتصدًا في ثيابه، وإذا ما كان- في الأيام العادية- يستخدم ثياب العام المنصرم، إلا أنه يستطيع- عندما يتطلب الحالُ- أن يخرج كشابٍّ في كامل أناقته. أما في الأوقات العادية، فيرتدي "ردنجوتًا" قديمًا و"صدرية" رديئة و"كرافتة" سوداء كريهة مكرمشة، معقودة بطريقة سيئة تليق بتلميذ، وبنطلونًا يتواءم مع باقي ثيابه تلك، وحذاءً مخصوفَ النعل.

وبين هاتين الشخصيتين وغيرهما، كان ڤوتران رجلا أربعينيًّا، ذا سالفين مصبوغين، يلعب دور الوسيط. وهو ممن قال الناس، لدى رؤية أمثاله: "ذلك رجل جَسور". كانت له أكتاف عريضة، وبنية متينة، بارز العضلات، يداه ضخمتان مفلطحتان، ينمو على ظاهرهما شعر كثيف أصهب، محتدم! أما وجهه المخدد بأخاديد سابقة لأوانها، فكان يبدي

صرامةً تناقضها سلوكياته المرنة. وصوته الجهير، المتناغم مع مرحه الغامر، لم يكن ليزعج أحدًا. كان ملتزمًا ضحوكًا. وإذا ما استغلق أحد الأقفال، كان يقوم بفكه وتزييته وإعادته إلى حالته الجيدة، قائلاً: "إنه يعرفني!" وأيضًا، كان يعلم كل شيء، عن السفن، والبحر، وفرنسا، والدول الأخرى، والأعمال التجارية، والناس، والأحداث، والقوانين والفنادق والسجون. وإذا ما اشتكى أحد، كان يقدم في التو له يد العون. وكم من مرة أقرض أموالاً للسيدة ڤوكيه وبعض نزلاء البنسيون؛ وإن كان هؤلاء المدينون ليفضلون أن يموتوا على أن يعيدوا إليه أمواله؛ ورغم مظهره الطيب إلا أنه كان يحمل نوعًا من التوجس في نظراته العميقة المفعمة بالحزم. وبطريقته التي كان يقذف بها البصقة من فمه، كنت تراه رابطَ الجأش باردَ الأعصاب، لا يتقهقر أمام جريمةٍ ما ليخرج من موقف ملتبس غامض. وكقاضٍ صارم، تغوص عيناه في أعماق القضايا، وفي ضمائر البشر، ومشاعرهم. ومن عاداته أن يغادر بعد الإفطار، فلا يعود إلا ليتعشى، ثم يشد الرحال خارجًا طوال السهرة، فلا يرجع إلا مع منتصف الليل، فيفتح البوابة بمفتاح خاص زودته به السيدة ڤوكيه. وهو وحده من كان يتمتع بهذه المزية. لكنه كان أيضًا على ما يرام مع الأرملة فيناديها "ماما"، ويطوق خصرها، ويمطرها بإطراءاته نصف المفهومة! وكانت تأخذ معه الأمور ببساطة، فيما كان هو وحدَهُ من النزلاء مَن كانت له الذراع الطويلة التي بإمكانها تطويق هذا الخصر الثمين.

وإحدى سِماته أنه كان ينفق كل شهر، بسخاءٍ، خمسة عشر فرنكا ثمنًا للقهوة بالكحول، التي كان يتناولها بعد الأكل. وأناسٌ بسطحية هؤلاء الشبان الذين تجرفهم دوامات الحياة الباريسية، أو هؤلاء العجائز

اللامبالين بما لا يمسهم مباشرةً، لم يكن ليستوقفهم طيف الشك الذي كان يحوم حول ڤوتران. كان يدرك أو يخمن أحوال المحيطين به، الذين لا يتمكن واحدٌ منهم من التغلغل في أفكاره أو مهنته. فبالرغم من طيبته الظاهرة، فإن دماثته الدائمة، وبشاشته، كانا حاجزًا يفصل ما بينه وبين الآخرين، إلا إنه كان كثيرًا ما يسمح بظهور أعماق شخصيته المخيفة. كان يرسل النكات الساخرة، هازئًا بالقوانين، جالدًا الطبقاتِ العليا من المجتمع بسياطهِ، حيث يراها غاصة بالمتناقضات، حتى يجعلك تظن أنه يحمل أحقادًا دفينة للأعراف الاجتماعية، وأنه يخبئ في زواياه الداخلية أسرارًا يطمرها بعناية.

وربما بلا وعي منها، كانت الآنسة تايفيه منجذبةً بقوةِ أحدهما، أو بوسامة الآخر، توزع نظراتها العابرة وأفكارها الحميمة بين الرجل الأربعيني، والشاب الطالب؛ ولكن فيما يبدو، فلا هذا ولا ذاك اهتم بها، رغم أن بإمكان الحظ، بين يوم وآخر، أن يقلبَ أوضاعها ويجعلها شريكًا ثريًّا. ومن جهة أخرى، فلم يهتم أحد من هذه الشخصيات بالتحقق مما إذا كانت الآلام التي يزعمها أحدهم حقيقيةً أم زائفة؛ فكل منهم يحمل للآخر لامبالاة مخلوطة بالريبة بسبب مواقفهم المتبادلة. ولم يكن خافيًا عليهم أنهم عاجزون عن تخفيف آلامهم، ولا يزالون يحكون قصصهم حتى فاض كأس التسرية. شبيهون بزوجين عجوزين لم يعد ثمة جديد لديهما ليحكيه الواحد للآخر. ولم يتبق إذن بينهم سوى علاقات الحياة الآلية، لعبة الدواليب بلا زيت. وكان عليهم جميعًا أن يمروا بلا التفات في الطريق أمام ضرير، وأن يروا في وفاة أحد الأشخاص حلاًّ لمعضلة الفقر التي تجعل الأجسام باردة ببرودة المحتضرين. بيدَ أن أسعدَ

تلك النفوس البائسة كانت السيدة ڤوكيه، المتربعة على عرش بيتِ الضيافة الحر هذا. ولها وحدها تلك الحديقة الصغيرة التي يوسِّعها كسهبٍ الصمتُ والبردُ، الجفافُ والرطوبةُ، لتشعر بها كحرج ضاحك.

في عينها وحدها إذن كان هذا المنزل الأصفر، الكئيب المجتزر، لذةَ الملذات. هذه الحجرات لها. وهي تطعم هؤلاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، وهي تمارس عليهم سلطةً لها احترامها ووقارها. فأين كان لهذه الكائنات البائسة، في مدينة مثل باريس، أن يحصلوا على غذاء صحي، وكافٍ، وسكن كأنما هم أصحابه، بغض النظر عن كونه مريحًا أو غيرَ مريح، سوى هنا؟

إن تجمعًا مثل هذا لابد أن يكون- ولابد أنه كان- صورة مصغرة لمجتمع بأكمله. فمن بين الثمانية عشر ضيفًا كان ثمة، كما هو الحال في الكليات، وفي العالم الباريسي، مخلوقٌ بائسٌ منبوذٌ، أو كبشَ الفداء، الذي تنهمر عليه الدعابات. ففي نهاية السنة الثانية، أصبح ذلك الوجه- بالنسبة ليوچين دو راستنياك- هو النتوء الأبرز بين تلك الوجوه التي قُدرَ عليه أن يحيا بينها عامين آخرين. ولم يكن هذا *الهُزأة* سوى صانع الشعرية القديم، الأب جوريو، مَن على رأسه قام رسامٌ- كمؤرخ- بإسقاط كل أضواء اللوحة. فأية صدفة جعلت كل هذا الاحتقار والازدراء، وذلك الاضطهاد الممزوج بالشفقة، وعدم احترام البؤس، يتكالبون على أقدم مقيم بالبنسيون؟ فهل جلب ذلك على نفسه بفعل بعض تلك الحماقات أو الغرائب، التي يمكن اغتفارها بسهولة أكبر من اغتفار النقائص؟ هذه التساؤلات تلقي نظرة فاحصة على المظالم الاجتماعية. وربما يكون من طبيعتنا البشرية أن نتعاطف بكليتنا مع مَن يعاني بتواضع حقيقي،

بوهن، أو عدم اكتراث. ألا نحبُّ جميعًا أن نُظهرَ قوتنا على حساب شخصٍ ما، أو شيء ما؟ كالكائن الأكثر وهنًا، أو الصبي الذي يدقُّ جميعَ الأبواب عندما يتساقط البرَد، أو يتسلل ليكتب اسمه على أثر لم تلمسه يد من قبل.

الأب جوريو عجوزٌ يناهز التاسعة والستين، ألقى عصا الترحال لدى السيدة ڤوكيه عام 1813، بعد أن هجر التجارة. أقام أولاً حيث تقيم الآن السيدة كوتور، وكان يدفع ألفًا ومائتي فرنك سنويًا للإقامة والطعام، كرجل لا قيمة لخمس لويزات* ـ زائدة أو ناقصة ـ لديه. وقامت السيدة ڤوكيه بتجديد الثلاث غرف اللائي تتكون منها الشقة، مستفيدةً من مُقدَّم دفَعه، فيما يُقال، قيمة تأثيث فظ، يتألف من ستائر صفراء من القطن الخام، ومقاعد كبيرة من الخشب المدهون مكسوة بقطيفة "أوتريخت" وبعض اللوحات الملصوقة، وورق حائط لابد أن حانات الحي لم تكن لتقبل به. ولابد أن الكرم اللامبالي الذي سمح الأب جوريو لنفسه بأن يقع في شركه، في هذه الفترة ـ التي كان يُدعَى فيها باحترام "السيد جوريو" ـ هو ما جعلها تعتبره أحمق لا يعرف شيئًا عن التجارة. وكان جوريو قد أعد دولاب ملابس مُعتبَرًا، العُدة الرائعة لتاجر جُملة لا يحرم نفسه من شيء لدى اعتزاله التجارة. وهال السيدة ڤوكيه منظر الثمانية عشر قميصًا من الحرير الهولندي لديه، التي كانت رهافتها بالغة الروعة، حين كان صاحب "معمل الشّعرية" يرتديها، وينيم على صدريته دبوسين تصل بينهما سلسلة، ويعلو كلا منهما ماسة

---

* عملة فرنسية.

كبيرة. وإذ كان معتادًا على ارتداء ملابس زرقاء زاهية، فقد كان يرتدي كل يوم صدريةً قطنية ناصعة البياض، تترجرج تحتها بطنٌ كمثرية الشكل، ناتئة تتواثب فوقها سلسلة ذهبية ثقيلة رائعة النقش يتحلى بها. ومن الذهب أيضًا، كانت ثمة علبة نشوق، بها خصلاتُ شَعر، توحي بأنه ما يزال ذا ثروةٍ ما. وحين اتهمته مضيفته بأنه "زير نساء"، سمح بأن تشرد على شفتيه البسمة المرحة للرجل البرجوازي الذي أثنينا على حصانه. أما *خزناته* (وكان ينطق تلك الكلمة بلهجة أهالي الطبقة الدنيا)، فامتلأت بالفضيات النادرة. وتأتلق عينا الأرملة وهي تساعده، مجاملةً له، في ترتيب وتنظيف المغارف، وملاعق اليخنة، والمفارش، وقنينات الزيت، والسكريات، والأطباق الكثيرة، وفضيات مذهبة للطعام، وأخيرًا عدة قطع متفاوتة الجمال بقيمة مبلغ ما من الماركات، لم يشأ أبدًا التخلي عنها. تلك الهدايا كانت تذكره بسكينة حياته المنزلية. "انظري" يوجه حديثه إلى السيدة ڤوكيه، وهو يمسك طبقًا وقصعة صغيرة يمثل غطاؤهما يمامتين والمنقار في المنقار، "تلك أول هدية قدمتها لي زوجتي، بمناسبة عيد زواجنا الأول. مسكينة كانت! كرست لها كل ما ادخرته أيام عزوبيتها. هل ترين، يا سيدتي؟ أنا مستعد أن أنحت الصخر بأظافري عن أن أفرط في هذه الأشياء. شكرًا لك، يا رب! أستطيع أن أتناول قهوتي في هذه الجفنة كل صباح ما بقي لي من أيام! لا أشكو من شيء؛ فعندي من الخبز ما يكفيني لوقت طويل". وأخيرًا، فقد رأت السيدة ڤوكيه، بعيني صقر، في دفتر حسابه، أن دخله السنوي يقدر بثمانية إلى عشرة آلاف فرنك. ومنذ تلك اللحظة، خطرت أفكار ببال السيدة ڤوكيه، ابنة "كونفلان"، التي كان عمرها آنئذٍ ثمانية وأربعين عامًا لا تعترف إلا

بصحة تسعة وثلاثين منها فقط. فمهما كانت زاوية عين جوريو مقلوبة ومنتفخة، ومتهدلة، ويُضطر مرارًا لتجفيفها، فقد وجدت فيه السيماء المناسبة، كما يجب أن تكون.

ثم إن ربلة ساقه اللحيمة البارزة كانت تشي- مع أنفه الطويل المفلطح- بخصائص أخلاقية كانت تجتذب الأرملة، وكان يؤكدها الوجه المستدير الساذج الأبله لهذا الرجل الطيب. كأنه حيوان متين البنية، يمكنه أن يبذل روحه كلها فيما هو عاطفي. أما شعر رأسه الشبيه بجناحَي حمامةٍ فكان حلاق من مدرسة الصنائع يجيء كل صباح ليصففه له، مُشكّلاً به خمسة بروزات دقيقة على أسفل جبينه، ويزين جيدًا وجهه. ورغم أنه كان فظًا إلى حدٍّ ما، إلا أنه كان متأنقًا في ملبسه، وكان يتناول سعوطًا غالي الثمن، يستنشقه كرجل متأكد دائمًا أن علبة طباقه ممتلئة بالسعوط، حتى إنه في اليوم الذي استقر فيه عند السيدة ڤوكيه، ظلت تلك الليلة مستلقية في سريرها تتلظى، كحَجَلٍ في دُهنه، على نار الرغبة في أن تترك اسم ڤوكيه، لتولد من جديد باسم جوريو. أن تتزوج، وتبيع البنسيون، وتمنح يدها لوردة البرجوازية الرهيفة هذه، وتصبح سيدة مجتمع مرموقة في محيطها، وتجمع التبرعات للفقراء، وتقيم حفلاتٍ صغيرةً أيام الآحاد في "شواسي"، "سواسي"، "جنتلّي"، وترتاد ما تشاء من عروض، في مقصورة، ولا تنتظر التذاكر المجانية التي كان يتكرم بها بعض المقيمين لديها في البنسيون، في شهر يوليو: حلمت بـ"الدورادو"* كاملة، من عوالم باريسية صغيرة. ولم تبُح لأحد بأنها تمتلك أربعين ألف فرنك جمعتها فلسًا فلسًا. بالتأكيد كانت تعتبر نفسها، من ناحية الثروة،

---

* مكان خيالي، ذو ثروة أسطورية.

شريكًا مناسبًا. "أما عدا ذلك، فأنا حقًا أريد الرجل الطيب"، قالت لنفسها، وهي تتقلب في فراشها كأنما تُشهد نفسها على المفاتن التي كانت سيلفي السمينة تجدها كل صباح مقولبة في تجويفها.

منذ ذلك اليوم، ولنحو ثلاثة أشهر، كانت الأرملة تغتنم فرصة مجيء حلاق السيد جوريو، ليصفف لها شعرها، وتدفع نفقات التزين، متعللة بضرورة أن يكون للبنسيون أناقة تتناغم والشخصيات المشرِّفة التي تتردد عليه. وتحيرت كثيرًا وهي تصبو لتغيير نوعية نزلاء بنسيونها، معلنةً عن نيتها- من الآن فصاعدًا- عدم القبول إلا بأناس وجهاء، بكل المقاييس. فإذا ما أتى شخصٌ غريب، كانت تتباهَى أمامه بتفضيل السيد جوريو- كأحد تجار باريس المرموقين، والأكثر احترامًا- لها. ووزعت إعلانات نقرأ أعلاها: "**دار ڤوكيه**" وفيها: "هذه الدار واحدة من أقدم وأعرق البنسيونات البورجوازية في عموم الأقطار اللاتينية. تطل منها على أبدع منظر على وادي "جوبلان" (حيث يُرَى من الطابق الثالث)، وحديقة *جميلة* في نهايتها *يمتد ممشًى* تظلله أشجار الزيزفون". كما تحدثت فيها عن الهواء العليل، والعزلة. وهذه الإعلانات كانت مدعاة لقدوم الكونتيسة "دو لمبرميسنيل"، امرأة في السادسة والثلاثين من العمر تنتظر تصفية حساب ومعاش لها كأرملة "جنرال" لقي حتفه في ميادين القتال. اعتنت السيدة ڤوكيه بمائدتها، وقامت بتدفئة الصالونات خلال ما يقارب الستة أشهر، والتزمت تمامًا بالوعود التي قطعتها في إعلاناتها، *إلى أقصى جهدها*. وهكذا قالت الكونتيسة للسيدة ڤوكيه- وهي تناديها "صديقتي العزيزة"- إنها ستأتي لها بالبارونة "دو فوميرلاند" وأرملة الكولونيل

الكونت "بكوازو"، صديقتيها، اللتين أنهتا- في "ماريه"- أجر إقامتهما في "بنسيون" أغلى من "دار ڤوكيه". وستكونان مرتاحتين تمامًا عندما تنهي مكاتب الحربية متعلقاتهما. "ولكن- قالت- تلك المكاتب لا تنهي شيئًا!". وكانت الأرملتان تصعدان معًا، بعد العشاء، إلى غرفة السيدة ڤوكيه، وتتجاذبان أطراف الحديث، وهما ترتشفان الكشمشة السوداء، وتلتهمان قطع الحلوى المخصوصة لربة الدار. استحسنت السيدة "دو لمبرمسينيل" كثيرًا وجهات نظر مضيفتها بخصوص جوريو. وجهات نظر ممتازة استشفتها منذ اليوم الأول؛ وكانت تجده رجلاً كامل الأوصاف.

- آه، سيدتي العزيزة! إنه رجل سليمٌ كعينيَّ!- قالت لها الأرملة- رجلٌ لا يعيبه أي شيء، وما يزال بإمكانه أن يمنح السعادة لامرأة.

وبسخاءٍ، راحت الكونتيسة تقدم ملاحظاتها إلى السيدة ڤوكيه، على هواها، والتي لم تكن متوافقة مع تطلعاتها. "عليكِ أن تكوني مستعدة للحرب!" قالت لها. وبعد استعراض الحسابات، ذهبت الأرملتان معًا إلى "الباليه روايال"، حيث اشترتا من "جاليري دوبوا" قُبعة ريش، وقلنسوة. واصطحبت الكونتيسة صديقتها إلى محل "جانيت الصغيرة"، حيث اختارتا فستانًا ووشاحًا. وعندما استُخدم ذلك "العتاد الحربي"، وأصبحت مدججة، إذا بها تشبه تمامًا إعلان: "ثورٌ على الموضة". ومع ذلك، ألِفت نفسها وقد تغيرت إلى الأفضل، وهو ما يرجع إلى الكونتيسة؛ وكـ*معطاءةٍ* متواضعةٍ، رجتها أن تقبل منها قبعة بعشرين فرنكًا. فقد كانت تنتوي- في الحقيقة- أن تطلب منها معروف أن تجس نبض جوريو تجاهها، وأن تمتدحها لديه. وإذا بالسيدة "دو لمبرمسنيل" متأهبة تمامًا لهذه المناورة، وحاصرت صانع الشعرية القديم حتى تمكنت

من أن تنتزع منه موعدًا للمقابلة. لكنها ـ وقد وجدته محتشمًا، ولا نقول رافضًا للمحاولات التي أوحت له برغبتها الخاصة في إغوائه، لنفسها ـ خرجت ثائرةً على جلافته!

ـ يا ملاكي! قالت لصديقتها العزيزة، لن تنالي شيئًا من ذلك الرجل! فهو مرتابٌ إلى حد يثير السخرية. شحيح. حيوان. أحمق! ولن تجني من ورائه سوى الانزعاج.

ويبدو أن ما جرى بين السيد جوريو والسيدة "دو لمبرمسنيل" كان محرجًا، بحيث لم تعد الكونتيسة ترغبُ في أن تتواجد معه في مكانٍ واحد. وفي اليوم التالي، غادرت الفندق، متناسيةً أن تدفع ستة أشهر متراكمة عليها، وتاركةً خلفها من سقط المتاع ما قيمته خمسة فرنكات. وقد عانت السيدة ڤوكيه الأمَرين في البحث عنها، إلا أنها لم تعثر لها على أثر في كل أرجاء باريس. وكثيرًا ما كانت تتكلم في هذا الشأن المحزن لائمةً نفسها على ثقتها الزائدة بالناس، وأنه كان يتحتم عليها توخي الحذر، هي الأشد حذرًا من قطة؛ لكنها كانت واحدةً من أولئك الذين يحذرون من الأقربين، فيما يسلمون ذقونهم لأول غريب. ذاك واقع أخلاقي، شاذ، لكنه حقيقي، ويمكن أن نعثر على جذوره في أغوار القلب البشري. ربما لا يستطيع البعض أن يكسبوا شيئًا من الأشخاص الذين يعيشون معهم؛ فبعد أن كشفوا لهم عن خواء أفئدتهم، شعروا أن بالإمكان أن يحكموا عليهم بقسوة مستحقة؛ لكن، لأنهم يعانون رغبة لا تُقهر في نيل المديح الذي يفتقدونه، أو تتآكلهم الرغبة في أن يبدوا ممتلكين لسجايا ليست فيهم، فإنهم يأملون في نيل تقدير أو محبة هؤلاء الغرباء عنهم، مخاطرين بأن يُصدموا بهم ذات يوم. وأخيرًا، فثمة أناس جُبلوا على النفعية، فلا

يُرجى منهم خيرٌ لأصدقائهم أو معارفهم، لأنه واجبٌ عليهم؛ أما إذا ما أحسنوا للغرباء، فإن الاعتراف بالجميل حتمًا سيكون حصاد ذلك الصنيع؛ فضلاً عن أن دائرة محبتهم كلما كانت ضيقة كان حبهم أقل؛ وكلما اتسعت صاروا خدومين أكثر. وكانت السيدة ڤوكيه بلا شك من هؤلاء الأشحاء الزائفين الممقوتين.

ـ لو كنتُ هنا، قال لها ڤوتران، ما حدث لك مثل هذا الشقاء! ولكنت خمشتُ لكِ ـ بطريقة جميلة ـ وجهَ تلك المهرجة؛ فأنا أعرف تلك *السحن الطفولية*.

وككل أصحاب العقول الضيقة، اعتادت السيدة ڤوكيه ألا تخرج عن نطاق دائرة الأحداث، وألا تحكم على أسبابها. كل ما يشغلها هو أن ترمي على الآخرين ما تقع فيه من أخطاء. وعندما وقعت تلك الخسارة، اعتبرت صانع الشعرية العفيفَ ذاك سببَ مصيبتها. وبدأت منذئذٍ ـ كما قالت ـ تفيق من وهمها على حسابه. فإذ رأت عدم جدوى تغنجاتها وتأوداتها، فلم تكن لتتأخر عن جعله سببًا للبلاوي. ولاحظت بالتالي أن نزيل بنسيونها، طبقًا لتعبيرها، ذو شخصية متفردة. وفي النهاية، اقتنعت بأن الأمل الذي كان يداعبها بلطف ورقة لم يكن يتكئ إلا على قاعدة من الأوهام، وأنها لن تنال شيئًا من ذاك الرجل، متبعةً الكلمة الفعالة للكونتيسة، التي كان يبدو أنها عليمة ببواطن الأمور. ومضت شوطًا أبعد بالضرورة في المقت والنفور، بأكثر مما فعلت على درب المحبة. لم يكن بغضها ناجمًا عن حبها، وإنما عن آمالها الخائبة! فإذا ما كان القلب البشري يجد الراحة في صعود مرتفعات المحبة، فإنه نادرًا ما يتوقف انحداره السريع في الكراهية. بيد أن السيد جوريو كان زبونها، وكانت

الأرملة مضطرة بالتالي إلى أن تقمع تفجر حبها وقلبها الجريح، بل أن تدفن التنهدات التي سببتها هذه الخديعة، وأن تلتهم رغبتها في الانتقام، كراهب أهانه رئيس الدير. إن أصحاب النفوس الصغيرة يُرضون عواطفهم، طيبةً كانت أم شريرة، بصغائر لا تنقطع. وقد لجأت الأرملة إلى خبثها الأنثوي باختراع وسائل اضطهاد خفية لضحيتها. فبدأت بتقليل الزيادات التي كانت قد أنعمت بها على البنسيون. "ممنوعٌ "الخيار المخلل" بعد اليوم، لا "أنشوجة"! كنا مخدوعين!" قالت ذلك لسيلڤي في الصباح الذي عادت فيه إلى البرنامج القديم. كان السيد جوريو رجلاً مقتصدًا، وقد تحول الشُّح الضروري الملازم لمن يصنعون ثروتهم بأيديهم، إلى عادة لديه. أما الحساء واللحم المسلوق وطبق الخضار فهي عشاؤه المفضل. ولهذا كان من العسير على السيدة ڤوكيه أن توجع نزيلها بذاك المنع والتحريم. يائسةً من مواجهتها رجلاً صعب المراس، شرعت في التقليل من شأنه، وشاركت النزلاء بغضها لجوريو، فيشبعوا رغبتها في الانتقام، بالتندر عليه. وتجيء نهاية السنة الأولى، فإذا بالأرملة تبلغ درجة عليا من التوجس، فتتساءل عن سبب بقاء تاجر كهذا، ذي دخل سنوي يتراواح بين سبعة وثمانية آلاف فرنك، ويمتلك فضيات مدهشة ومجوهرات في جمال ما تمتلكه غادة مصونة، فيسكن عندها دافعًا لها ثمنًا زهيدًا لإعاشته لا يتواءم مع ثرائه. وخلال القسم الأكبر من تلك السنة الأولى، راح جوريو يتناول عشاءه مرة أو مرتين أسبوعيًّا بالخارج؛ ثم، لا إراديًّا، أصبح لا يتعشى في المدينة سوى مرتين شهريًّا. كان الخروج المحدود للسيد جوريو يتوافق مع مصلحة السيدة ڤوكيه، لأنها لم تكن متزعجة من الدقة المطردة التي يتناول بها مضيفها عشاءه لديها. فإذا بها

تعزو ذلك التغير إلى هبوط طفيف في ثروته، لا إلى رغبته في مناوأة مضيفته. وإحدى الأخلاقيات الأكثر بغضًا لدى أصحاب النفوس القميئة أن يسقطوا صغائرهم على غيرهم من الناس. ولسوء الحظ، فقد حدث في نهاية السنة الثانية أن قام السيد جوريو بتبرير الشائعات المترددة بخصوصه، عندما طلب من السيدة ڤوكيه أن تنقله إلى الطابق الثاني، وأن تخفض نفقات إعاشته إلى تسعمئة فرنك؛ فهو بحاجة ماسة إلى اقتصاد صارم، لدرجة أن يمنع التدفئة عن حجرته طيلة فصل الشتاء.

وأرغمته السيدة ڤوكيه على أن يدفع المبلغ مقدمًا، ووافق السيد جوريو، فخلعت عليه- منذ ذلك الحين- لقب "الأب جوريو". فأي سرٍّ خفيٍّ يختبئُ وراء تدهوره هذا؟ صعبٌ الاستشفاف. وكما قالت الكونتيسة الزائفة، فالأب جوريو رجلٌ كتومٌ صموت. فإذا ما استعرنا منطق أصحاب الرؤوس الجوفاء، الفضوليين لأنهم يفتقرون إلى ما يتكلمون عنه، الذين لا يتحدثون عن شئونهم الخاصة، ولديهم منها كل ما هو سيء، فإن هذا التاجر المرموق تمامًا أصبح الآن نصابًا، هذا الظريف صار هُزأة! فطَورًا قال عنه ڤوتران- الذي أتى في نحو ذلك الوقت ليقطن في دار ڤوكيه- إن الأب جوريو كان قد ذهب إلى البورصة، و**تلاعب** بالسندات، بالتعبير الدقيق للغة الماليات، بعد أن دمر ثروته فيها. وتارة هو أحد المقامرين الصغار الذين يربحون عشرة فرنكات من اللعب كل مساء. وطورًا يقال عنه إنه عينٌ للبوليس؛ وإن كان ڤوتران لا يراه بارعَ الحيلة ***ليكون كذلك***. الأب جوريو إذن بخيلٌ، يُقرض باليوم، رجلٌ يعتاش على "اللوترية". بل هو الكائن الغامض الذي تستطيع النقائصُ والعارُ والخورُ أن تنجبه! لكن الدنايا التي تصِمُ

سلوكه ونقائصه، والاشمئزاز منه، لم تصل لأن يُطرد من الدار؛ فهو يدفع ثمن إعاشته. ثم إنه مفيدٌ، فكل واحد كان يجرب فيه مزاجه السيء أو الطيب، بالمزاح أو الكلام اللاذع. والرأي الذي كان يبدو الأرجح، وتبناه الجميع، كان رأي السيدة ڤوكيه. سمعوها تقول إن هذا الرجلَ المصون تمامًا، والسليم كعينها، والذي يمكن أن نتوافق معه كثيرًا، كان داعرًا، وله ذائقته الغريبة. وإليكم ما بنت عليه السيدة ڤوكيه وشايتها من وقائع. فبعد بضعة أشهر من رحيل تلك الكونتيسة المشئومة، التي عرفت كيف تعيش ستة أشهر على حسابها، وذات صباح، قبل أن تنهض، سمعت على السُّلَّم حفيف ثوب حريري، وخطًى متئدة لامرأة شابة، خفيفة، تدلف لدى جوريو الذي كان بابه مفتوحًا بفطنة. وفي الحال، أقبلت سيلڤي السمينة لتخبر سيدتها عن صبية بالغة الجمال للحقيقة، *تتبدى كربة جمال*، في قدميها خُف بلون الخوخ لم يلوثه وحل، وقد انسلت كثعبان ماء من الشارع إلى المطبخ، وسألتها عن شقة السيد جوريو. وراحت السيدة ڤوكيه وطاهيتها تصيخان السمع، فتناهت إلى سمعهما كثيرٌ من الكلمات الحنون خلال تلك الزيارة، التي طالت لبعض الوقت. وعندما خرج السيد جوريو مع ***سيدته***، سارعت سيلڤي السمينة بحمل سلتها وعمدت للذهاب إلى السوق، كي تراقب الثنائي العاشق.

ـ سيدتي! قالت لسيدتها عند عودتها، لابد أن السيد جوريو ثري بصورة شيطانية، لينهج ذلك النهج. تخيلي، كانت هناك عند رأس الشارع عربة فخمة في الانتظار، ركبت***ها***.

وخلال الغداء، ذهبت السيدة ڤوكيه وجذبت الستارة لأنها رأت الشمس تبهر عينَ جوريو، الذي يتزعج من الشمس.

ـ أنت محبوبُ الحسناوات، سيد جوريو، إلى حد أن الشمسَ تلاحقك، قالت، ملمحةً للزيارة التي تلقاها. اللعنة! ذوقك رائع، وهي بارعة الجمال!

ـ تلك ابنتي، نطقها بنوع من الزهو، الذي رأى فيه النزلاء غطرسة عجوز راح يحافظ على المظاهر.

ولم يكد يمضي شهر على ذلك حتى تلقى السيد جوريو زيارة أخرى. فابنته ـ التي أتت المرة الأولى وهي في زينتها الصباحية ـ عادت، بعد العشاء هذه المرة، في ثياب السهرات! ورأى فيها النزلاء ـ الذين كانوا يتبادلون الأحاديث في الصالون ـ غادة جميلة شقراء، نحيلة القوام، ظريفة اللفتة، وأكثر تميزًا من أن تكون ابنة للأب جوريو.

ـ وهذه الثانية! قالت سيلڤي السمينة، التي لم تتعرف عليها.

ولم تكد تمرُّ أيامٌ حتى ظهرت فتاة أخرى، هيفاء، مسبوكة القوام، سمراء، سوداء الشعر، ثاقبة الطرف، وسألت عن السيد جوريو.

ـ وهذه الثالثة! قالت سيلڤي.

هذه الابنة الثانية، التي كانت قد جاءت أيضًا في المرة الأولى لتزور والدها صباحًا، عادت بعد أيام في ثيابِ حفلات الرقص تركب سيارة.

ـ وهذه الرابعة! قالت السيدة ڤوكيه والسمينة سيلڤي، اللتان لم تتعرفا في هذه السيدة العظيمة على أي أثر للصبيَّةِ التي كانت قد جاءت صباحًا في أول زيارة.

في ذلك الوقت، كان جوريو ما يزال يدفع ألفًا ومئتي فرنك سنويًا عن إقامته. وارتأت السيدة ڤوكيه أنْ لا غرابة في أن يكون لرجل ثري مثله أربع أو خمس عشيقات، ووسمته بالبراعة إذ يدعي أنهن بناته. بل

إنها لم تستشط غضبًا لجلبهِ إياهن إلى الدار. فقط، وبما أن هذه الزيارات فسرت لها لامبالاة نزيلها بها، فقد سمحت لنفسها- في بداية العام الثاني- أن تطلق عليه "القط العجوز". لكن حين خفض نزيلها المبلغ إلى تسعمئة فرنك، سألته بوقاحة عما ينتوي أن يفعل بدارها، وهي ترى إحدى سيداته تهبط من عنده. أجابها إن تلك السيدة، هي ابنته، البكرية.

ـ إذن، فلديك من البنات ستٌ وثلاثون. احتدت عليه.

ـ ما لي سوى اثنتين، أجابها برقة رجل مُدمَّر انحدر إلى الخضوع للبؤس!

قُرب نهاية السنة الثالثة، قلص الأب جوريو نفقاته، صاعدًا إلى الطابق الثالث، ودافعًا خمسة وأربعين فرنكا شهريًا فقط. أقلع عن التدخين، استغنى عن الحلاق، وعن المساحيق. وعندما ظهر للمرة الأولى بلا مساحيق، أفلتت من فم مضيفته صيحةُ اندهاش وهي تلمح لون شعره؛ كان رماديا وسخًا ضاربًا للخضرة. ووجهه الذي أحالته الأحزان السرية- بلا رحمة- أكثر حُزنًا، يومًا بعد يوم، كان يبدو الأكثر كدرًا من كل تلك الوجوه التي تزين المائدة. ليس ثمة أدنى شك الآن. لقد كان الأب جوريو داعرًا عريقًا، لم تفلت عيناه من التأثير الخبيث للأدوية الضرورية لأمراضه إلا ببراعة طبيب. ولون شعره المقزز يدل على إسرافه في تناول المخدرات التي كان يتعاطاها من أجل مواصلة ممارساته. وكانت الحالة الجسدية والمعنوية للرجل الطيب تبرر هذه الثرثرات. وعندما استُهلكت ثيابه، اشترى قماشًا خامًا بأربعة عشر فلسًا ليرتديه بدلاً من الملابس الأنيقة. أما ماساته، وعلبة نشوقه الذهبية، وسلسلته،

ومجوهراته، فاختفت قطعة بعد قطعة. وكان قد ترك السترات الزرقاء الزاهية وكل بذلاته الفاخرة، ليرتدي- صيفًا وشتاءً- "ريدنجوت" خشنًا فظًّا، وصدرية من وبر الماعز، وبنطالاً رمادي اللون من الصوف الرديء. وشيئًا فشيئًا، راح ينحف. لم يعد لربلتَي ساقه وجود، ووجهه- المنتفخ من إشباع السعادة البرجوازية- تغضن بصورة مفرطة، وامتلأ بالتجاعيد جبينه، وبرز فكاه. وفي السنة الرابعة من إقامته بشارع "نيف-سانت-جانفياف"، أصبح شيئًا آخر. فصانع الشعرية الطيب، البالغ من العمر اثنتين وستين عامًا، ولم يكن يبدو عليه أنه تجاوز الأربعين، ذلك البورجوازي الضخم السمين، بالغ الحماقة، الذي كان هندامه البذيء يبهج المارة، وتتسم ابتسامته بصبيانيةٍ ما، أصبح يبدو كأنه تجاوز السبعين، مخبولاً، بليد الذهن، مترنحًا. وفيما عيناه الزرقاوان النابضتان بالحياة تصبحان كامدتين، بلون الحديد الرمادي، أصبحتا شاحبتين، لا تعرفان الدموع، وحوافهما الحمراء تبدوان كأنما تبكيان دمًا. بالنسبة للبعض، كان مرعِبًا؛ وللآخرين، كان مثيرًا للشفقة. وإذ لاحظ بعض طلاب الطب الشبان تهدل شفته السفلى، وقاموا بقياس أعلى زاوية وجهه، أخبروه أنه مصاب بفساد العقل، بعد أن قرَّعاه طويلاً بلا هدف. وذات مساء، وبعد وجبة العشاء، قالت له السيدة ڤوكيه بطريقة هازئة: "قل لي، ألم تعد بناتك يأتين لزيارتك؟"؛ وهي تشكك في أبوته، فإذا به يختلج كما لو أنها نخسته بنصل حاد.

- يأتين أحيانًا، أجاب بصوت متهدج.

- آه آه. إنك تَراهنَّ إذن، في بعض الأحيان؛ صاح الطلبة. براڤو، أب جوريو!

لكن الرجل لم يسمع السخريات التي جرتها عليه إجاباته، فقد عاد إلى السقوط في حالة من التأمل، يظن الناظرون إليه بسطحيةٍ أنها راجعة إلى ذهول الشيخوخة، بسبب تبلد الذهن. ولربما لو عرفوه- كما ينبغي- لاستمتعوا بالفعل بالمشكلة التي تطرحها حالته المادية والمعنوية؛ لكن لم يكن هناك ما هو أصعب من ذلك. وأيًّا ما كانت سهولة معرفة ما إذا كان جوريو فعلاً تاجرَ شعريَّة، وكم كان مبلغ ثروته، فإن المسنين الذين استيقظ فضولهم عليه لم يكونوا يخرجون من الحي، وكانوا يعيشون في البنسيون كالمحار على الصخر. أما الآخرون، فقد اجتذبتهم الحياة الباريسية، ودفعتهم- لدى مغادرة "شارع نيڤ-سانت-جانڤياڤ"- إلى نسيان العجوز البائس، الذي كانوا يسخرون منه. وبالنسبة لذوي الأدمغة الضيقة- كهؤلاء الشبان اللامبالين- فلم يكن بؤس حال الأب جوريو وحالته الغبية لتتوافق مع ثروة ومقدرة، أيًّا ما كانت. أما السيدات اللواتي يدعوهن بناته، فقد كُن يشاطرن رأي السيدة ڤوكيه، التي كانت قد قالت، بالمنطق القاسي الذي تربت عليه النسوة العجائز المشغولات بالثرثرة خلال الأمسيات: "لو كان للأب جوريو بناتٌ على هذا القدر من الغنى، الذي يبدو على كل مَن جاءت لزيارته، فإنه أبدًا لن يكون من نزلائي، في الطابق الثالث، فيدفع خمسة وأربعين فرنكًا شهريًّا، أو لما ارتدى أبدًا ثياب الفقراء".

لا شيء يمكن أن يكبح مثل هذا الاستقراء. ذلك أنه في نهاية شهر نوفمبر 1819، في الوقت الذي تفجرت فيه هذه "الدراما"، كان في رأس كل شخص من قاطني البنسيون فكرة راسخة عن العجوز المسكين. فلم تكن لديه أبدًا ابنة ولا زوجة؛ وانغماسه في ملذاته جعل منه

حلزونًا، أحد الرخويات انسيابية الشكل التي تُصنَّف ضمن فصيلة "الكاسكتائيات"، هكذا قال موظف متحف يتردد على البنسيون. كان پواريه ملاكًا أو "جنتلمانا" قياسًا بجوريو. كان پواريه يتكلم، ويفكر، ويجيب؛ وإن كان- في حقيقة الأمر- لم يكن يقول شيئًا حقيقيا، وهو يتكلم أو يفكر أو يجيب؛ فقد كان من طبيعته أن يكرر- بألفاظ أخرى- ما قاله الآخرون؛ ولكنه كان يساهم في المحادثة، وكان مفعمًا بالحيوية، ويبدو حساسًا؛ بينما الأب جوريو- فيما قال موظف المتحف- كان دائمًا على درجة الصفر، حسب مقياس "رومور".

وكان يوچين دو راستنياك قد عاد مرتب الفكر، كما هو حال الشبان المتازين، أو أولئك الذين يدفعهم موقف صعب إلى التواصل مؤقتًا مع أخلاقيات الصفوة. فخلال السنة الأولى من إقامته في باريس، كان القليل من العمل الذي تطلبته دراسته في الكلية يتيح له أوقات فراغ يتمكن من خلالها من تذوق الملذات المنظورة من باريس المادية. وكطالب فلم يكن لديه ما يكفي من الوقت ليعرف- إذا ما أراد- جدول كل مسرح، ودراسة مخارج المتاهة الباريسية، ومعرفة استخدامات وتعلم اللغة، والانغماس في الملذات الخاصة بالعاصمة؛ فينبش في الأماكن صالحها وطالحها، ويتابع المحاضرات الشائقة، ويرصد ثروات المتاحف. كطالب، يتعاطف مع بلاهات تبدو له فخيمة. ولديه مثله الأعلى، أستاذ في "الكوليج دو فرانس"، ويدفع ليكون في مقدمة الصفوف في محاضراته. يعدل وضع كرافتته، ويعرض نفسه أمام نساء العروض الأولى "للأوبرا كوميك". وفي تلك الحفلات المتتابعة، ينسلخ من عوده

الطري ويوسع من أفق حياته، وينتهي إلى تصور تراتب الطبقات البشرية التي تؤلف المجتمع. فإذا ما بدأ بالانبهار بالعربات المتدفقة في معبر "الشانزليزيه" تحت شمس جميلة، فسرعان ما وصل إلى حسد أصحابها. قام يوچين بهذا التدرب- بلا وعي- حين غادر في إحدى العطلات، بعد حصوله على شهادتي الآداب والحقوق. تبددت أوهام الصبا وأفكاره الريفية. تعدلت عقليته، ودفعه طموحه الحماسي إلى أن يرى نفسه تحديدًا وسط مترلهم الأبوي، وفي أحضان العائلة. فأبوه، وأمه، وأخواه، وأختاه، وعمته- الذين كانت ثروتهم تتألف من المعاشات- كانوا يعيشون على أرض راستنياك الصغيرة. أما الريع الذي يقدر بحوالي ثلاثة آلاف فرنك، فكان خاضعًا للتقلبات التي تحكم المنتج الصناعي للكروم، وكان يتوجب- رغم ذلك- احتجاز ألف ومئتي فرنك سنويًا من ذلك المبلغ ليوچين. إن مظاهر هذا العُسر المتواصل، التي كانوا يخفونها بأريحية عن عينيه، والمقارنة التي كان مجبرًا على عقدها بين شقيقتيه، اللتين كان يراهما- في صباه- في غاية الجمال، وبين نساء باريس اللائي حققن له أنموذجَ الجمال الذي يحلم به، والمستقبل الغامض لتلك الأسرة كثيرة العدد الذي يتوقف عليه، والاهتمام المقتِّر الذي يرى به المنتجات الأكثر رهافة معصورةً، والمشروب الذي يُصنع لأسرته من ثفل المَعاصر، وأخيرًا ذلك الحشد من الاعتبارات التي لا جدوى من ذكرها الآن، ضاعف كل ذلك من رغبته في التحقق، وأظمأه إلى التميز.

وكما هو الحال بالنسبة لذوي النفوس الكبيرة، فقد ارتأى ألا يكون مدينًا إلا لمَلَكَاته هو؛ بيد أن عقليته كانت جنوبيةً بدرجة كبرى؛ ولدى التنفيذ، كان يضرب إرادته الترددُ الذي يصيب الشبان الذين يجدون

أنفسهم في عرض البحر، دون أن يدروا صوب أي ساحل يوجهون قواهم، ولا لأية زاوية تنتفخ أشرعتهم. فكر في البدء في أن يلقي بنفسه في خضم العمل، ثم ما لبث أن انجذب إلى ضرورة إيجاد علاقات ومعارف، ولاحظ كم إن النساء لهن بالغ التأثير في الحياة الاجتماعية؛ ففكر فجأةً في الانطلاق في هذا العالم ليفوز فيه بمَن ترعاه. فهل تستعصي النساء على شاب حار مضطرم، محتدم الفكر، ذي طلعة بهية، وجمال سريع الاستجابة، تستسلم له النساء عن طيب خاطر؟ اقتحمته تلك الأفكار وهو سائرٌ بين الحقول، أثناء النزهات التي كان يقوم بها في الماضي بابتهاج مع أختيه، اللتين لاحظتا التغير الذي طرأ عليه. أما عمته السيدة دو مارسياك، فكانت في غابر أيامها تتردد على البلاط السامي، حيث تعرفت بأقطاب الأرستقراطية. ويتذكر الشاب الطموح فجأةً ما كانت تملأ به خياله عمته هذه من أحاديثها عن غزوات اجتماعية لا حصر لها، لا تقل أهميةً عن تلك التي كان يمارسها هو في مدرسة الحقوق؛ فراح يسألها عن أواصر القرابة التي ما يزال بالإمكان عقدها. وبعد هز أعواد شجرة الأنساب، خمنت العجوز أن من بين كل الشخصيات التي يمكن أن تمد يد العون لابن أخيها، من السلالة الأنانية الغبية للأقرباء، فإن الكونتيسة "دو بوزيان" ستكون الأقل تمنعًا. فدبجت إليها رسالة بالأسلوب العتيق، وسلمتها ليوچين، وأخبرته أنه لو نجح في مسعاه لدى الكونتيسة، فستوصله بأقارب آخرين. ولم تمض أيامٌ على وصوله، حتى أرسل راستنياك خطابَ عمته إلى السيدة بوزيان، فجاءه رد الكونتيسة دعوةً إلى حفل راقص يقام اليوم التالي.

هكذا، كان الوضع العام للبنسيون البورجوازي في نهاية شهر نوفمبر

.1819

وبعد أيام، عاد يوچين من حفل السيدة بوزيان الراقص في نحو الثانية صباحًا. ولكي يعوضَ ما أضاعه من وقت، فإن الطالب المجتهد وعد نفسه- خلال الرقص- بأن يذاكر حتى الصباح. وها هو يقضي الليل، وللمرة الأولى في هذا الحي الساكن، مأخوذًا بسحر طاقة زائفة، وهو يرى روائع العالم. لم يكن قد تعشى لدى السيدة ڤوكيه. وتوقع نزلاء البنسيون ألا يعود من الحفل إلا مع إشراقة شمس اليوم التالي، كما سبق وعاد من احتفالات "برادو"، أو حفلات "الأوديون" الراقصة، وقد لوث جوربيه الحريريين وأفسد نعليه. وقبل وضع المزاليج على البوابة، فتحها كريستوف ليتطلع في الطريق. في تلك اللحظة، ظهر راستنياك وتمكن من الصعود بلا جلبة إلى غرفته، ومن خلفه كريستوف يصخب. خلع يوچين ثيابه، وانتعل شبشبًا وارتدى "ريدنجوت" قبيحًا، أوقد نارًا وتهيأ لعمله بحذق، وبطريقة جعلت جلبة كريستوف بحذائه الضخم تغطي على استعدادات الشاب بضجيجها الواهي. وظل يوچين يفكر لحظات قبل أن يغوص في كتب القانون. هو الذي رأى- الليلة الماضية- في الكونتيسة دو بوزيان إحدى ملكات الموضة في باريس، ويُعتبر بيتها من أجمل ما في ضاحية "سان جرمان". وهي التي تُعد، من جهة أخرى، باسمها وثروتها، إحدى قمم العالم الأرستقراطي. وبفضل توصية عمته دو مارسياك، تم استقبال الطالب المسكين في هذه الدار، دون أن يدري مدى هذا المعروف. فالقبول به في هذه الصالونات المذهبة كان يعادل شهادة نبالة عالية. وبولوجِه إلى هذا المجتمع، أكثر المجتمعات حصرية، يكون قد امتلك الحق في الذهاب إلى أي مكان. مفتونًا بهذا الحفل

الساطع، حتى إنه لم يتبادل بالكاد مع الكونتيسة إلا بضع كلمات، كان يوچين سعيدًا بأن يميز- من بين حشد الآلهة الباريسيين المتجمع في هذا الحفل- إحدى النساء الجديرات بأن تفتن شابًّا مثله. هي الكونتيسة "أنستازي دو رُوستو"، الفارعة، فاتنة الهيئة، التي تتمتع بأجمل قَوام في باريس. فلتتخيلوا معي عينين سوداوين واسعتين، ويدًا رائعة، وقدمًا دقيقة الشكل، ولفتات ساخنة؛ امرأة أطلق عليها الماركيز دو رونكرول مهرةً نقية الدم. ورهافة أعصابها هذه لم تطرح عنها أيةَ مزية؛ كان تكوينها ممتلئًا بالاستدارات، بدون أن تُلصق بها تهمة السمنة. ***مهرة نقية الدم، امرأة عريقة النسب***، تعبيرات كانت قد بدأت تحل محل ملائكة السماء، والوجوه الأوسيانية*، وكل أساطير العشق القديمة، التي ترفضها "الغندرة". لكن السيدة "أنستازي دو رُستو" كانت- بالنسبة لراستنياك- المرأة المشتهاة. وقد استطاع أن يسجل اسمه مرتين في قائمة الراقصين معها المكتوبة على مروحتها. وتمكن من أن يحادثها خلال رقصة "الكادريل" الأولى. "أين يمكن أن نلتقي- فيما بعد- سيدتي"، سألها فجأةً بدفقة العاطفة التي تروق للعديد من السيدات. "فليكن، في الغابة، في مسرح البوفون، أو في بيتي.. في أي مكان".

وإذا بالجنوبي المغامر يهرول إلى الارتباط بهذه الكونتيسة الشهية. بقدر ما يمكن لشابٍّ أن يرتبط بامرأة خلال رقصة "كادريل" أو ڤالس. وحين قال إنه ابن عم السيدة "بوزيان" تلقى دعوة من هذه المرأة، التي يراها

---

* نسبةً إلى "**أوسيان**" منشد أسطوري اسكتلندي، يرجع إلى القرن العاشر. باسمه، نشر الشاعر جيمس ماكفرسون- عام 1760- شذرات من الشعر القديم" مترجمةً من الغالية والأيرلندية، وكان تأثيرها كبيرًا على الأدب الرومانتيكي الأوروبي.

سيدة عظيمة، إلى دارها. وعندما رمت له بآخر ابتساماتها، ترسَّخ في وجدانه أن زيارته لها ضرورية. وتملكته السعادة بمقابلته شخصًا لا يسخر من جهله؛ كنقيصة قاتلة وسط سفهاء العصر الباهرين، آل مولانكور، آل رونكيرول، آل مكسيم دو تراي، آل دو مرساي، آل أجودا بنتو، آل فاندنيس، الذين كانوا هناك في مجد الغطرسة، ممتزجين بالسيدات الأكثر أناقة: ليدي جراندون، الدوقة دولانجيه، الكونتيسة دو كرجاروي، السيدة دو سيريزي، الدوقة دو كاريجليانو، الكونتيسة فيرو، السيدة دو لانتي، الماركيزة دو جلمو، السيدة فيرمياني، الماركيزة دو لستومير، الماركيزة دو ديسبار، الدوقة موفرينييز، وآل جرانديليو. فلحسن الحظ إذن أن الطالب الساذج وقع على الماركيز "دو مونتريفو" عاشق "الدوقة دو لانجيه"، وهو "جنرال" بسيط كما الطفل، وأخبره أن الكونتيسة كانت تعيش في شارع "هيلدر". كشاب، متعطش إلى العالم، وجائع إلى امرأة، يجد بيتين ينفتحان له! يضع قدمه في ضاحية "سان جرمان" في دار الكونتيسة دو بوزيان، وركبته على "شوسيه أنتان" لدى الكونتيسة دو رستو، تتملى عيناه صالونات باريس على التوالي، ويرى نفسه وسيمًا بما يكفي للعثور على المساعدة والحماية لدى قلب امرأة، طموحًا بما يكفي لأن يرفس الحبل المشدود الذي يتوجب أن يعبر عليه بيقين البهلوان الذي لن يسقط أبدًا، فيجد- في امرأة ساحرة- أجمل عصا للتوازن.

بهذه الأفكار، وأمام هذه المرأة التي كانت تنتصب مهيبة قرب نيران الموقد، بين القانون والبؤس، مَن الذي لَن يسبر المستقبل- شأن يوجين- بالتأمل، ولن يتأثث بالنجاح؟ كانت فكرته الشريدة قد حسمت مسراته

المستقبلية التي كان يظنها بقربه من السيدة دو رستو، عندما أزعجت تنهيدةٌ تشبه نخرة "سان جوزيف" سكون الليل، ودوت في قلب الشاب كأنما هي حشرجة محتضر. بهدوء، فتحَ الباب، وعندما صار في الرواق لمح خيط ضوء يرتسم تحت باب غرفة الأب جوريو. خشي أن يكون جارُهُ متوعكا، فقرَّبَ عينه من ثقب فتحة الباب، نظر داخل الحجرة، ورأى العجوز منهمكًا في أعمال ارتآها مريبة للغاية، إلى حد الظن أنه إنما يقدم خدمةً للمجتمع باستقصائه جيدًا لما كان يصنعه مَن يُدعَى "صانع الشعرية". كان الأب جوريو- وقد ربط بعارضة المنضدة المقلوبة طبقًا ووعاء فضيًّا- يلف جانبًا من "كابل" حول هذين الشيئين المنقوشين بفخامة، ويربطهما بقوة بالغة إلى حد أنهما كانا يلتويان إلى ما يشبه سبيكة. "اللعنة! أي رجل هذا؟" قال يوچين وهو يلمح الذراع العصبية للعجوز، الذي- بمساعدة هذا "الكابل"- كان يدعك بلا صوت الفضة المذهبة كأنها عجينة. "أهو إذن لصٌّ، أم إنه مخبِّئُ مسروقات ينكبُّ على مهنته، وهو يدعي العبَط والوهن، ويحيا كمتسول؟". غمغم يوچين وهو يعتدل للحظة. ومرةً أخرى ركز الطالب عينه في الثقب. كان الأب جوريو- الذي حل الكابل- يأخذ الكتلة الفضية، يضعها على المنضدة، بعد أن فرد عليها المفرش، ويبرمها ليحيلها إلى قضيب- عملية قام بها بسهولة مذهلة. "أهو الآن في نفس القوة التي كان عليها "أوجيست" ملك بولندا؟" قالها يوچين في نفسه، وقد تمت صياغة العمود. تطلع الأب جوريو حزينًا إلى عمله، وقد انحدرت دموع من عينيه، فنفخ في ذؤابة شعلته، التي صاغ عليها هذه الفضة، وسمعه يوچين يتمدد في سريره، مطلقًا زفرة. "إنه مجنون!" فكر الطالب.

ـ أي طفلتي المسكينة! صاح الأب جوريو.

ورأى راستنياك أن من الحصافة أن يلتزم الصمت إزاء هذا الحدث، وألا يدين جاره هكذا بلا روية. وكان على وشك العودة إلى غرفته عندما ميزَ فجأةً جلبةً عصيةً على الفهم، يمكن أن يكون مصدرها رجالٌ ينتعلون أخفافًا ذات حواش يصعدون الدرج. أصاخ يوجين السمع، وتبين بالفعل تناوب صوت أنفاس شخصين. ودون أن يسمع اصطفاق الباب، ولا خطى الرجلين، لمح ضياءً شاحبًا في الطابق الثاني لدى السيد ڤوتران. ـ يا لها إذن من أسرار في هذا البنسيون البورجوازي! قال. نزل درجاتٍ، وراح يتصنت، وإذا بوسوسة الذهب تغازل أذنيه. لم يلبث الضوءُ أن خبا، وإن كان التنفس ما يزال مسموعًا، دون اصطفاق باب. وراحت الضوضاء تضمحل أكثر كلما واصل الرجلان الهبوط.

ـ مَن هناك؟ صاحت السيدة ڤوكيه، وهي تفتح نافذة غرفتها.

ـ أنا يا أمي، أعود، زعق ڤوتران بصوته الجهوري.

"هذا أمر غريب! لقد أغلق كريستوف البوابة بالمزاليج" قال يوچين لنفسه، وهو عائدٌ إلى غرفته. على المرءِ أن يواصل السهر ليعرف حقيقةَ ما يجري حوله، في باريس. وإذ تشتتَ انتباهُه بهذه الأحداث فانحرف عن تأملاته الطموحة المحببة، انكب على المذاكرة. مشتتًا بفعل الشكوك التي واتته بشأن الأب جوريو، ومشتتًا أكثر بفعل وجه السيدة "روستو"- الذي كان يتمثل أمام عينيه لحظة بعد أخرى، كرسولة مستقبل لامع- انتهى إلى أن أسلم نفسه للنوم، والحلم بقبضاته مضمومة. ومن بين عشر ليال منذورة لعمل الشبان، فإنهم ينامون سبعًا منها. فعلى المرء أن يتجاوز العشرين من العمر لكي يسهر.

في الصباح التالي، كان ضباب كثيف يلف باريس ويحجبها؛ حتى إن الرجال الأكثر انضباطًا أخطأوا في تحديد الوقت. ولم تنضبط مواعيد العمل. كان الجميع يعتقدون أنها الثامنة بينما كانت تدق الثانية عشرة. وكانت الساعة التاسعةَ والنصفَ صباحًا، ولم تتحرك بعد السيدة ڤوكيه من فراشها. وكان كريستوف وسيلڤي السمينة، المتأخران أيضًا، يتناولان بهدوءٍ قهوتهما المعدة بطبقة عليا من اللبن، خاصة بالنزلاء، والذي تركته سيلڤي يغلي طويلاً، حتى لا تلحظ السيدة ڤوكيه هذا العُشر الذي تم استلابه.

- سيلڤي، قال كريستوف وهو يغمس أول لقمة من خبزه المحمص، يا للسيد ڤوتران من رجل طيب، لقد استقبل أيضًا رجلين هذه الليلة. فإذا ما كان ذلك يقلق السيدة ڤوكيه، فعلينا ألا نخبرها.

- هل أعطاك شيئًا؟

- مائة سنتيم عن الشهر، وكأنه يقول لي: "ابلع لسانك".

- هو والسيدة كوتور وحدهما ليسا بشحيحين، بينما الآخرون يودون لو انتزعوا منا باليسرى ما أعطوه لنا باليمنى في رأس السنة، قالت سيلڤي.

- وماذا يعطوننا، يا حسرة؟! قال كريستوف، قطعة نقدية هزيلة من فئة المئة سنتيم. فالأب جوريو يُلمِّع حذاءه بيده منذ سنتين. أما هذا *الشحيح* پواريه، فإنه يستغني عن الورنيش، وسيشربه على أن يُلمِّع به حذاءه. أما الطالب خفيف العقل فيعطيني أربعين سنتيمًا، لا تكفي لشراء فرشاة أسنان. ويبيع ثيابه القديمة أغلى من السوق. ابتذال!

- خيبة! غمغمت سيلڤي وهي تجرع قهوتها ببطء. مكاننا هذا هو

أفضل ما في الحي: نعيش فيه جيدًا. ولكن، يا كريستوف، ماذا عن بابا ڤوتران، السمين؟ أأخبرك أحدهم عنه شيئًا؟

ـ أجل. منذ بضعة أيام، قابلتُ رجلاً في الشارع، سألني: "ألا يقيم عندكم رجل ضخم ذو سالفين مصبوغين؟" فأجبته: "لا، يا سيدي، هو لا يصبغهما. فرجل بشوش مثله ليس لديه وقت ليفعل ذلك". هذا ما قلته للسيد ڤوتران الذي أجابني: "أحسنتَ صنعًا يا بنيَّ! فلتكن إجابتك هكذا دائمًا. فليس ثمة ما هو أبشع من إطلاع الناس على نواقصنا. وذلك ما قد يعرقل مشاريع الزواج".

ـ حقًّا! فقد حاولوا استدراجي، أنا أيضًا، في السوق، ليعرفوا ما إذا كنت قد رأيته وهو يبدل قميصه. إنها مسخرة! وقاطعت نفسها: إنها العاشرة إلا ربعًا تدق في برج "ڤال-دو-جراس"، ولم ينهض أحد بعدُ.

ـ آه! حسنًا! لقد خرجوا جميعهم. فقد ذهبت السيدة كوتور وصبيتها إلى كنيسة "سانت-اتيان" منذ الساعة الثامنة لتناول القربان. وغادر الأب جوريو ومعه لفافة. أما الطالب فلن يعود إلا بعد محاضراته، في الساعة العاشرة. شاهدتهم يغادرون وأنا أنظف السُلَّم؛ إلى حد أن خبطني الأب جوريو بما كان يحمله، وهو صُلب كالحديد. فما الذي يفعله إذن ذلك الرجل الطيب؟ الآخرون يعتبرونه ألعوبة، لكنه رجل طيب القلب رغم كل شيء، بل أفضل منهم جميعًا. حقًا، هو لا يعطيني شيئًا ذا قيمة، لكن السيدتين اللتين يبعثني إليهما أحيانًا تجزلان لي العطاء، ويا لملابسهما الفخيمة أيضًا!

ـ هما اللتان قال إنهما ابنتاه؟ هه؟ إنهما دستة كاملة!

ـ أنا لم أذهب إطلاقًا إلا إلى اثنتين، اللتين جاءتا إلى هنا.

ـ ها هي السيدة تتحرك؛ إنها ذاهبة إلى طقوس "السَّبَت"*: لابد أن أرافقها. انتبه إلى اللبن يا كريستوف، وضَع عينك على القط!

صعدت سيلڤي إلى غرفة سيدتها.

ـ ما هذا يا سيلڤي؟ إنها الآن العاشرة إلا ربعًا، وقد تركتني أغط في النوم كحيوان "المرموط". لم يحدث ذلك معي من قبل".

ـ إنه الضباب، الذي يمكن أن تشقيه بسكين!

ـ والفطور؟

ـ عجبًا! النزلاء ركبتهم الشياطين؛ فهرولوا قبل أول ضوء.

ـ فلتحسني الكلام إذن، يا سيلڤي؛ ورددت السيدة ڤوكيه "أول ضوء".

ـ آه! سأتكلم كما تريدين. فيمكنك أن تتناولي فطورك في العاشرة. الـ"ميشونيت" والپواريه لم يغادرا فراشهما بعد. ولا أحدَ سواهما في الدار، وهما يغطان في النوم كجزعَيْ شجرة.

ـ لكنك تجمعينهما معًا، يا سيلڤي، كما لو كانا....

ـ كما لو كانا ماذا؟ ردت وأفلتت من فمها ضحكة حيوانية كبيرة، فهما شبيهان في النقائص.

ـ هذا غريب، يا سيلڤي: كيف تمكن السيد ڤوتران من دخول الدار هذه الليلة، بعد أن أغلق كريستوف البوابة بالمزاليج؟

ـ بالعكس تمامًا، يا سيدتي. فقد سمع السيد ڤوتران، ونزل ليفتح له البوابة. وهذا ما جعلك تعتقدين....

---

* يوم السبت (كيوم راحة وعبادة عند اليهود وبعض المسيحيين)، أو يوم الأحد (كيوم راحة وعبادة عند المسيحيين)؛ قاموس المورد؛ (المحرر).

ـ ناوليني قميص النوم، وأسرعي لتراقبي الطعام. أعدي بقية لحم الخروف مع البطاطس، وضعي شيئًا من الكمثرى الناضجة الرخيصة.

بعد لحظات، نزلت السيدة ڤوكيه في اللحظة التي رفس قطها الطبق الذي يغطي جرة الحليب، وراح يلغٌ في اللبن على عجل.

ـ مِستجري! صاحت. فهرب القط بجلده، ثم ما لبث أن عاد يتمسح في ساقيها. نعم، نعم، يا لجبنك، أيها النذل العجوز! قالت. سيلڤي، سيلڤي!

ـ نعم، سيدتي؟

ـ انظري ما فعله القط!

ـ إنها غلطة الحيوان كريستوف، الذي نبهته بأن يُحكم الغطاء. فأين مضى؟ لا تقلقي، سيدتي. إنها قهوة الأب جوريو. سأزيدها بالماء، ولن يلحظ ذلك. فهو لا يلتفت لشيء، حتى لِما يأكل.

ـ أين ذهب، إذن، هذا الشخص غير المفهوم؟ تساءلت السيدة ڤوكيه وهي تستبدل الأطباق.

ـ ما أدراني؟ إنه يتاجر بخمسمئة إبليس!

ـ لقد أفرطتُ في النوم، قالت السيدة ڤوكيه.

ـ لهذا، أرى سيدتي طازجة كوردة.

رن الجرس في هذه اللحظة، ودلف ڤوتران إلى الصالون، وهو يغني بصوته العريض:

«لقد طوفتُ في أرجاء العالم طويلاً

ورآني الناسُ في كل الأماكن»

ـ أوه، أوه! صباح الخير، سيدة ڤوكيه، قالها وهو يحدق في مضيفته

التي طوقها بذراعه برشاقة.

- كَفى! كُف عن هذا!

- قولي لي يا وقح، قال. هيا، قولي. أتريدين قول ذلك؟ هيا، سأضع المفرش معك. فأنا رجل مهذب، أليس كذلك؟

"فلتتغزَّل في السمراوات، والشقراوات.

اعشق وتنهد!

- رأيت توًّا شيئًا فريدًا،

"وبالصدفة!

- ماذا رأيت؟ قالت الأرملة.

- رأيت الأب جوريو- في شارع "دوفين"- في الثامنة والنصف، في محل الصائغ الذي يشتري الأواني الفضية الأثرية والشارات. باعه بثمن عال أواني منزلية من الفضة، مبرومة بجمال لا يتناسب إلا مع رجل ذي خبرة.

- عجبًا! أهذا صحيح؟

- أجل. كنت عائدًا إلى هنا بعد أن أوصلت أحد أصدقائي المغتربين ليسافر بقطار "المساجري روايال"؛ انتظرت الأب جوريو لأرى: قصة مضحكة. عاود الصعود إلى ذلك الحي، شارع "جري" حيث دخل منزل مرابٍ شهير، يُدعَى "جوبسيك"، وهو رجل هزلي مختال، لا يتورع عن أن يصنع أقنعة من عظام أبيه؛ يهودي، عربي، يوناني، بوهيمي، رجلٌ تحتار عند سرقته؛ فثروته مودعة بالبنك.

- ما الذي فعله هذا الأب جوريو، إذن؟

- لم يفعل شيئًا، قال ڤوتران، لا شيء. إنه عبيط أحمق بما يكفي ليدمر

ذاته في عشق الفتيات اللائي....

ـ ها هو، قالت سيلڤي.

ـ كريستوف، صاح الأب جوريو، اصعد معي!

تبع كريستوف الأب جوريو، وعاد سريعًا.

ـ إلى أين؟ سألت السيدة ڤوكيه خادمها.

ـ في مهمة تخص الأب جوريو.

ـ ماهذا؟ قال ڤوتران، وهو ينتزع من يد كريستوف خطابًا قرأ على مظروفه: إلى السيدة الكونتيسة "أنستازي دو روستو". أأنت ذاهب إليها؟ قال وهو يعيد الخطاب إلى كريستوف.

ـ شارع "هيلدر". ولديَّ أمر مشدد بألا أضع هذا إلا في يد السيدة الكونتيسة.

ـ ما الذي بداخل الخطاب؟ قال ڤوتران وهو يقلب المظروف باتجاه النور، ورقة نقدية؟ لا. وارب المظروف صائحًا: إيصال مخالصة! اللعنة! كم هو ظريف، ذلك المتصابي! اذهب، عجوز خبيث! قالها، وهو يربت بيده الكبيرة على رأس كريستوف، وأداره حول نفسه كما يدور زهر النرد. سوف تحصل على بقشيش كبير.

كانت أدواتُ المائدة قد تم رصها على المنضدة. سيلڤي تغلي اللبن، والسيدة ڤوكيه تشعل الموقد، يعاونها ڤوتران الذي لا ينقطع غناؤه:

«لقد طوفتُ في أرجاء العالم طويلاً

ورآني الناسُ في كل الأماكن»

عندما أصبح كل شيء جاهزًا، مهيأ تمامًا، وصلت السيدة كوتور والآنسة تايفيه.

ـ مِن أين تأتين في هذا الصباح، يا سيدتي الجميلة؟ سألت السيدة ڤوكيه السيدة كوتور.

ـ كنا نُصلي في "سانت-اتيان دي مون". أليس علينا اليوم أن نتوجه إلى السيد تايفيه؟ يا لصغيرتي المسكينة التي ترتجف كورقة شجر! قالت السيدة كوتور، وهي تجلس أمام فوهة الموقد، وقد قربت من النار حذاءها الذي بدأ يدخن.

ـ دفّئي نفسك، أنتِ أيضًا، يا ڤكتورين، قالت السيدة ڤوكيه.

ـ جميل، يا آنستي، أن تقومي بالصلاة لإلهك الطيب ليُحنِّن قلب والدك؛ قال ڤوتران وهو يقدم كرسيًا إلى الآنسة اليتيمة. لكن ذلك لا يكفي. فيلزمك صديق يحمل عن عاتقك مواجهة خنزير البحر، هذا الوحش الذي يُقال إنه يمتلك ثلاثة ملايين، ويحرمك من المَهر. والفتاة الجميلة في زمننا هذا محتاجة للمَهر.

ـ يا للصبية المسكينة! قالت السيدة ڤوكيه، هيا، يا حلوتي، فوالدك المسخ يجلب على نفسه الشقاء لا المسرة.

هنا، اغرورقت عينا ڤكتورين بالدمع، وتوقفت الأرملة بإشارة من السيدة كوتور.

ـ لو كان بإمكاننا أن نراه! لو أن بمقدوري التحدث إليه! لأسلمته آخر رسالة من زوجته! قالت أرملة المأمور، فأنا لا أجرؤ على إرسالها بالبريد، لأنه يعرف خطي.

ـ *يا للنساء البريئات! التعيسات، المعذبات*، صاح ڤوتران مقاطعًا، ها إنكن بكل هذه الصفات! من الآن ولعدة أيام، سأنشغل بأموركن، وسينصلح كل شيء.

ـ آه، يا سيدي، قالت ڤكتورين وهي تلقي بنظرة ندية ومحرقة إلى ڤوتران، الذي لم يتأثر بها. إن كنتَ تعرف وسيلة للوصول إلى والدي، فأكّد له أن محبتي له وشرف والدتي هما الأغلى عندي من كل ثروات العالم، فإذا ما استطعتَ تلطيف قسوته تجاهي، فسأصلي لله من أجلك. كن على ثقة من عرفاني بالجميل".

«لقد طوفتُ في أرجاء العالم طويلاً

ورآني الناسُ في كل الأماكن»

دندن ڤوتران بلهجة تهكمية. لحظتئذٍ، نزل جوريو والآنسة ميشونو وپواريه، وقد اجتذبتهم فيما يبدو رائحة الشواء الذي كانت تقوم به سيلڤي وهي تعد بقية الخروف. وإذ التف النزلاء حول المائدة، متبادلين تحية الصباح، دقت الساعة العاشرة، وأمكن تبين خُطى الطالب في الشارع.

ـ آه! حسنًا، سيد يوچين، قالت سيلڤي، اليوم تتناول غداءك مع الجميع.

قام الطالب بتحية الحضور، ثم جلس إلى جوار الأب جوريو.

ـ لقد حدثت لي اليوم مغامرة فريدة! قال وهو يأخذ قطعة كبيرة من لحم الخروف، ويقتطع شريحةً من الخبز الذي كانت السيدة ڤوكيه تزنه بعينيها.

ـ مغامرة؟ قال پواريه.

ـ ولكن لماذا الاندهاش، أيها "القبعة القديمة"؟ قال ڤوتران لپواريه، فالسيد مهيأ تمامًا لأن يكون مغامرًا.

استرقت الأنسة تايفيه بخجل نظرةً من الطالب الشاب.

ـ أخبرنا عن مغامرتك، طلبت منه السيدة ڤوكيه.

ـ بالأمس، كنت في حفل راقص لدى الكونتيسة دو بوزيان- وهي إحدى بنات عمومتي، وتمتلك دارًا فخمة، وشققًا مكسوة بالحرير- وفي النهاية أعدت لنا احتفالاً رائعًا، حيث استمتعتُ كملك..

ـ تقصد كمُليك! قال ڤوتران مقاطعًا بجرأة.

ـ سيدي! قال يوچين باحتداد، ماذا تريد أن تقول؟

ـ قلت: "مُليك"، لأن المُليك يكون أكثر مجونًا من الملك ذاته.

ـ معك حق، وأتمنى لو كنت هذا "العصفور"، فلا أستشعر أي هم يستشعره ملك، قال پواريه *المُعيد*، لأن..

ـ في النهاية، قال الطالب مقاطعًا، راقصتُ إحدى أجمل النساء في الحفل، كونتيسة فاتنة. أشهى مخلوقة رأيتها على الإطلاق. كان شعرها مصففًا بأزهار الخوخ، وإلى جوارها أجمل باقات الزهور، زهور طبيعية عبقة الأريج، ولكن، وا أسفاه! فلابد أن تراها بنفسك؛ فمن المستحيل رسم امرأة وهي تتحرك بالرقص. آه، حقًا! ففي هذا الصباح، في الساعة التاسعة، شاهدت هذه الكونتيسة تمشي على قدميها في شارع "جري"؛ أواه! خفق قلبي، وتهيأ لي....

ـ أنها آتية إلى هنا، قال ڤوتران وهو يرشق الطالب بنظرة عميقة، كانت ذاهبة إلى "بابا جوبسيك" المرابي. فلو تصفحت قلوب النساء الباريسيات، لعثرت على المرابي فيه قبل العشيق.

ـ كونتيستُكَ تُدعى "أنستازي دو رستو"، وتقيم في شارع "هيلدر".

سمع الطالب الاسم فنظر محدقًا في ڤوتران. رفع الأب جوريو رأسه فجأةً، وألقى على المتحاورين نظرةً مضيئة، مفعمة بالقلق، فأدهش

النزلاء.

- سيصل كريستوف متأخرًا للغاية، بينما ستكون هي قد ذهبت! صاح جوريو بألم.

- خمنتُ ذلك، همس ڤوتران في أذن السيدة ڤوكيه.

كان جوريو يأكل بطريقة آلية بلا وعي بما يأكل. لم يكن أبدًا بليدًا ومستغرقًا كما كان في تلك اللحظة.

- أي شيطان استطاع، يا سيد ڤوتران، أن يخبرك بهذا الاسم؟ سأل يوچين.

- آه، آها! رد ڤوتران، فالأب جوريو يعرف اسمها جيدًا، يعرفه تمامًا، فلماذا لا أعرفه أنا الآخر؟

- السيد جوريو؟ صاح الطالب.

- ماذا؟ قال العجوز المسكين. كانت إذن جميلة فاتنة ليلة أمس.

- مَن؟

- السيدة دو رستو.

- أترى العجوز الشحيح، قالت السيدة ڤوكيه لڤوتران، كيف تُضيء عيناه؟

- هو يعُولها إذن، همست الآنسة ميشونو للطالب.

- آه! حقًا. فجمالها صاعق، قال يوچين الذي كان الأب جوريو يتطلع إليه بشراهة. لو لم تكن السيدة دو بوزيان موجودةً هناك لكانت "كونتيستي" السماوية ملكة الحفل، ولما كان للشبان عيونٌ إلا لرؤيتها. كان اسمي الثاني عشر في قائمة مُراقصيها، ولم تفتها رقصة "كادريل" واحدة. وحنقت عليها باقي السيدات. فإذا كان ثمة مخلوقة واحدة سعيدة

بـالأمس، فبكـل تأكيـد كانـت هـي. وصـحيحٌ القـول إنـه لا أجمـل مـن "فرقاطة" مفرودة الشراع، وحصان منطلق، وامرأة ترقص.

ـ بـالأمس، في أعلـى دوران للعجلـة، عنـد الدوقـة، قـال ڤـوتران، وهـذا الـصباح، أسـفل الـسُّلَّم لـدى المرابي: هكـذا الباريـسيات! فـإن لم يـستطع الأزواج تـوفير رغـد العـيش لزوجـاتهم، بعـنَ أنفـسهن. وإذا لم يستطعن، قلَّبن جيوب أمهاتهن بحثًا عما يلمع. وفي النهاية، يعشن عيشةً ماجنة. مفهوم، مفهوم!

كـان وجـه الأب جوريـو قـد أشـرق كـشمس يـوم جميـل لـدى سماعـه الطالب؛ فإذا به الآن يقتُم مع ملاحظات ڤوتران القاسية هذه.

ـ حـسنًا! قالـت الـسيدة ڤوكيـه، فـأين إذن مغامرتـك؟ هـل تحـدثتَ معها؟ هل سألتها ما إذا كانت ترغب في دراسة القانون؟

ـ إنهـا لم ترنـي، قـال يـوجين، ولكـن ألـيس شيئًا فريـدًا أن تتواجـد واحـدة مـن أجمـل نـساء بـاريس، بـشارع "جـري" في التاسـعة والنـصف صباحًا، فيما كان يُفترض أن تغادره في الثانية صباحًا؟ هذه المغامرات لا تقع إلا في باريس!

ـ حسنًا! هناك ما هو أعجب، صاح ڤوتران.

لا تكـاد الآنـسة تايفيـه تـسمع مـا يُقـال. كانـت منـشغلة البـال كـثيرًا بمسعاها المرتقب. أشـارت إليهـا الـسيدة كوتـور لتنهض وترتـدي ثيـاب الخروج. وعندما غادرتا معًا، فعل مثلهما الأب جوريو.

ـ حسنًا! أرأيتموه؟ قالـت السيدة ڤوكيه لڤوتران والنزلاء الآخرين، من الواضح أنه دمر نفسه من أجل تلك النساء.

ـ مـستحيلٌ أن يقـنعني أحـد، صـاح الطالـب، أن تكـون الكونتيـسة

الجميلة دو رستو ذات صلة بالأب جوريو!

ـ ولكن، قاطعه ڤوتران، نحن لا نحاول إقناعك. فأنت ما تزال بعدُ أصغر من أن تفهم باريس، وعندما تكبر ستعرف أنها مليئة بمن نسميهم "أصحاب الشهوات"..

رشقت الآنسة ميشونو ڤوتران بنظرة ثاقبة، لدى سماعها هذه الكلمات، كأنها حصان حربي سمع صوت النفير.

ـ آه! توقف ڤوتران، ليرمقها بنظرة نافذة. أليست لنا شهواتنا، نحن أيضًا؟ خفضت الآنسة العجوز عينيها كمتدينة ترى تماثيل. حسنًا! عاد إلى الحديث، هؤلاء الناس يتشبثون بفكرةٍ ولا يبدلونها؛ فهم لا يظمأون إلا لماءٍ معين، مستمد من نبعٍ معين، وهو غالبًا آسن؛ ولكي يشربوا منه، فعليهم أن يبيعوا زوجاتهم وأولادهم، بل وأنفسهم، للشيطان. بالنسبة للبعض، فهذا النبع هو القمار، أو البورصة، أو مجموعة رسوم أو حشرات، أو الموسيقى. وبالنسبة لآخرين، فهي المرأة التي تعرف كيف تعد أصناف الحلوى. فإذا ما عرضتَ عليهم كل نساء هذا العالم، فسيسخرون من ذلك، فهم لا يريدون إلا تلك التي تُشبع هواهم. وكثيرًا ما تكون تلك المرأة غير ميالة لهم، تعنفهم، وتبيع لهم فتات الإشباع بثمن باهظ؛ حسنًا! لن يسأم مهرجوهن، وسيقومون برهن آخر ما يتغطون به ليأتوا لها بآخر ريال. والأب جوريو أحد هؤلاء الناس. تستغله الكونتيسة لأنه كتوم، وهذا هو العالم الجميل! والرجل الطيب البائس لا يفكر إلا فيها. وخارج عاطفته، ها هو ترونه، مجرد حيوان فظ. فلتفتحوا له الموضوع، وانظروا كيف يتألق وجهه كماسة. وليس من الصعب تخمين هذا السر. فقد حمل آنية الفضة هذا الصباح إلى

المسبك، ولمحته يدخل محل "بابا جوبسيك" بشارع "جري". تابعوني جيدًا: وعندما عاد، أرسل إلى الكونتيسة دو رستو ذلك الأبله كريستوف الذي أطلعنا على عنوان الخطاب، الذي كان يحتوي على فاتورة مدفوعة. ومن الواضح أن حالةً طارئة قد دفعت الكونتيسة أيضًا للذهاب إلى المرابي العجوز. لقد سدد الأب جوريو بلُطف دَينها. ولا ينبغي أن نضم فكرتين لنرى بوضوح ما جرى. فهذا يبرهن لك، يا صديقي الطالب الشاب، أن "كونتيستك" ـ عندما كانت تضحك وترقص وتهرج وتوازن أزهار الخوخ، وتشد فستانها، فقد كانت ترتدي حذاءً ضيقًا، كما يُقال، وهي مشغولة البال بدَينها، أو قل بدَين عاشقها.

ـ أنت تشعل رغبتي في معرفة الحقيقة. سأذهب إلى السيدة دو رستو غدًا، صاح يوچين.

ـ أجل، قال پواريه، عليك بالذهاب إليها غدًا. وربما تجد لديها الأب جوريو الطيب يتلمس ثمرة غَزَله.

ـ ولكن، قال يوچين ممتعضًا، باريسكم هذه إذن مستنقع.

ـ بل مستنقع مضحك، قال ڤوتران. والذين يتوحلون فيه بعرباتهم هم الشرفاء، بينما مَن يتوحلون بأقدامهم فهم المحتالون. فمن التعاسة في ذلك أن تنتحل ما لا أدري، وأن تبدوـ في ميدان "المحكمة"ـ باعتبارك طُرفة. فلتسرق مليونًا، وسيُشار إليك في الصالونات باعتبارك مثالاً للفضيلة. وتدفع ثلاثين مليونًا للشرطة والعدل كي تحافظ على هذه الأخلاقيات. جميل!

ـ كيف، صاحت السيدة ڤوكيه، استطاع الأب جوريو صهر أطباقه الفضية المذهبة؟

- ألم يكن ثمة يمامتان على الغطاء؟ سأل يوچين.

- هذا صحيح.

- لقد كان مأخوذًا بها كثيرًا. وانهمرت دموعه وهو يعجن الطبق والجفنة. لقد رأيته بالصدفة، قال يوچين.

- كان مأخوذًا بها كأنها حياته، ردت الأرملة.

- أرأيتم الرجل الطيب، وكم هو مشبوب العاطفة؟ صاح ڤوتران. إن تلك المرأة تعرف كيف تهدهد روحه.

صعد الطالب إلى غرفته. وخرج ڤوتران. بعد لحظات، صعدت السيدة كوتور وڤكتورين إلى حنطور أحضرته لهما سيلڤي. أعطى پواريه ذراعه للآنسة ميشونو، وتوجها للتنزه في حديقة النباتات خلال أجمل ساعتين من النهار.

- عجبًا! لكأنهما متزوجان، قالت سيلڤي السمينة، يخرجان اليوم معًا للمرة الأولى. يا لهما من ثنائي مجفف، إذا ما تصادم أحدهما بالآخر اشتعلت النار كالقداحة.

- احذري وشاح الآنسة ميشونو، ضحكت السيدة ڤوكيه، فهو يبعث الشرر كالصوفان*.

في الرابعة مساءً، عندما عاد جوريو، رأى على ضوء مصباحين داخنين ڤكتورين محمرة العينين. كانت السيدة ڤوكيه، تصغي لقصة الزيارة الصباحية غير المثمرة إلى السيد تايفيه. ولأن تايفيه انزعج من استقبال ابنته وهذه المرأة العجوز، فقد سمح لهما بالمجيء إليه ليتفاهم

---

* مادة اسفنجية تُستخدم لاستخراج النار من القدَّاحة؛ (المحرر).

معهما.

ـ سيدتي العزيزة، قالت السيدة كوتور للسيدة ڤوكيه، تصوري أنه حتى لم يسمح بجلوس ڤكتورين، فظلت واقفةً طوال الوقت. أما أنا فقال لي، بدون أن يحتد عليَّ، بل بكل برود، ألا أجشِّم نفسي عناء التوجه إليه. أما الآنسةـ لم يقل "ابنتي"ـ فإنها تضر بحالتها بالإلحاح عليه! (مرة واحدة في العام، هذا المسخ!)، وإذا كانت أم ڤكتورين معوزةً يوم تزوجها، فليس لها أن تنتظر نَيل شيء؛ وأخيرًا الأشياء الأشد قسوة، التي فجرت الدموع من هذه الصغيرة المسكينة. ارتمت الصغيرة على قدمَي والدها، وقالت له بجرأة إنها لم تلح عليه إلا من أجل أمها، وإنها خاضعة لإرادته بلا أي اعتراض، لكنها فقط تترجاه أن يقرأ وصية المرحومة المسكينة. وأخذت الخطاب وقدمته له، وقالت أجمل ما في الكون وأرهف التعبيرات، التي لا أدري كيف تحصَّلت عليها، كأنما أنزلها الله على قلبها، لأن الصبية البائسة كانت ملهمةً حتى إنيـ لدى سماعيـ بكيت كأنني بلهاء. أوَتدرين ماذا كان يفعل ساعتها ذلك الرجل البشع؟ كان يقصُّ أظافره، وتناول منها الخطاب الذي كانت السيدة تايفيه قد أغرقته بدموعها، وألقاه على رف المدفأة قائلاً: حسنًا! وأراد أن يُنهض ابنته التي كانت قد أمسكت بيده لتقبلها، لكنه انتزعها منها. أليس ذلك خِسة؟ حتى الأحمق الكبير، ابنه، دخل ولم يلق التحية على أخته!

ـ إنهما مسخان، إذن، قال الأب جوريو.

ـ بعدها، استأنفت السيدة كوتور دون الانتباه إلى تعجب الرجل الطيب، ذهب الأب والابن وهما يلوِّحان لي، راجيَيْن مني أن أعذرهما، فلديهما أشغال مستعجلة. تلك كانت زيارتنا. على الأقل، فقد رأى

ابنته. ولا أدري كيف يمكنه أن ينكرها، وهي تشبهه كأنهما قطرتا ماء.

راح النزلاء- الداخليون والخارجيون- يَصِلون بعضهم إثر بعض، وكل منهم يبادل الآخر تحية الصباح، ويطلقون تلك النكات التي تُعتبر- لدى بعض الطبقات الباريسية- طرائف مضحكة، تمثل فيها البلاهة عنصرًا أساسيًّا، وتكمن قيمتها- بشكل خاص- في اللمحة أو طريقة النطق. ويختلف هذا النوع العامي بشكل دائم. والمزحة الأساس في ذلك لا تُعمر شهرًا أبدًا. ويُستخدم حدثٌ سياسي، أو قضية في محكمة جنايات، أو أغنية شوارع، أو هزليات ممثل، في تغذية هذه المزحة، التي تقوم بشكل خاص على التقاط الأفكار والكلمات بسرعة البديهة، وإعادة إرسالها إلى الآخرين. واختراع "الديوراما"* الأخير، الذي يتضمن خدعة بصرية بدرجة أعلى من "البانوراما" ولَّد- في بعض مراسم الفنانين- مزحة الحديث بكلمات تنتهي بـ"راما"، هجمة من نوع ما، بثها في البنسيون رسامٌ شاب يعيش فيه.

- حسنًا! سيد پواريه، قال موظف المتحف، كيف حال "سانتيراما" الصغيرة؟ ثم، دون انتظار للإجابة، يبدو عليكما الحزن، سيدتَي، موجهًا حديثه إلى السيدة كوتور وڤكتورين.

- أنمضي إلى الطعاااام؟ صاح هوراس بيانشون، وهو طالب طب وصديق لراستنياك، معدتي الصغيرة تدلت فبلغت كعابي.

- البرد قارسراما! قال ڤوتران. أفسح لي إذن، يا أب جوريو! يا للشيطان! فقدمك تحتل كل فتحة الموقد.

- فخامة السيد ڤوتران الشهير، قال بيانشون، "لماذا قلتم *قارسراما*؟

---

* **الديوراما**: لوحة تمثل شخصيات ومشاهد مختلفة الإضاءة؛ (المحرر).

فثمة خطأ؛ فهي *قارصراما*.

ـ لا، قال موظف المتحف، إنها *قارسراما*، وفقًا لقاعدة: قدمي مقروسة.

ـ آه! آه!

ـ ها هو سمو الماركيز دو راستنياك، دكتور في قوانين الغرائب، صاح بيانشون، وهو يمسك برقبة يوچين ويلويها بطريقة خانقة.

ـ أهلاً، بالقادمين، أهلاً!

دخلت الآنسة ميشونو بهدوء، وحيت المجتمعين دون كلمة، وتوجهت لتجلس بجوار السيدات الثلاث.

ـ دائمًا ما تجعلني أرتعد، هذه الخفاشة العجوز، همس بيانشون إلى ڤوتران، وهو يشير إلى الآنسة ميشونو. أنا الذي أدرس نظام "جال"*، أرى على ظهرها حدبة "يهوذا".

ـ أتعرفه، يا سيدي؟ قال ڤوتران.

ـ مَن ذا الذي لم يقابله؟ أجاب بيانشون. كلمة شرف: هذه الفتاة العجوز البيضاء تذكرني بتلك الديدان الطويلة التي يمكنها أن تقرض جسرًا خشبيًّا.

ـ ذلك كذلك، صديقي الشاب، قال الأربعيني وهو يمشط فوديه.

«ولأنها وردةٌ، عاشت كما الورُود

مجرد صباح»

ـ ها! ها! ما أبدعه من *حساءراما*! هتف پواريه وقد رأى كريستوف

---

* فرانز جوزيف جال Gall: طبيب الماني (1758ـ1828)، صاحب دراسة شكل الجمجمة، باعتباره دلالة على الشخصية والملكات العقلية؛ (المحرر).

حاملاً إناء الحساء باحترام بالغ.

ـ معذرة، سيدي، قالت السيدة ڤوكيه، هو حساء كُرُنب!

فانفجر الشباب جميعهم مقهقهين.

ـ مستغرقٌ، پواريه!

ـ پواررررريه المستغرق!

ـ فلتسجلوا نقطتين للسيدة ڤوكيه؛ قال ڤوتران.

ـ ألاحظ أحدكم ضباب هذا الصباح؟ سأل الموظف.

ـ لقد كان الضباب ـ قال بيانشون ـ جنونيًّا، لا مثيل له. ضباب كئيب سوداوي، أخضر. مقطوع النَّفَس، ضباب جوريو...

ـ جوريوراما! قال الرسام، لأننا لا نستطيع فيه رؤية شيء.

ـ *أنت! ياسيددددي جاوريوت، فهو إن يتكلم عن أنت.*

جالسًا هناك في آخر المائدة، قُرب الباب الذي يهل منه الطعام، رفع الأب جوريو رأسه، متشممًا قطعة خبز كانت لديه تحت المنشفة، بحكم عادة تجارية قديمة كانت تعاوده بين الحين والحين.

ـ حسنًا! ـ احتدت عليه السيدة ڤوكيه، وغطى صوتها على صوت الملاعق والأطباق والأصوات الأخرى ـ ألا تجد الخبز صالحًا للأكل؟

ـ بالعكس، يا سيدتي، أجابها، إنه من دقيق "إيتامب"، من أرقى درجة.

ـ وكيف توصلت إلى هذا؟ سأله يوچين.

ـ من بياضه الناصع، وطعمه!

ـ مِن رائحته في أنفك، بما أنك تشممته، قالت السيدة ڤوكيه. أنت تصبح بالغ التقشف إلى أن تجد ـ في النهاية ـ وسيلة لتتغذى بتشمم الروائح

القادمة من المطبخ.

ـ فلتأخذ براءة اختراع، إذن ـ صاح موظف المتحف ـ فستصنع ثروة طائلة.

ـ هوِّن عليك، فهو يفعل ذلك ليقنعنا أنه كان صانع شعريَّة، قال الرسام.

ـ أنفك إذن له قُرون استشعار، عاد موظف البنك يسأل.

ـ قُر ماذا؟ قال بيانشون.

ـ قُرـانيَّة*.

ـ مزمار القربة.

ـ عقيق أحمر.

ـ كورنيش.

ـ خيار مخلل.

ـ غُراب.

ـ سائس فيل.

ـ كور نورَامَا.

انطلقت هذه الإجابات الثماني من كل أرجاء القاعة بسرعة النار في الهشيم. وأطلقت الكثير من الضحك، بينما الأب جوريو المسكين يتطلع في الوجوه ببلاهةٍ، كشخص يحاول فهم لغة أجنبية.

ـ قُر؟ قال لڤوتران الذي كان بجواره.

ـ قُر على قدميك، أيها العجوز! قال ڤوتران، وهو يكبس قبعة الأب جوريو في رأسه بضربة يد، حتى جعلها تغطي عينيه.

---

* مجرد تلاعب بالألفاظ، بأن يورد كل منهم كلمة تبدأ بـcor؛ (المحرر).

وإذ ذُهل العجوز المسكين لهذا الهجوم المباغت، بقي جامدًا للحظة. حمل كريستوف الطبق من أمام الرجل الطيب، معتقدًا أنه انتهى من حسائه؛ وإذ رفع الرجل قبعته، وأراد أن يواصل طعامه، ضربت الملعقة في المنضدة. وانفجر الجميع في الضحك.

ـ سيدي، قال العجوز، إنك سيء المزاح، وإذا ما سمحت لنفسك أن تكرر ذلك، فإنني...

ـ حسنًا! ماذا، يا بابا؟ قاطعه ڤوتران.

ـ حسنًا! فإنك ستدفع ثمن ذلك غاليًا ذات يوم.

ـ في الجحيم، أليس كذلك؟ قال الرسام، في ذلك الركن المظلم الصغير الذي يُزج فيه بالأطفال الأشقياء؟

ـ حسنًا! يا آنسة، قال ڤوتران لڤكتورين، أنت لا تأكلين. إذن، فوالدك كان مجحفًا بحقك؟

ـ فظاعة، قالت السيدة كوتور.

ـ لابد من إعادته إلى رشده! قال ڤوتران.

ـ ولكن، قال راستنياك الذي كان قريبًا إلى حدٍّ ما من بيانشون، بإمكان الآنسة رفع قضية تعويض بخصوص مسألة نفقة الغذاء، بما أنها لا تأكل. آه! هه! انظروا، إذن، كيف يتفحص الأب جوريو الآنسة ڤكتورين!

كان العجوز قد نسي أن يأكل، مستغرقًا في تأمله للفتاة الشابة المسكينة التي كان يتألق في ملامحها ألم حقيقي، ألم طفل مجحود يحب أباه.

ـ يا عزيزي، قال يوچين همسًا، لقد أخطأنا في حق الأب جوريو. فهو ليس رجلا معتوهًا، ولا هو خائر. طبق عليه نظام "جال" وقل لي ما

الذي سيتبادر إلى ذهنك. لقد رأيته الليلة الفائتة يبرم طبقًا من الفضة كأنه من شمع، وفي تلك اللحظة كان وجهه ينم عن عواطف غير طبيعية. حياته تتبدى لي أغرب من أن تستحق عناء دراستها. نعم، بيانشون، لقد ضحكتَ كثيرًا، وأنا لا أمزح.

- هذا الرجل حدثٌ طبي! قال بيانشون. أوافقك؛ وإذا ما وافق سأقوم بتشريحه.

- لا، فلتجس رأسه فقط.

- آه! حسنًا، فربما تكون بلاهته معدية.

في اليوم التالي، تأنق راستنياك تمامًا، وذهب- في نحو الثالثة بعد الظهر- إلى السيدة دو رستو، مستسلمًا طوال الطريق إلى تلك الآمال الجنونية في طيش، التي تحيل حياة الشبان إلى عواطف جميلة: لا يضعون في حسبانهم إذن العقبات ولا المخاطر، فيرون النجاح في كل شيء، ويحولون وجودهم إلى شِعر بلعبة الخيال وحدها، ويصبحون تعساءَ أو محزونين بانهيار مشاريعهم التي لم تكن تعيش إلا في رغباتهم الجامحة؛ فإذا لم يكونوا جهلاء واجفين، فسيكون العالم الاجتماعي مستحيلاً عليهم.

كان يوجين يمشي بحذر بالغ حتى لا يتلوث بالطين، لكنه كان يمشي مشغول البال بما سيقوله للسيدة دو روستو. كان قد حشد عقله، وتمثل ردودًا سريعة في محادثة متخيلة، وأعد الكلمات اللطيفة، وتخير عباراته بأسلوب "تاليران"*، مفترضًا ظروفًا مواتية لإعلانه عن عواطفه، مما

---

* تاليران Talleyrand: شارلز موريس دي تاليران (1754-1838)، سياسي فرنسي، تقلد الكثير من المناصب الكبرى، وزيرًا للخارجية، وصولاً إلى رئاسة الوزراء، عدة

يؤسس لمستقبله. لوث نفسه بالوحل، الطالب، مما اضطره إلى إعادة تلميع حذائه وتنظيف بنطلونه في "الباليه روايال". "لو كنت غنيًّا" قال لنفسه، وهو يبدل قطعة نقود من فئة الثلاثين فلسًا كان يدخرها *لحالة البؤس*، "لذهبتُ في عربة، وتمكنتُ من التفكير على راحتي".

وأخيرًا، وصل إلى شارع "هيلدر"، وسأل عن الكونتيسة دو روستو. وبالحنق البارد لرجل واثق من انتصاره ذات يوم، تلقى نظرة احتقار من عيون مَن رأوه يعبر الفناء ماشيًا على قدميه، دون أن يسمعوا جلبة عربة لدى البوابة. هذه النظرة جعلته بالغ الحساسية، فأدرك دونيته وهو يعبر هذا الفناء، حيث كان يتململ جواد جميل مربوطًا بفخامة إلى عربة "كابريوليه" أنيقة، تنطق بالبذخ العريض وتلهج بالرغد الباريسي. ضاق صدره من تلقاء ذاته. الأدراج المفتوحة في مخه، التي كان يظنها مفعمة بالحيوية انغلقت، وأضحى غبيًّا. في انتظار الرد الذي سيجيء من الكونتيسة، التي توجه إليها خادم ليخبرها باسم الزائر، وقف يوجين على قدم واحدة أمام نافذة حجرة الانتظار، اتكأ بكوعه على المغلاق. ونظر بآليةٍ إلى الفناء. بدا له الوقت طويلاً. كان له أن ينصرف لولا تمتعه بسماجة أهل الجنوب التي تخرج الأعاجيب حين تمضي في خط مستقيم.

ـ سيدي، قال الخادم، السيدة في مخدعها، مشغولة جدًّا، ولم ترد عليَّ؛ وإذا ما ارتأى السيد أن يمضي إلى الصالون، فسيجد شخصًا آخر هناك.

متعجبًا من القدرة المرعبة لهؤلاء الناس، الذين ـ بكلمة واحدة ـ يتهمون أو يدينون سادتهم، فتح راستنياك بحزم الباب الذي كان قد

مرات؛ (المحرر).

خرج منه الخادم، ليُري هؤلاء الخدَم الوقحين أنه يعرف أصحاب الدار؛ لكنه شق طريقه بطيش إلى حجرة، رأى فيها مصابيح وبوفيهات وأجهزة تدفئة، ومناشف للحمام، أفضت به إلى رواق معتم ثم إلى سُلَّم خفي. وإذا بالضحكات المكتومة التي سمعها من حجرة الانتظار تزيد طينه بلَّة.

ـ سيدي، الصالون من هذه الناحية، قال الخادم باحترام زائف، يصل إلى حد التهكم.

تراجع يوچين بتهور فاصطدم ببانيو، لكنه تدارك لحسن حظه قبعته فلم تسقط في الماء. في تلك اللحظة، انفتح بابٌ في آخر الرواق الطويل المضاء بمصباح صغير، وسمع راستنياك ـ في آنٍ ـ صوت السيدة دو رستو وصوت الأب جوريو أيضًا، وصوت قُبلة.

دلف إلى صالة الطعام، اجتازها، تَبع الخادم، وعاد إلى الصالون الأول، ووقف متكئًا على إحدى النوافذ، متطلعًا إلى الفِناء. كان يريد معرفة ما إذا كان الأب جوريو هو بالفعل الأب جوريو الذي يعرفه. دق قلبه بغرابة، وتذكر أفكار ڤوتران المرعبة. كان الخادم ينتظر يوچين عند باب الصالون، الذي انطلق منه فجأةً شابٌّ أنيق، قائلاً بنفاد صبر: "أنا ذاهبٌ يا موريس. أبلغ الكونتيسة أنني انتظرتها أكثر من نصف ساعة".

راح ذلك السفيه ـ الذي كان لديه دون ريبٍ الحق فيما يفعل ـ يدندنُ بعض "الرولندات" الإيطالية، وهو يتجه صوب النافذة حيث كان يقف يوچين، ليرى وجهه، متظاهرًا بالرغبة في الفرجة على الفِناء.

ـ ليت سيدي الكونت ينتظر لحظةً أخرى، فالسيدة قد انتهت، قال موريس، وقد عاد إلى حجرة الانتظار.

في تلك اللحظة، كان الأب جوريو يقترب من الباب المفضي إلى

السُّلم الصغير. وكان الرجل الطيب يهيئ مظلة المطر ليفردها، غير منتبه إلى أن الباب الكبير قد انفتح لدخول شاب من حملة الأوسمة يركب عربة "تالبوري" فخيمة. لم يكن أمام الأب جوريو من الوقت إلا ما يسمح له بالتقهقر حتى لا يُصدم. أرعب قماش المظلة الحصان، فجمح قليلاً مندفعًا نحو السُّلم. أدار هذا الشاب رأسه بغضب، تطلع إلى الأب جوريو، وألقى عليه- قبل أن يختفي- تحية تقدير قسرية، كتلك التي يلقيها الناس على مرابٍ لا غنى لهم عنه، أو ذلك الاحترام الضروري المتوجب على ذوي العاهات، لكنه يدفع إلى الخجل فيما بعد. رد الأب جوريو بتحية مقتضبة، ودية، مفعمة بالطيبة. تلك الأحداث كانت تتتابع بسرعة البرق. وكان يوچين منتبهًا تمامًا لملاحظة أنه ليس وحده بالمكان، فسمع صوت الكونتيسة فجأة.

ـ آه! مكسيم، هل كنت في طريقك للانصراف؟ قالت بطريقة تعرف أن الأذكياء يخضعون لها.

لم تكن الكونتيسة- في تلك اللحظة- قد انتبهت لدخول العربة "التالبوري". استدار راستنياك فجأةً، فرأى الكونتيسة وقد لفت جسدها بدلال في "برنوس" كشمير أبيض بشرائط وعقد وردية، وشعرها على عفويته، كحال نساء باريس في الصباح؛ شذاها يضوع، فقد أخذت- ولا شك- حمامًا لتوِّها؛ وجمالها- بكل هذه النداوة- كان شهوانيًّا؛ وعيناها كانتا نديتين. كان يمكن لعينَي الشاب أن تريا كل شيء؛ اتحدت روحاهما في إشعاع المرأة، كالنبات الذي يستنشق من الهواء العناصر التي تخصه وحده. وأحس يوچين بالنداوة المنبعثة من يدي هذه المرأة، دون أن يحتاج إلى لمسها. ورأى عبر الكشمير الألوان الوردية في "الكورساج"

الذي كان يسمح له "البرنوس"ـ المفتوح قليلاًـ بأن يبين عاريًا أحيانًا، فحطت عليه عيناه. كانت وسائل تصليب المشدات بلا أهمية للكونتيسة، فالحزام كان يحدد وحده خصرها الممشوق، فيما كان عنقها يدعو مَن يقبله، وكانت قدماها جميلتين في خُف الحمَّام. وعندما تناول مكسيم تلك اليد ليقبلها، لمح يوچين مكسيم، ولمحت الكونتيسة يوچين.

ـ آه! إنه أنت، سيد دو راستنياك. تسرني رؤيتك. قالت ذلك بطريقة يخضع لها ذوو الفكر.

كان مكسيم ينظر بالتناوب إلى كل من يوچين والكونتيسة، نظرات ذات مغزى، كأنما ليزيح ذلك المتطفل. "آه، يا عزيزتي، آمل أن تعجلي بإلقاء الهُزأة الصغيرة هذا خارج الباب". تلك العبارة كانت ترجمة دقيقة جلية لنظرات الشاب المختال بنفسه لحد الوقاحة، الذي دعته الكونتيسة باسم مكسيم، والتي كأنما كانت تطالع وجهه بتلك النوايا الخاضعة التي تشي بكل أسرار المرأة دونما شك.

استشعر يوچين حقدًا جارفًا تجاه ذلك الشاب. أولاً لأن شَعر مكسيم الجميل الأشقر المتماوج أظهر ليوچين كم يبدو شعره فظيعًا. ثم إن حذاء مكسيم كان دقيقًا نظيفًا، بينما حذاؤهـ رغم عنايته بهـ فيحمل آثار قدومه؛ وأخيرًا فقد كان مكسيم يرتدي "ردنجوت" يبرز قوامه الرشيق ويجعله شبيهًا بامرأة جميلة، فيما كان يوچين يرتدي حُلةً سوداءَ في الساعة الثانية والنصف. وقد أحس الطفل الروحي لإقليم شارونت بتفوق ذلك الغندور، النحيل الطويل، صافي النظرات، شاحب السحنة؛ أحد أولئك الرجال القادرين على سحق اليتامى. وبدون أن تنتظر رد يوچين، طارت السيدة دو روستو الكونتيسة إلى الصالون

الآخر، تاركةً أذيال "البورنس" تتماوج خلفها، حتى تبدت كالفراشة، ومن ورائها مكسيم. ومن ورائهما، يوچين المشتعل بالغضب.

تلاقى هؤلاء الأشخاص الثلاثة أمام المدفأة، وسط الصالون الكبير. كان الطالب يعلم جيدًا أنه سيزعج ذلك المكسيم الكريه؛ لكنه- مخاطرًا بإغضاب السيدة دو رستو- كان يريد الآن إزعاج ذلك الغندور. وفجأةً، وقد تذكر أنه سبق أن رأى ذلك الشاب في الحفل الراقص لدى السيدة دي بوزيان، أدرك مكانته لدى الكونتيسة دو رستو. وبذلك الاجتراء الفتي الذي يمكن أن يتمخض عنه ارتكاب حماقات كبيرة أو تحقيق نجاح كبير، قال لنفسه: "ذاك هو خصمي، وأرغب في أن أقهره!" المتهور! كان يجهل أن الكونت مكسيم دو تراي كان يسمح له بإهانته، ليُطلق النار أولاً، ويقتله. كان يوچين صيادًا ماهرًا، لكنه لم يسبق له أن أصاب عشرين دمية من بين اثنتين وعشرين في إحدى التصويبات.

ألقى الكونت الشابُّ بنفسه في كرسي كبير قريبًا من النار، وأمسك "البنساة" وراح ينبش الرماد بحركة عصبية، مكفهرًّا، حتى إن وجه أنستازي الجميل اكفهَر فجأة. استدارت المرأة الشابة نحو يوچين، ورمته بإحدى تلك النظرات الاستفهامية الباردة، التي قالت بوضوح: "لماذا لم تغادرنا؟" والتي يفهم منها الناس حسنو التربية أنها تستوجب الخروج.

اتخذ يوچين سمتًا ودودًا، قائلا: سيدتي، كنت أتعجل رؤيتك لكي...

وتوقف. انفتح الباب. دخل فجأة الشاب الذي كان يركب عربة "التالبوري" بلا قبعة، ولا تحية للكونتيسة، ونظر بقلق إلى يوچين، فيما مد يده إلى مكسيم قائلا: "صباح الخير" بلهجة أخوية أدهشت يوچين كثيرًا. يجهل شبان الأقاليم كم تكون الحياة عذبة مع ثلاثة.

ـ سيد دو رستو، قالت الكونتيسة للطالب، وهي تشير إلى زوجها.
انحنى يوچين بعمق.

ـ السيدـ استأنفت كلامها، وهي تقدم يوچين إلى الكونت دو رستوـ السيد دو رستونياك، قريب الكونتيسة دو بوزيان، من جهة مارسياك، الذي سرني أن أقابله في الحفل الراقص الأخير.

قريب الكونتيسة دو بوزيان من جهة مارسياك. تلك الكلمات التي فاهت بها الكونتيسة بتفخيم الحروف، لإبداء الزهو بأن سيدة المنزل لا تستقبل في بيتها سوى رفيعي المقام، كان لها وقع السحر؛ فتخلى الكونت عن بروده الرسمي، وقام بتحية الطالب.

ـتشرفت، قال، يا سيدي، بتعرفي عليك.

ألقى الكونت مكسيم دو تراي نظرة قلقة على يوچين، وتخلى فجأةً عن ملامحه الوقحة. بضربة عصا الساحر هذه، الناشئة عن ذكر اسم له سطوته، انفتحت ثلاثون غرفة في جمجمة الشاب الجنوبي، بل أعادت له أفكاره التي كان قد رتبها. مكّنه ضوءٌ مفاجئ من أن يرى بوضوح أجواء الطبقة العليا للمجتمع الفرنسي، التي كانت معماةً عليه. أما "دار ڤوكيه" والأب جوريو، فكانا بعيدين جدًّا عن فكره.

ـ كنت أظن أن آل مارسياك انتهوا، قال الكونت دو رستو ليوچين.

ـ أجل، يا سيدي، أجاب. فعمي الأكبر، فارس إقليم راستنياك، تزوج من وريثة أسرة مارسياك، ولم يرزق سوى بابنة وحيدة تزوجت الماريشال دو كلارمبو، جد الكونتيسة دو بوزيان من ناحية الأم. نحن الفرع الثاني، الفرع الفقير لعمي الأكبر، نائب الأميرال، الذي فقد كل شيء وهو يخدم الملك، وإذا بحكومة الثورة ترفض تسوية مديونياتنا مع

شركة الهند.

ـ سيدي، ألم يكن عمك الأكبر "قمندانا" للسفينة "الڤنجور" قبل 1789؟

ـ هو بعينه.

ـ إذن، فقد عرف جدي الكبير الذي كان قمندانًا لـ"الواريك".

هز مكسيم كتفيه قليلاً وهو يتطلع إلى السيدة دِو روستو، كأنما يود لو قال لها: "إذا ما أخذ في الحديث عن البحرية مع ذلك الرجل فسندخل في متاهة". فهمت أنستازي نظرة السيد دو تراي. وبتلك القدرة الرائعة التي تملكها النساء، ضحكت قائلة: تعال، يا مكسيم، ثمة شيء أطلبه منك. سيديَّ، نترككما تبحران معًا على متن "الواريك" و"الڤنجور". نهضت مرسلةً إشارة مفعمةً بالمكر إلى مكسيم، الذي توجه معها إلى المخدع. هذا الثنائي "غير المتكافئ"ـ تعبير ألماني جميل، لا مرادف له في الفرنسيةـ ما إن بلغا الباب حتى قطع الكونت حديثه مع يوچين.

ـ أنستازي! فلتبقَي إذن يا غاليتي، صاح بتبرم، أنتِ تعلمين جيدًا أن..

ـ سأعود، سأعود، قالت وهي تقاطعه، لا يلزمني إلا دقيقة لأخبر مكسيم بما عليه أن يفعله.

عادت على الفور. وككل النساء اللواتي يضطررن لدراسة شخصية أزواجهن ليستطعن السير على هواهُنَّ، ويعرفن إلى أي مدًى يمكنهن الذهاب بحيث لا يفقدن الثقة الغالية، فلا يزعجونهم بالتالي فيما يتعلق بصغائر الحياة، رأت الكونتيسةـ حسب تغير نبرات صوت الكونتـ أنه لن تكون ثمة حماية لبقائها في المخدع. هذه العراقيل كانت بسبب يوچين.

وأبدت الكونتيسة للطالب الحنق، وإيماءة مفعمة بالغيظ إلى مكسيم، الذي قال بسخرية للكونت وزوجته ويوچين: أصغوا! أنتم في شؤونكم، ولا أريد إزعاجكم، وداعًا! وانصرف.

ـ ابقَ يا مكسيم، ابقَ، هتف الكونت.

ـ ننتظرك على العشاء، قالت الكونتيسة التي تركت يوچين والكونت مرةً ثانية، وتبعت مكسيم خلال الصالون الأول حيث بقيا معًا وقتًا يكفي للاعتقاد بأن السيد دو رستو أمكنه أن يصرف يوچين.

كان راستنياك يسمعهما ـ بالتناوب ـ ينفجران مقهقهين، يتحادثان، يسكتان؛ لكن الطالب الخبيث كان يتحدث ببراعة مع السيد دو رستو، كان يمتدحه، أو يتبحر به في النقاشات، ليعاود رؤية الكونتيسة، ويعرف كُنه علاقتها بالأب جوريو. تلك المرأة، المحبة لمكسيم دون جدال. تلك المرأة، المتعالية على زوجها، والمرتبطة في السر بصانع الشعرية العجوز، كانت تبدو له كلغز كامل. وكان يريد ولوج هذا اللغز، على أمل أن يتمكن بذلك من السيطرة على مقاليد هذه المرأة، الباريسية حد الكمال!

ـ أنستازي، أعاد الكونت النداءَ على زوجته.

ـ هيا، يا مكسيم المسكين، وجهت حديثها إلى الشاب، علينا أن نُسلم بالأمر الواقع، إلى اللقاء مساء اليوم...

ـ أتعشم يا *نازي*! همس لها في أذنها، أن تمنعي هذا الرجل الصغير الذي كانت عيناه تتوهجان كقطعتي فحم كلما انفرج قميصك. أخشى أن يحدثك عن عاطفته، فيعرضك للخطر، فتجبرينني على قتله.

ـ أجننت، يا مكسيم؟ قالت. فهؤلاء الطلاب الصغار، أليسوا ـ على العكس ـ وقاية ممتازة لنا؟ إنني سأوغر بالتأكيد صدر روستو عليه.

انفجر مكسيم ضاحكًا، وخرج تتبعه الكونتيسة التي توقفت لدى النافذة تتطلع إليه وهو يركب عربته، ويغمز حصانه، ملوحًا بكرباجه. ولم تعد إلا بعد أن تم إغلاق البوابة الكبرى.

ـ فلتعلمي، إذن، يا عزيزتي، صاح بها الكونت عندما عادت، أن الأرض التي تقيم عليها أسرة السيد ليست بعيدة عن فرتوي، في الغرب. وعمه الأكبر وجدِّي الأكبر كان يعرف أحدهما الآخر.

ـ يسعدني أن نكون في بلاد التعارف، قالت الكونتيسة، شاردة البال.

ـ أكثر مما تظنين، غمغم يوچين بصوت خفيض.

ـ كيف؟ تساءلت بحيوية.

ـ ولكني، أكمل الطالب، رأيت لتوي رجلاً يخرج من عندكم، يقيم في نفس البنسيون الذي أقيم فيه، الباب في الباب، يُدعى الأب جوريو..

وما إن ذكر الاسم الذي تسبقه كلمة "أب" حتى ألقى الكونت ـ الذي كان يحرك الجمر ـ بالبنساة في النار، كأنها لسعت أصابعه، وانتفض واقفًا:

ـ سيدي، كان بإمكانك أن تقول "السيد جوريو"، صاح به.

شحبت الكونتيسة أولاً، إذ رأت نفاد صبر زوجها، ثم احمرَّت وبدا عليها الارتباك الواضح؛ وردت بصوت أرادته أن يبدو طبيعيًّا، وبوجهٍ منشرح ظاهريًّا:

ـ من المستحيل أن نعرف شخصًا نحبه أكثر منه..، توقفت ونظرت إلى البيانو، كأنما قد استيقظت داخلها بعض الفنتازيات، وتساءلت: هل تحب الموسيقى يا سيدي؟

ـ كثيرًا، أجاب يوچين الذي تورد وجهه وتجمد بفعل فكرة مشوشة

بأنه ارتكب حماقة ثقيلة.

ـ وهل تغنِّي؟ صاحت وهي في طريقها إلى البيانو الذي هجمت بحيوية على مفاتيحه دفعة واحدة من الـ"دو" السفلي حتى الـ"فا" الأعلى. رررررررراه!

ـ لا، يا سيدتي!

كان الكونت يذرع الحجرة طولاً وعرضًا.

ـ خسارة! فأنت محرومٌ إذن من وسيلة نجاح كبرى. سا-آ-رو، سا-آ-رو، سا-آ-آ-آ-رو، نو دي-بي-تا-ري. غنت الكونتيسة.

بنطقه باسم الأب جوريو، كان يوچين قد وجه ضربة عصا سحرية، إلا أن تأثيرها كان معكوسًا بالنسبة لمن وجهت إليه الكلمات: قريب السيدة بوزيان. لقد وجد نفسه في موقف رجل حظي بالتقديم المتحمس إلى عاشق للنوادر، فلمس دون قصد منه خزانة مليئة بالوجوه المنحوتة، فأوقع ثلاثة أو أربعة رؤوس لم تكن مثبتةً جيدًا، فتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه. بدا وجه السيدة دو رستو جافًا، باردًا، أما عيناها اللامباليتان فكانتا تهربان من عيني الطالب المزعج.

ـ سيدتي، قال، ربما تريدين التحدث مع السيد دو رستو. فتقبلي إذن تحياتي وتقديري واسمحي لي...

ـ كل المرات التي تزمع أن تزورنا فيها، تنطقها بسرعة وهي توقف يوچين بإيماءة، عليك أن تكون على يقين من أننا، الكونت دو رستو وأنا، سنكون في بالغ السعادة بوجودك.

حياهما يوچين من بعمق، وخرج يتبعه السيد دو رستو، الذي صمم أن يرافقه حتى غرفة الانتظار.

ـ إذا جاء هذا السيد في أي يوم، نبه الكونت موريس، فإننا لن نكون موجودين بالدار! لا السيدة ولا أنا.

عندما وضع يوچين قدمه على المدخل، لاحظ أنها كانت تمطر. "ها إني قد أتيت لأرتكب بلاهات لا أعرف لها سببًا ولا معنًى، وفضلاً عن ذلك سأتلفُ ثوبي وقبعتي. كان عليَّ أن أتقوقع منهمكًا في دراسة القانون فلا أفكر إلا في أن أغدو قاضيًا مهابًا. فهل يمكنني ولوج هذا المجتمع، التي يتطلب التحقق فيها عددًا من عربات "الكابريوليه" والأحذية اللامعة، والعتاد الضروري، وسلاسل الذهب، وقفازات للنهار من جلود الأيائل، بيضاء اللون، تكلف ستة فرنكات، وأخرى للّيل صفراء اللون؟ أيها الأب جوريو العجوز الهزأة، اغرب عن وجهي!

عندما كان عند الباب الخارجي، كان ثمة سائقُ عربة أجرة- آتيًا على الأرجح من موكب عروسين، وهو لن يطلب أكثر من أن يغالط سيده صاحب السيارة في مشاوير غير محسوبة- أشار ليوچين إذ رآه بلا مظلة، في بزته السوداء، والصدرية البيضاء، والقفازين الصفراوين، والحذاء اللامع. كان يوچين واقعًا تحت سطوة غضب أصم يدفع به أكثر فأكثر باتجاه القفز في الهاوية التي دخَلَها، على أمل أن يجد فيها مخرجًا مما هو فيه؛ قَبِل بحركة من رأسه دعوة السائق. بدون أن يكون في جيبه سوى اثنين وعشرين فلسًا، صعد إلى السيارة حيث تناثرت بعض زهور البرتقال، وأعواد القش المذهبة لتشهد على تواجد العروسين قبله.

ـ إلى أين يمضي سيدي؟ سأله السائق الذي كان قد نزع قفازيه الأبيضين.

ـ قسمًا، قال يوچين لنفسه، طالما أنني مغروز، فلابد أن يوصلني

ذلك إلى شيء ما، على الأقل! هيا إلى دار بوزيان، أضاف بصوت عال.

ـ أي دار منهما؟ سأل السائق.

كلمة مهيبة أفحمت يوچين! فهذا الأنيق المستجد لم يكن يعلم أن آل بوزيان لهم داران، ولا يدري كم هو غني بأقاربه الذين لا يعنيهم أمره.

ـ الڤيكونت دو بوزيان، شارع...

ـ جرينيل، قاطعه السائق هازًا رأسه في مقاطعة. فكما تعلم هناك أيضًا دار الكونت والماركيز دو بوزيان بشارع سان دومنيك، أضاف وهو يرفع سلم الصعود.

ـ أعرف ذلك جيدًا، أجاب يوچين بجفاء. العالم أجمع يسخر مني اليوم، إذن، قال وهو يلقي بقبعته على الوسائد الأمامية. هأنذا في هروب قد يكلفني فدية مَلِك. ولكني- على الأقل- سأزور ابنة عمي المزعومة بطريقة أرستقراطية تمامًا. الأب جوريو كلفني حتى الآن- على الأقل- عشرة فرنكات. ذلك الأثيم العجوز! قسمًا! أنني سأقص مغامرتي تلك على السيدة دو بوزيان، ربما يجعلها ذلك تضحك. وسوف تعلم بلا شك سرَّ العلاقات الإجرامية بين هذا الفأر العجوز عديم الذيل وهذه المرأة الجميلة. سيكون أفضل لي أن أرُوق لابنة عمومتي من أن أتصادم مع تلك المرأة الخليعة التي أعطتني انطباعًا بأنها فادحة الثمن. وإذا ما كان اسم الكونتيسة الجميلة له هذه السطوة، فأي ثقل إذن يكون لشخصها؟ فلنتطلع إلى أعلى. وإذا ما كان لأحد أن يتعارك على شيء ما في السماء، فلابد من أن يستهدف الرب.

تلك الكلمات هي الصيغة المختصرة لألف فكرةٍ وفكرةٍ، كان يطفو بينها. استعاد شيئًا من الهدوء والثقة عندما رأى المطر يهطل. قال لنفسه

إنه كان على وشك تبديد قطعتين غاليتين من فئة المئة فلس المتبقية معه، وسيتم استخدامهما بسعادة لحماية ثيابه وحذائه وقبعته. لم يسمع سائقه يصيح بلا حركة صاخبة: "الباب، من فضلكم؟" وإذا ببواب أحمر الثياب المذهبة يفتح باب الدار الذي زمجر فوق محاوره، ورأى راستنياك- وهو في حالة رضا لطيف- عربته تمر تحت الرواق، مستديرةً في الفناء، ثم تتوقف تحت مظلة السُّلم.

قام السائق ذو الرداء الأزرق الفضفاض الموشى بالأحمر بإنزال الدواسة. وهو ينزل من العربة، تناهى إلى سمع يوچين ضحكات مكتومة في باحة الأعمدة. كان ثلاثة أو أربعة خدم يتمازحون ساخرين من تلك العربة السوقية. وللحظة، أضاءت الضحكاتُ للطالب المقارنة بين هذه العربة وأخرى من أفخم العربات الباريسية، مقرونة بزوج من الخيل اليقظة التي توشي الزهورُ آذانَها بينما تلوك مكابحها، وسائق أنيق تنعقد كراڤتته بإحكام، كان يقبض على الرسن كأنه يتوجس من انطلاق الجوادين في الريح. في فناء السيدة دو روستو، بشوسِّي دانتان، كانت عربة "الكابريوليه" الخاصة بالشاب ذي الستة والعشرين ربيعًا. وفي ضاحية سان جرمان كانت العربة الفخيمة للسيد الكبير، التي يتجاوز ثمنها الثلاثين ألف فرنك.

- تُرى مَن هنا؟ تساءل يوچين وقد فهم، وإن جاء الفهم متأخرًا بعض الشيء، أنه كان عليه أن يقابل في باريس أقل القليل من النساء غير المنشغلات، اللواتي لا يقل ثمن غزو إحداهن عن سفك الدماء. "يا للشيطان! لابد أن لابنة عمومتي "مكسيمها" هي الأخرى، ولا شك".

صعد السلم، وهو ميت الروح. عندما ظهر انفتح الباب الزجاجي؛

وجد الخدم متجهمين كحمير يساء معاملتها. الحفلات التي سبق له أن حضرها كانت تُقام في قاعات الاستقبال الكبرى في الطابق الأرضي من دار بوزيان. وإذ لم يكن لديه الوقت، فيما بين الدعوة والحفل ليقوم بزيارة ابنة عمومته، فلم يكن قد دخل إذن بعد إلى قاعات السيدة دو بوزيان؛ وها هو على وشك أن يرى- للمرة الأولى في حياته- عجائبَ الأناقة الشخصية التي تشي بروح وأخلاق امرأة رفيعة المقام. والرصد الأكثر تدقيقًا لصالون السيدة بوزيان كان يقدم له معيار المقارنة.

في تمام الرابعة والنصف، أمكن رؤية الكونتيسة. لم يكن لها أن تستقبل ابن عمومتها قبل خمس دقائق. ويوچين- الذي لم يكن يعرف شيئًا عن المراسيم الباريسية المتنوعة- صعد سلمًا طويلا مزدانًا بالزهور، أبيضَ، ذا سياج مُذهب، وسجاجيد حمراء، لدى السيدة دو بوزيان، التي كان يجهل سيرتها الشفهية، كإحدى المتغيرات التاريخية التي يتحاكون بها همسًا كل مساء في صالونات باريس.

فقد كانت الكونتيسة مرتبطة- منذ ثلاثة أعوام- بأحد أشهر وأغنى النبلاء البرتغاليين، الماركيز داجودا بنتو. كانت إحدى العلاقات البريئة، التي تفتن كثيرًا الاثنين المرتبطين بها، بحيث لا يتحملون أبدًا أي طرف ثالث. وأيضًا، ضرب الڤيكونت دو بوزيان بنفسه المثل للجمهور في احترامه، طوعًا أو كرهًا، لتلك الوحدة غير المتكافئة. أما الأشخاص الذين كانوا- في الأيام الأولى من الصداقة- يأتون لزيارة الكونتيسة في الساعة الثانية، فقد كانوا يجدون عندها الماركيز داجودا بنتو. وكانت السيدة دو بوزيان- إذ تعجز عن إغلاق الباب في وجوههم، لأن ذلك غير لائق- تستقبلهم ببرود تام، وتتأمل بجدية الإفريز، فيفهم كل واحد

كم أن وجوده يزعجها. وعندما عُرف في باريس أن المجيء إلى السيدة دو بوزيان من الساعة الثانية وحتى الرابعة إنما يزعجها، تركوها في وحدتها القصوى. كانت تذهب إلى مسرح "البوفون" أو إلى "الأوبرا" بصحبة السيد دو بوزيان و السيد داجودا بنتو؛ ولكن كرجل يفهم الحياة، كان السيد دو بوزيان يترك دائمًا امرأته والبرتغالي، بعد جلوسهم. كان السيد داجودا يستعد للزواج. وتزوج آنسة من روشفيد. وثمة شخص وحيد- في الوسط الراقي- كان يجهل أمر هذا الزواج، هو السيدة دو بوزيان. بعضٌ من صديقاتها رحن يتحدثن عن ذلك بصورة غامضة، فإذا بها تغرق في الضحك، ظنًّا منها أنهن يُردن النيل من سعادةٍ محسودة. مع ذلك، كانت كروت الدعوة في مرحلة الطباعة. وحتى حين أتى لإبلاغ الكونتيسة بهذا الزواج، فإن البرتغالي الجميل لم يتجرأ على نطق كلمة خيانة. لماذا؟ لأنه ليس هناك- على الأرجح- ما هو أصعب من أن توجه لامرأة إبلاغًا نهائيًّا مشابهًا. فهناك رجال يجدون أنفسهم على راحتهم، وهم في مواجهة خصم يطعنهم في القلب بسيفه، بأكثر مما لو كانوا في مواجهة امرأة- بعد ساعتين من النواح والعتاب- إذا بها تتماوت وتتطلب الملح. في تلك اللحظات إذن كان السيد داجودا بنتو يمشي على الشوك، ويريد الخروج، قائلاً في نفسه إن السيدة دو بوزيان ستعلم بهذا الخبر، وسيكتب إليها، لأن مثل هذا النبأ سيكون بالكتابة أقلّ وطأةً مما لو قيل بالصوت الحي. وعندما أعلن خادم الكونتيسة قدوم يوچين دو راستنياك ارتعش من الفرح المركيز داجودا بنتو؛ وإذ لاحظت ذلك جيِّدا، كانت المرأة المحبة أكثر براعة في اختلاق الشكوك بأكثر من مهارتها في تنويع السرور. وعندما أصبحت على وشك هجرانها، كانت تخمن معنى كل

إيماءة بأسرع مما كان فَرَس ڤرجيل يشتَم الغُبار البعيد الذي يعلن له عن قدوم الرفيق. وأيضًا، فلابد أن السيدة دو بوزيان فوجئت بهذه الرعدة اللاإرادية، الطفيفة، لكن الرهيبة ببساطة.

ولم يكن يوچين يعلم أن المرء عليه ألا يقدم نفسه لدى أيٍّ مَن كان في باريس قبل التعرف- من خلال أصدقاء البيت- على قصة الزوج، وقصة الزوجة أو الأطفال، حتى لا يتم ارتكاب أية حماقة، التي يقال عن مثلها في بولونيا، بصورة تصويرية: "اربط خمسة ثيران في عربتك" لتسحبك- ولا شك- من المأزق الذي تورطتَ فيه. وإذا ما لم يكن ثمة تسمية في فرنسا لمصائب المحادثة هذه، فلأنها تُعتبر- ولا شك- مستحيلة، بفعل النشر الهائل الذي يحدث هنا للنمائم. فبعد أن تورط يوچين لدى السيدة دو رستو، التي لم تكن تترك له الوقت حتى يربط الثيران الخمسة بعربته، فقد كان وحده القادر على أن يستعيد حرفته الأولى كراعي بقر، لدى السيدة دو بوزيان. ولكن إذا ما كان قد ضايق تمامًا السيدة دو رستو والسيد دو تراي، فقد أخرج السيد داجودا- هذه المرة- من مأزق محقق.

- أستودعكم الله، قال البرتغالي متعجلاً الوصول إلى الباب، حين دخل يوچين صالونًا صغيرًا، أنيقًا، بلون رمادي ووردي، حيث كانت الرفاهية لا تتمثل إلا في الأناقة.

- بل سنلتقي هذا المساء، قالت السيدة دو بوزيان، مديرةً رأسها لتلقي نظرةً إلى الماركيز، ألن نذهب إلى مسرح البوفون؟

- لن أتمكن من ذلك، قال وهو يمسك بمقبض الباب.

نهضت السيدة دو بوزيان واستعادته قربها دون أن تعطي أدنى لمحة إلى يوچين الذي ذُهل- متسمرًا- بتلألؤ الثراء الفاحش، وقد اعتقد أن

حكايات "ألف ليلة وليلة" واقعية، ودون أن يدري كيف يداري خجله إزاء هذه المرأة التي لم تلمح وجوده. رفعت الكونتيسة سبابة يدها اليمنى، وبحركة جميلة حددت للماركيز مكانًا في مواجهتها. كان في هذه الحركة من سطوة العاطفة ما جعل يد الماركيز تتراخى عن مقبض الباب، وعاد. شهده يوچين بنظرة لا تخلو من الحسد.

ـ ها هو، قال في نفسه، الرجلُ صاحب العربة الفخيمة! فمَن لي بجيادٍ يقظة، وخدم في زي موحد، وشلالات من ذهب لأحظى بنظرةٍ من امرأة باريسية؟ قضم قلبه شيطان البذخ، واستولت عليه حُمَّى الشراء، أما التعطش إلى الذهب فجفَّف حلقه. كان معه مئةٌ وثلاثون فرنكًا يكمل بها الثلاثة أشهر. وأبوه وأمه وإخوته وأخواته وعمته لا ينفقون جميعهم مئتي فرنك شهريًّا. تلك المقارنة السريعة بين وضعه الحالي وما يتوخى بلوغه دفعته دفعًا إلى الذهول.

ـ لماذا، سألت الكونتيسة وهي تضحك، لماذا لا تستطيع الحضور إلى مسرح الإيطاليين؟

ـ عندي أشغال! فأنا على موعد للعشاء مع سفير انجلترا.

ـ لكنك حتمًا ستخرج من عنده!

عندما يخادع الرجل، فلا شك أنه سيكدس أكذوبةً فوقَ أكذوبة. لذا قال السيد داجودا، وهو يضحك: تحتِّمين ذلك؟

ـ بكل تأكيد.

ـ هو ذا ما كنت أريدك أن تقوليه بلسانك، أجاب وهو يلقي نظرة من نظراته الرقيقة، التي يمكنها طمأنة أية امرأة أخرى. أخذ يد الكونتيسة، قبلها وانصرف.

مشَّط يوجين شَعره بأصابعه وتأود ليحيي السيدة، معتقدًا أنها يمكن أن تفكر فيه؛ لكنها فجأةً انطلقت، وأسرعت في الجاليري، راكضةً نحو الشُّباك تتطلع إلى السيد داجودا وهو يركب عربته؛ أصاخت السمع إلى الأمر الصادر منه، فسمعت الصبي يكرره على السائق: "إلى دار السيد روشفيد". تلك الكلمات، والطريقة التي غاص بها داجودا في عربته، أشعلت البرق والرعد في قلب هذه المرأة التي أصبحت فريسةً لمخاوف قاتلة. فالكوارث الكبرى لا تكون إلا هكذا في المجتمعات الراقية. عادت الكونتيسة إلى غرفة نومها، جلست إلى منضدة، تناولت ورقة جميلة...

"*في هذه اللحظة، حيث تتعشَّى لدى "آل روشفيد"، لا في السفارة البريطانية، فإنك مدينٌ لي بتفسير، أنتظره منك*".

بعد أن خطَّت الكثير من الحروف المضطربة، بفعل ارتعاش يدها التشنجي، كتبت حرف "ك" الذي كان يعني "كلير دو بورونيا" كتوقيع، ثم رنت الجرس.

ـ جاك! نادت الخادم، فظهر سريعًا، ستذهب في الساعة السابعة والنصف إلى السيد دو روشفيد، وتسأل عن الماركيز داجودا. فإذا ما كان هناك سلمه هذه البطاقة دون انتظار رده؛ وإذا لم تجده عُد، وأعدها إليّ.

ـ سيدتي لديها شخص ينتظر في الصالون.

ـ آه! حقًّا! قالت، وهي تدفع الباب.

كان يوجين قد بدأ يتململ، وأخيرًا وجد الكونتيسة تقول له بلهجة تحرك أوتارَ القلب: "معذرةً، سيدي، كنت مشغولة بكتابة رسالة، والآن أنا رهن إشارتك". لم تكن واعيةً بما تقول، لأن ذلك ما كان يدور في خلدها: "آه! إنه يود الزواج من الآنسة دو روشفيد. ولكن أهو حر،

في ذلك؟ هذا المساء سينسحق ذلك الزواج أو أنني.. لن يستمر إلى الغد".

ـ ابنة العم، أجاب يوچين.

ـ ها؟ وحدجته بنظرة جعلته وقاحتها يتجمد كلوح ثلج.

فهم يوچين هذه الـ"ها". وكم من أشياءَ تعلمها خلال ثلاث ساعات، وهو في غاية الانتباه.

ـ سيدتي، استأنف وقد احمر وجهه. تردد، ثم قال مستكملاً: سامحيني؛ فأنا في أشد الحاجة إلى حماية أقرباء لا تنبتُ الصلة بهم.

ابتسمت السيدة دو رستو لكن بحزن؛ كانت تحس الآن بالشقاء الذي كان يعصف بداخلها.

ـ إذا ما علمتِ بحال أسرتي، واصل، لأحببتِ أن تلعبي دور إحدى الجنيات الخرافية التي تحب إزالة العقبات التي تعرقل أبناءها بالمعمودية.

ـ حسنًا، يا ابن العمومة، ضحكت، ما الذي أستطيع تقديمه لك؟

ـ وهل أعلم؟ إن صلة القربى بكم، مهما كانت مغمورةً بالظلال، لهي ثروة طائلة. لقد أربكتني، فلم أعد أدري ما كان لي أن أقوله. إنكِ الشخص الوحيد الذي أعرفه في باريس. آه. كنت أود استشارتكِ بأن أطلب منكِ أن تقبليني كطفل بائس يرغب في التعلق بردائك، وأن أموت في سبيلك.

ـ هل تقتل أحدًا لأجلي؟

ـ بل أقتل اثنين، إن شئتِ.

ـ طفل! حقًا أنت طفل، أجابت وهي تقهر بعض الدموع، هل ستحب بإخلاص! أنت!

ـ أوه! قال هازًّا رأسه.

أعجبت الكونتيسة بإجابة الطالب، الطموحة. كان الجنوبي ما يزال في الخطوة الأولى. وبين مخدع السيدة دو رستو الأزرق، وصالون السيدة بوزيان الوردي، تعلّم لثلاث سنوات ذلك *القانون الباريسي* التي لا يتم الحديث عنه، رغم أنه يشكل قضاءً اجتماعيًّا أعلى، معلومًا وتتم ممارسته، ويؤدي إلى كل شيء.

ـ آه! نعم، قال يوچين. لقد لاحظتُ السيدة دو رستو في حفلكم الراقص، وذهبت إليها هذا الصباح.

ـ لابد أنك أزعجتها، قالت وهي تبتسم.

ـ آه! هذا حق، فأنا الجهول الذي أكدسُ العالم ضدي، إذا رفضتِ أن تنجديني. فأعتقد أنه من الصعب أن يجد المرء، في باريس، امرأةً شابة، جميلة، ثرية، أنيقة، وغير مشغولة؛ وأنا في أمس الحاجة إلى واحدةٍ تعلمني ما تعرفنه أنتن تمام المعرفة: الحياة! ففي كل مكان، أجد شبيهًا بالسيد دو تراي؛ لذا أجيء إليك لتعطيني كلمة المرور، وأستحلفك أن توضحي لي طبيعة الحماقة التي ارتكبتها هناك. لقد تحدثت هناك عن الأب...

ـ السيدة الدوقة "دو لنجيه"، قال الوصيف جاك، مقاطعًا كلام الطالب الذي أبدى امتعاضه بعنف.

ـ إذا أردتَ أن تنجح، همست الكونتيسة، فلا تكن صريحًا واضحًا هكذا.

ـ آه! صباح الخير، يا عزيزتي، قالت وهي تنهض للقاء الدوقة التي صافحتها بفيض من العذوبة التي تليق بأُخت، فردت عليها الدوقة بما هو أجمل وأرق.

ـ يا لهما من صديقتين حميمتين! ؛ فكر راستنياك. سيكون لي من الآن راعيتان لي ؛ فلابد أن لكلتيهما نفس المشاعر ؛ وستهتم تلك الثانية أيضًا بي ، ولا شك.

ـ أية فكرة سعيدة منحتني بهجة أن أراكِ ، يا عزيزتي أنطوانيت؟ قالت السيدة دو بوزيان.

ـ لقد رأيت السيد "داجودا بنتو" يدخل قصر السيد "دو روشفيد" ، ففكرت أنك إذن وحدك الآن.

لم تزُمَّ السيدة دو بوزيان شفتيها ، ولم تحمر خجلا ، وظلت نظرتها كما هي ، وبدا جبينها ناصعًا ، فيما كانت الدوقة تنطق بأقوالها القاتلة!

ـ ولو كنت أعلم أنكِ مشغولة ، قالت الدوقة ، وهي تستدير إلى يوچين..

ـ هذا السيد هو السيد يوچين دو راستنياك ، أحد أبناء عمومتي ، قالت الكونتيسة. هل لديكِ أخبار عن الجنرال مونتريڤو؟ أخبرتني سيرسي أمس أن أحدًا لم يعد يراه. فهل كان عندكِ اليوم؟

وإذا بالدوقة ـ التي يبدو أن السيد دو مونتريڤو قد هجرها ، والذي كانت مشغوفة بحبه ـ تشعر أن قلبها طُعِنَ بهذا السؤال ، فاحمر وجهها وهي تجيب: لقد ذهب بالأمس إلى الإليزيه.

ـ ليمارس شؤون وظيفته؟ سألت السيدة دو بوزيان.

ـ كلارا! تعرفين بلا شك ، قالت الدوقة وهي تلقي بأمواج الخبث من نظراتها ، أن غدًا سيتم إشهار زواج السيد "داجودا" والآنسة "دو روشفيد"؟

كانت هذه الضربة بالغة العنف ، فشحب وجه الكونتيسة ، وأجابت

ضاحكة: هي إحدى الترّهات التي يتسلى بها الأغبياء. لماذا يحمل السيد "داجودا" إلى "آل روشفيد" واحدًا من أكثر أسماء البرتغال جمالاً؟ فآل روشفيد أناسٌ نالوا النبالة بالأمس فقط.

ـ لكن "بيرت"ـ كما يُقالـ ستعود عليه بمئتي ألف جنيه، سنويًّا.

ـ السيد "داجودا" أكثر ثراءً من أن يقوم بمثل تلك الحسابات الضيقة.

ـ ولكن، يا عزيزتي، فالآنسة "دو روشفيد" فاتنة.

ـ آه!

ـ وأخيرًا، فهو يتناول عشاءه عندهم هذا المساء، وكل شيء تحدد. وإن كنتِ تدهشينني بغرابة بأن معرفتك محدودة للغاية بالموضوع.

ـ أية حماقة ارتكبتها، إذن، أيها السيد؟ قالت السيدة دو بوزيان. هذا الطفل المسكين حديث عهد بالتواجد في مجتمعنا، ولا يفهم شيئًا مما نخوض فيه، يا عزيزتي أنطوانيت. فلتكوني طيبةً من أجله، ولنكمل محادثتنا عن ذلك في الغد. غدًا، سترين، وسيكون كل شيء رسميًّا بالتأكيد.

ألقت الدوقة على يوچين إحدى نظراتها الوقحة، فغطته بها من الرأس حتى القدم، محقته ووضعته في الحالة صفر.

ـ سيدتي! لقد غرستُـ عن جهلـ خنجرًا في قلب السيدة دو رستو. عن جهلٍ مني، تلك غلطتي؛ قال الطالب الذي تفاعلت فطنته جيدًا، واكتشف لواذع السخرية المتخفية تحت سطح العبارات الودودة لهاتين السيدتين. "إنك ما تزالين تستقبلين، وربما تخشين، أولئك الذين هُم سر الأذى الذي يؤذونك به، فيما مَن يجرح دون أن يكون واعيًا بمدى عمق ما يسببه لكِ، فيُنظر إليه على أنه أحمق، أخرق لا يجيد الإفادة من شيء،

والجميع يحتقرونه!"

حدجت الكونتيسة الطالب بنظرة فاحصة من تلك النظرات التي تعرف النفوس العظيمة كيف تفعمها بالعرفان، وأيضًا بالكرامة. نظرةٌ كالبلسم، تهدئ جرح قلب الطالب، الذي كانت سببًا فيه تلك النظرة الساحقة الماحقة التي حددت بها الدوقة قيمته.

- تخيلي، واصل يوچين، أنني استملت عطف الكونت دو رستو، وأدار وجهه باتجاه الكونتيسة ليقول بلهجة متواضعة ومداهنة في آن، لأنني- لابد أن أخبرك يا سيدتي- ما أزال طالبًا فقيرًا، شريرًا، وحيدًا تمامًا، فقيرًا تمامًا...

- لا تقل هذا، سيد دو راستنياك؛ فنحن النساء لا نرغب أبدًا في شخص لا يرغب فيه أحد.

- حسنًا! فعمري لا يتعدى الثانية والعشرين، وعليَّ أن أعرف كيف أتحمل تعاسات هذه السن. ومن ناحية أخرى، فها أنذا الآن أعترف؛ ومن المستحيل أن أركع على ركبتيَّ في اعتراف أجمل: فالخطايا يتم ارتكابها ويُتهم بها آخرون.

اتخذت الدوقة سيماء باردة إزاء هذا الخطاب المضاد للدين، الذي أوقفت ذوقه الرديء، وقالت للكونتيسة: هل وصل السيد مؤخرًا؟

انطلقت السيدة دو بوزيان تضحك من ابن عمومتها ومن الدوقة.

- لقد وصل، يا عزيزتي، ويبحث عن معهد يلقنه الذوق الرفيع.

- سيدتي الدوقة، قال يوچين، أليس طبيعيًا أن نرغب في تلقي أسرار من يفتنوننا؟ (هيا، قال لنفسه، أنا على يقين أن لغتي بالغة الرهافة).

- ولكن السيدة دو رستو هي تلميذة السيد دو تراي على ما أظن،

قالت الدوقة.

ـ لا أدري شيئًا عن ذلك، يا سيدتي، قال الطالب. وقد أقحمتُ نفسي بينهم بطيش. وأخيرًا، وصلت لتقارب مع الزوج، وعانيت لبعض الوقت مع الزوجة حين تجرأت وقلت لهما إنني أعرف رجلاً رأيته يخرج من سُلَّم خلفي خفي، وكان يقبل الكونتيسة في نهاية الرواق.

ـ من هو؟ تساءلت المرأتان.

ـ رجل عجوز يعيش بتعقل على "لويزتين" في الشهر، في عمق ضاحية "فوبورسان مارسو" مثلي، أنا الطالب المسكين؛ شخصٌ تعيسٌ حقًا، يتندر عليه الجميع، ونطلق عليه الأب جوريو.

ـ ولكن، أي طفل أنت، صاحت الكونتيسة، إن السيدة دو رستو هي ابنة جوريو.

ـ هي ابنة صانع الشعرية، قالت الدوقة، امرأة صغيرة سبق تقديمها في نفس اليوم كابنة حلواني. ألا تذكرينها، يا كلارا؟ وبدأ الملك يضحك، وقال باللاتينية نكتةً عن "الدقيق". أناس، ماذا كانت إذن، أناس..

ـ *من نفس "الطحين"* قال يوچين.

ـ هذه هي الكلمة فعلاً، قالت الدوقة.

ـ آه! إنه والدها، إذن، قال الطالب وهو يقوم بإشارة فزع.

ـ أجل، هذا الرجل الطيب له ابنتان، مجنون تقريبًا بحبهما، ومع ذلك جحدته كلتاهما، وأنكرتاه إنكارًا.

ـ الثانية، قالت الكونتيسة وهي تنظر إلى السيدة "دو لانجيه"، أليست متزوجة من أحد رجال البنوك، له اسم ألماني، البارون نوسنجن؟ ألا

تُدعَى دلفين؟ أليست تلك الشقراء، التي تمتلك مقصورة إلى جانب الأوبرا، وتأتي أيضًا إلى مسرح "البوفون"، وترسل قهقهاتها عالية لتلفت الانتباه؟

ابتسمت الدوقة قائلة: لكني معجبةٌ بك، يا عزيزتي. لكني أتساءل لماذا تنشغلين بمثل هؤلاء الناس؟ لابد أن يكون المرء عاشقًا مجنونًا- كرُوستو- ليتعفَّر بدقيق الآنسة أنستازي. أوه! فلن يكون التاجر الناجح! فهي بين يدي السيد دو تراي الذي سيفقدها.

- لقد أنكرتا أباهما! ظل يرددها يوچين.

- آه حقًا! بالفعل، أبوهما، الأب، أب، رددت الكونتيسة، رجلٌ طيبٌ أعطى كلاً منهما- كما يُقال- خمسمئة أو ستمئة ألف فرنك لتحقق السعادة بزواج هنيء، ولم يُبق لنفسه سوى ثمانية إلى عشرة آلاف جنيه سنويًا، معتقدًا أن ابنتيه ستظلان ابنتيه، وأنه قد أسس لنفسه- لدى كل منهما- وجودًا له، قصرين سيكون محبوبًا فيهما ومدللاً. ولم يمرُّ عامان حتى طرده صهراه من مجتمعهما كآخر البؤساء!

أشرقت عينا يوچين بالدموع، فما يزال حديث عهد بتلك العواطف الصافية القدسية للأسرة، وما يزال تحت سطوة سحر إيمانه الفتي، الذي لم يكن سوى في يومه الأول من ساحة معارك الحضارة الباريسية. أما العواطف الحقيقية، فكانت ساريةً بينهم، حتى إن هؤلاء الثلاثة راحوا يتطلعون في صمت.

- أوه! يا إلهي، قالت السيدة "دو لنجيه"، أجل، يبدو ذلك الأمر فظيعًا، ورغم ذلك فهو يتكرر أمام أعيننا كل يوم. أليس له سبب؟ أخبريني، عزيزتي، هل فكرتِ يومًا في معنى كلمة "صهر"؟ الصهر هو

رجل نربي من أجله، أنتِ وأنا، مخلوقة صغيرة، أثيرة، نرتبط بها بألف رابط، وستكون- حتى سنتها السابعة عشرة- بهجة العائلة، بل روحها البيضاء، على حد تعبير "لامارتين"*، والتي سوف تتحول إلى طاعون. فبعد أن يتملكها هذا الرجل، فإنه سيبدأ بأن يُشرع حُبه كبَلطَة، ليقطع في قلبها، وفي توقد ذلك المَلاك، كل عاطفة كانت تربطها بعائلتها. فبالأمس، كانت ابنتنا كلها لنا، وكنا بكليتنا لها؛ وفي اليوم التالي تصبح عدوتنا. ألا تتكرر أمام أعيننا هذه المأساة كل يوم؟ وهنا، إذا بزوجة الابن هذه تتسافل هنا على والد زوجها الذي ضحى بكل شيء من أجل ابنه. وبعيدًا بعض الشيء، نجد صهرًا يلقي أم زوجته إلى الشارع. أقصد أن ثمة دراما موجودة في مجتمعنا هذه الأيام؛ لكن مأساة الأصهار فظيعة دون النظر إلى زيجاتنا التي تتحول إلى أعاجيب. وأرصد تمامًا ما جرى لذاك العجوز صانع الشعرية. أظنني أتذكر أن هذا ال"فوريو"...

- جوريو، سيدتي.

- أجل، هذا "الموريو" كان رئيس قسم إبان الثورة؛ كان في خضم أسرار المجاعة الشهيرة تلك، وبدأ يكوِّن ثروته في ذلك الزمن من بيع الدقيق بعشرة أضعاف سعره الحقيقي. وحصل من ذلك على أكثر مما يريد. وقد باعه مدير أعمال جدتي من الدقيق بأموال طائلة. ولا شك أن

---

* هو الشاعر الفرنسي الفونس دي لامارتين Alphonse Marie Louise Prat de **Lamartine** (1790- 1869): كاتب وشاعر وسياسي فرنسي. من أهم أعماله "تأملات شعرية" (1820)، "تناغمات شعرية ودينية" (1830)، "حول السياسة العقلانية" (1831)، "رحلة إلى الشرق" (1835)، "جوسلين" (1836)، "سقوط ملاك" (1838)، "جينيفيف، قصة خادمة" (1851)، "الرؤى" (1853)؛ (المحرر).

هذا "الجوريو" قد قام، مثله مثل أمثاله من هؤلاء الناس، بالقسمة مع "لجنة السلامة العامة". وأذكر أن هذا المدير كان قد قال لجدتي إن بإمكانها أن تبقى مطمئنة البال تمامًا في "جراندڤيل"، لأن قمحها كان ورقة "مواطَنة" ممتازة. عجبًا! فهذا الـ"لوريو"ـ الذي كان يبيع القمح لقاطعي الرؤوس- لم يكن له سوى حُب وحيد. كان يحب- كما يُقال- ابنتيه. وقد دفع بالكبرى إلى دار دو رستو وطعَّم الثانية بالبارون "دو نوسنجن"، وهو رجل بنوك ثري تحول إلى مَلَكي. وأنتِ تفهمين جيدًا أن هذين الصهرين- تحت حكم الإمبراطور- لم يكونا شديدي الحنق من عيش هذا العجوز لديهما؛ وهو ما كان ممكنًا أيضًا في عهد بونابرت. ولكن عندما عاد "البوربون" إلى الحكم، صار الرجل الطيب عبئًا على السيد دو رستو وأيضًا على رجل البنوك. أما البنتان، اللتان ربما كانتا تكنَّان الحب لوالدهما، فقد أرادتا أن تضعا معًا العنزة والكرنبة، الأب والزوج؛ كانتا تستقبلان الجوريو عندما لا يكون لديهما أحد، مختلقتين ذرائع حانية: "تعال، يا بابا، فسنكون سعداء، فنحن وحدنا! الخ".. أما أنا، فأظن- يا عزيزتي- أن المشاعر الحقيقية لها أعينها وفطنتها: فقلب ابن الثلاثة وتسعين البائس هذا، نزف آنذاك. لقد رأى أن ابنتيه تخجلان منه؛ وأنه إذا ما كانت كل منهما تحب زوجها، فإنه سيسيء إلى صهريه. إذن، فالتضحية واجبة. وقام بالتضحية، لأنه أب؛ وقام بعزل نفسه من تلقاء نفسه. وإذ رأى ابنتيه مسرورتين، أدرك أنه فعل الصواب. وكان الأب وابنتاه ضالعين في هذه الجريمة الصغيرة. ونرى هذا في كل مكان. ألم يكن هذا الـ"دوريو" لطخة شحم أسود في صالونَيْ ابنتيه؟ كان مدعاةً للضيق، وكان سيشعر بالغم. وما حدث لهذا الأب يمكن أن يحدث

لأجمل امرأة مع رجل أحبها كل الحب، إذا ما أضجرته بحبها فسيذهب، وسيرتكب النذالات من أجل الهرب. وكل المشاعر هكذا. فقلبنا كنز، قومي بإخلائه فجأةً، فستتحطمين أنتِ. ونحن لا نغفر لعاطفةٍ أن تتجلى تمامًا بأكثر مما نغفر لرجل لم يعد في جيبه فلس. لقد أعطى هذا الأب كل ما لديه. أعطى- خلال عشرين عامًا- أحشاءه، وحبه؛ أعطى في يوم واحد كلَّ ثروته. لقد تم اعتصار الليمونة تمامًا، ورمت البنتان بالقشرة إلى قارعة الطريق.

- العالمُ مقزز، قالت الكونتيسة، وهي تُنسِّل خيوط شالها، ودون أن ترفع عينيها، فقد أصابتها حمأة الكلمات التي صوبتها إليها السيدة "دو لانجيه" وهي تحكي تلك القصة.

- مقزز؟ لا، فهذا مضمارُهُ الطبيعي. وإذا ما كنت قد ذكرت لكِ ذلك، فلكي أريكِ أني لستُ مخدوعة بهذا العالم؛ فأنا أفكر مثلكِ تمامًا، قالت وهي تضغط على يد الكونتيسة. فالعالم مستنقع، فلنجهد أن نبقى في الأعالي. نهضت، وقبلت السيدة "بوزيان" في جبينها قائلة: "كم أنتِ جميلة الآن، يا عزيزتي. ولديك أجمل الألوان التي رأيتها في حياتي. ثم خرجت بعد أن أومأت برأسها إيماءة خفيفة وهي تنظر إلى ابن العم.

- الأب جوريو رجل عظيم، قال يوجين وقد تذكره لحظة كان يبرم آنيته الفضية في الليل.

لم تسمعه السيدة دو بوزيان، فقد كانت مشغولة الخاطر. مرت لحظات صمت. والطالب المسكين- تحت تأثير خَدَر مخجل- لا يجرؤ على الانصراف، ولا على البقاء، ولا حتى على الكلام.

- العالم مقزز وشرير، أخيرًا نطقت الكونتيسة، وما إن تقع لنا مصيبة

حتى يتصادف أن يأتي صديقٌ ما ليخبرنا بها، فينبش القلب بخنجر طالبًا منا أن نُعجب بمقبضه. ذاك هو التهكم. تلك هي السخرية. آه! أما أنا فسأدافع عن نفسي. شمخت برأسها كالمرأة العظيمة التي كانتها، وانبعثت ومضاتٌ من عينيها المتحديتين. آه! وهي ترى يوچين. أنت هنا!

ـ ما أزال، قالها بمسكنة.

ـ حسنًا، سيد دو راستنياك فلتعامل هذا العالم كما يستحق أن يُعامل. أنت طامحٌ للوصول، وسأساعدك. أنت تسبر غور فساد النساء، وتقيس مدى الخيلاء البائس للرجال. ورغم أنني قرأت جيدًا كتابَ العالم هذا، فقد كانت هناك صفحات منه ما تزال مجهولة لي. الآن عرفتها. فبقدر ما تكون باردًا بقدر ما ستصل بعيدًا. اضرب بلا شفقة، وستصير مرهوب الجانب. لا تقبل برجال ونساء يشبهون أحصنة البريد التي تبدلها عند كل محطة، وستصل بذلك إلى تحقيق رغباتك. وكما ترى، فلن تكون هنا شيئًا ما إن لم يكن لديك امرأة تهتم بك. ولابد أن تكون شابة، غنية، أنيقة. ولكن إذا كانت لديك عاطفة حقيقية، فعليك بإخفائها كأنها كنز؛ لا تدعها أبدًا موضع شك، وإلا فستضيع. لن تكون أبدًا الجلاد، بل ستكون الضحية. وإذا ما أحببت يومًا، فاحتفظ بالسر جيدًا! لا تبُح به إلا بعد أن تعرف جيدًا لمن تفتح قلبك. ولكي تحتفظ مقدمًا بهذا الحب الذي لم يتحقق بعد، فلتتعلم الحذر من هذا العالم. أنصت إليّ يا ميجل.. (أخطأت في الاسم ببلاهة دون أن تنتبه لذلك). ثمة ما هو أفظع من هجر الابنتين لأبيهما، إلى أن تتمنيا له الموت. إنه المنافسة بين الأختين. "روستو" كريم الأصل منذ مولده، أما زوجته فمتبناة، وتم تقديمها إلى القصر؛ أما أختها، أختها الثرية، السيدة الجميلة "دلفين دو نوسنجن"

فامرأة رجلٍ من ذوي الغنى، تموت كمدًا؛ تلتهمها الغيرة، وهي على مسافة مئة فرسخ من أختها؛ وأختها ليست أختها؛ فهما امرأتان تتجاحدان فيما بينهما كما تجحدان أباهما. وهكذا، فالسيدة دو نوسنجن مستعدة أن تلعق الطين فيما بين شارعي سان-لازار وجرينيل لتدخل صالوني. وقد اعتقدت أن "دو مارسي" يمكن أن يحقق لها ذلك الهدف، وجعلت نفسَها عبدةً له، حتى أرهقته. ولا يبالي "دو مارسي" كثيرًا بها. فإذا ما قدمتها أنت لي، فستغدو "بنيامينها"! وسوف تعبدك. ولتحبها فيما بعد إن استطعت، وإلا فانتفع بخدماتها. سأراها مرةً أو مرتين في السهرات الكبرى، عندما يكون عندي ازدحام شديد، لكني لن أستقبلها أبدًا في الصباح. سأسلّم عليها، وذلك يكفي. لقد أغلقت باب الكونتيسة في وجهك بنطقك اسم الأب جوريو. أجل، يا عزيزي، فستذهب عشرين مرة إلى دار السيدة دو رستو، وسيقال لك إنها غير موجودة. فأنت محظور. آه حسنًا! فليكن الأب جوريو مَن يقدمك إلى السيدة دلفين دو نوسنجن. وستكون السيدة دو نوسنجن الجميلة مجرد لافتة. ولتكن الرجل المميز لديها، والنساء سيفتتنَّ بك. ومنافساتها، صديقاتها، أعز صديقاتها سيتمنين انتزاعك منها. فثمة نساء يحببن الرجل الذي اختارته امرأة أخرى، كما توجد برجوازيات بائسات يأملن- متى وضعن قبعات كقبعاتنا- أن يصرن مثلنا. ستحقق نجاحات. وفي باريس، النجاح هو كل شيء. وهو مفتاح السلطة. وإذا ما وجدتك النساء ذا عقل، ذا موهبة، فسيصدق الرجال ذلك، إن لم تقم أنت بنكرانها. يمكنك إذن أن ترغب في أي شيء، وستجد قدمك تحملك إلى حيث يوجد. حينئذٍ، ستعرف ما هو العالم، اتحاد للمغفلين والنصابين. فلا

تكن من هؤلاء ولا من أولئك. وسأعطيك اسمي كخيط "أريان"* لتدخل هذه المتاهة. فلا تجازف به. قالت، وهي تحني رقبتها، وترمي الطالب بنظرة ملكية، فلتُعده لي ناصع البياض. هيا، اتركني الآن. فلنا- نحن أيضًا معشر النساء- معاركنا التي نخوضها.

- هل يلزمكِ رجلٌ ذو إرادة لإضرام النار في منجم؟ قاطعها يوچين.

- حقًّا؟ قالت.

ضرب يوچين بيده على صدره، وابتسم لابتسامة ابنة عمومته، وخرج.

كانت الساعة الخامسة. كان يوچين جائعًا، وخشي ألا يصل في وقت العشاء إلى البنسيون. هذه الخشية جعلته يستشعر السعادة بأنه اقتحم باريس بهذه السرعة. هذا السرور الجسدي الخالص أسلمه تمامًا للأفكار التي هاجمته. وعندما يداهم الاحتقار شابًّا في مثل سنه، فإنه يستشيط، ويحنق، بل يلوح بقبضته للمجتمع أجمع، يود لو يثأر، ويتشكك أيضًا في قدراته. كان راستنياك في تلك اللحظة مُهانًا بهذه الكلمات: "***لقد أغلقت بنفسك باب الكونتيسة في وجهك***"- سأذهب، قال لنفسه، وإذا ما كانت السيدة "دو بوزيان" على صواب، إذا ما كنتُ بالفعل محظورًا.. فأنا.. ستجدني السيدة دو رستو في كل صالون تذهب إليه. سأتعلم كيف أستخدم السلاح، وكيف أطلق النار، وسأقتل لها "مكسيمها"!- والمال؟ صاح به ضميره، من أين ستحصل عليه؟ فجأة، التمع أمام عينيه الثراء

* أريان Ariane: ابنة مينوس ملك كريت. و"خيط أريان"- في الأسطورة الإغريقية- هو الخيط الهادي، المرشد، الذي ينجي من شراك المتاهة.

الفاحش لدى الكونتيسة دو رستو. كان قد رأى هناك الرفاهية التي لابد أن إحدى آنسات جوريو عاشقة لها، المذهبات، الأشياء الثمينة التي أوضحها الترف الخاص بمحدثي النعمة، ثم سفه السيدة المصون. تلك الصورة الساحرة تحطمت في التو بتخيل عظمة قصر "دو بزيان". وألهمه خياله- المحلق في الطبقات العليا من المجتمع الباريسي- بألف فكرةٍ رديئة في قلبه، تطلق العنان لرأسه ووعيه. رأى العالم كما هو: القوانين، الأخلاق العاجزة لدى الأثرياء، ووجد في الثروة *المبرر النهائي للعالم**.
"ڤوتران على حق: الثروة هي الفضيلة!" قال لنفسه.

وصل إلى شارع "نيف-سانت-جانڤياڤ". صعد مهرولاً إلى غرفته، ونزل ليعطي السائق عشر فرنكات، ثم انطلق إلى صالة الطعام المقززة، حيث لمح- كبهائم في معلف- النزلاء الثمانية عشر منهمكين في التهام الطعام. بث الفزع في قلبه مرأى عوالم البؤس تلك، وهيئة هذه الصالة. كان الانتقال فجائيًا، والتناقض كان كاملاً، حتى لا يتطور لديه- فوق الحد- إحساس الطموح. فمن جهةٍ، هناك الصور الندية والساحرة للطبيعة الاجتماعية الأكثر أناقة، ووجوه شابة نابضة بالحيوية، مؤطرة بروائع الفن والأبهة، ورؤوس مشبوبة مفعمة بالأشعار؛ ومن الجهة الأخرى، ثمة لوحاتٌ مشئومة ملطخة بالوحل، ووجوهٌ لم تترك فيها العواطف سوى أوتارها ومساراتها. والدروس التي انتزعها الغضب من امرأةٍ مهجورة- هي السيدة دو بوزيان وعروضها الخداعة- عادت إلى ذاكرته، وراح البؤس يفسرها له. قرر راستنياك فتح سبيلين متوازيين

* الجملة مكتوبة في الأصل باللاتينية؛ (المحرر)

للوصول إلى الثراء، بالاستناد على العلم والعشق، أن يكون عالمًا دكتورًا وفي نفس الوقت رجلاً على الموضة. يا له من طفل لا يزال! فهذان الخطان مستقيمان متوازيان لا يمكنهما أبدًا أن يلتقيا.

ـ إنك مغتمٌّ جدًّا، يا سيدي الماركيز، قال له ڤوتران بعد أن ألقى عليه نظرة من تلك اللواتي يبدو أن الرجل يسبر بها أغوار القلوب الأكثر خفاءً

ـ لستُ مستعدًّا لأعاني مداعبات مَن يلقبونني بالسيد الماركيز، أجاب. فهنا، ولكي يكون المرء ماركيزًا حقيقيًّا، فعليه أن يكون لديه دخل سنوي مئة ألف فرنك. وإذا ما كنا مقيمين في دار ڤوكيه، فليس لنا تحديدًا حظ في الثراء.

ألقى ڤوتران على راستنياك نظرة أبوية ومحتقرة، كأنه يقول له: أيها الصبي! لن أجعل منك سوى لقمة سائغة! ثم أجابه: مزاجك معتكر، ربما لأنك لم تنجح في التقرب من الكونتيسة دو رستو.

ـ لقد أغلقت في وجهي بابها، لأنني أخبرتها أن أباها يأكل على مائدتنا، صاح راستنياك.

نظر الضيوف جميعًا بعضهم إلى البعض. أخفض الأب جوريو عينيه واستدار ليمسحهما.

ـ لقد نثرت التبغ في عيني، قال لجاره.

ـ مَن ينكد على الأب جوريو، فإنما يهاجمني أنا، من الآن فصاعدًا. قال يوچين، وهو يرقب جار صانع الشعرية العجوز. إنه أفضل منا جميعًا. وأنا لا أتكلم عن السيدات، قال وهو يستدير باتجاه السيدة تايفيه.

كانت هذه الجملة الختام، نطقها يوچين بطريقة مَن يفرض السكوت

على الجميع. ڤوتران وحده هو مَن نطق ساخرًا: إذا ما كنتَ تريد أن تحمل الأب جوريو على عاتقك، وأن تجعل من نفسك ناشره المسئول، فعليك أن تتعلم الإمساك جيدًا بالسيف، واستخدام المسدس ببراعة!

ـ هذا ما أعتزمه!

ـ إذن، فلقد شاركت اليوم في حرب كبرى!

ـ ربما، أجاب راستنياك، ولكني لستُ ملزمًا بعرض شؤوني على أحد. كما أني لا أسعى لتخمين ما يفعله الآخرون أثناء الليل. ونظر ڤوتران إلى راستنياك نظرة مائلة.

ـ يا صغيري، عندما لا نريد أن ننخدع بالدُّمَى، فعلينا أن ندخل بأكملنا إلى التقفيصة، ولا نكتفي بالنظر من بين ثقوب الستارة. ذلك يكفي! أضاف، وهو يرى يوچين يتميز غيظًا. وسيكون لنا معًا حوار صغير عندما يروقك ذلك.

صار العشاء قاتمًا باردًا. لم يفهم الأب جوريو ـ وقد استغرقه الألم العميق الذي سببته له عبارة الطالب ـ أن أوضاع الموجودين قد تبدلت لصالحه، وأن شابًا فرض السكوت على مضطهديه راح يناصره الآن.

ـ هل السيد جوريو، همست السيدة ڤوكيه، والدٌ لـ"كونتيسة" في هذه الساعة؟

ـ ووالد "بارونة" أيضًا، أجابها راستنياك.

ـ ليس له سوى هذا ليكونه، قال بيانشون لراستنياك، لقد أمسكتُ برأسه: لم أجد سوى حدَبَة، إنها الخاصة بالأبوة، سيكون أبًا *خالدًا*.

كان يوچين بالغ الجدية، فلم تفلح دعابة بيانشون في إضحاكه. كان يريد الاستفادة من نصائح السيدة دو بوزيان، وراح يتساءل من أين،

وكيف سيحصل على المال. أصبح مهمومًا وهو يرى ساقانا العالم التي كانت تنبسط أمام ناظريه خالية وممتلئة في آن، وتركه كل مَن في صالة الطعام وحيدًا بعد انتهاء العشاء.

ـ لقد رأيتَ ابنتي، إذن، تهدج صوت الأب جوريو.

وإذ صحا من تأمله على صوت الرجل الطيب، أخذ يوچين يده وراح يتأمله بحنان. ـ أنت رجل مقدام وجديرٌ بالاحترام، قال. وسوف نتحدث عن ابنتيك لاحقًا. ونهض دون أن تكون لديه رغبة في سماع الأب جوريو، وقصد حجرته حيث كتب إلى أمه الخطاب التالي:

"أمي العزيزة، ليس لديكِ ثديٌ ثالثٌ لتلقميني إياه. إنني في ظرفٍ يمكنني سريعًا من تكوين ثروة. وأنا في أمسِّ الحاجة إلى ألف ومئتي فرنك. أريدها بأي ثمن. لا تخبري أبي بطلبي هذا، فربما سيرفضه. وإن لم أحصل على هذا المال، فسأغدو فريسةً ليأس قد يفضي بي إلى إطلاق الرصاص على نفسي. سأشرح لكِ دوافعي حين أراك، لأن ذلك يتطلب أن أكتب لكِ مجلدات لتفهمي وضعي الحالي. أنا لم أقامر يا أمي الطيبة، ولست مدينًا لأحد؛ ولكن إذا ما أردتِ المحافظة على حياتي التي وهبتنيها، فعليكِ إمدادي بهذا المبلغ. أخيرًا، فأنا أذهب إلى الكونتيسة دو بوزيان التي أخذتني في حمايتها. عليَّ أن أدخل العالم، وليس معي فلسٌ واحدٌ لأشتري قفازين نظيفين. ولن أعرف طريق الطعام باستثناء الخبز، ولا الشراب باستثناء الماء، وسأصوم عند اللزوم؛ لكن لا غنى لي عن الأدوات التي تُزرع بها الكروم في هذه البلاد. وهو ما يعني أن عليَّ أن أعبِّدَ دربي، وإلا بقيتُ في

الوحل. أعرف كل الآمال التي تعقدينها عليَّ، وأرجو أن أحققها في أسرع وقت ممكن.

أمي الطيبة: بيعي بعضَ حُليك القديمة، وسوف أعوضك عنها عمَّا قريب. أنا لا أجهل حال عائلتنا، لأعرف قيمة مثل هذه التضحيات. وعليكِ يا أمي أن تؤمني بأني لا أطلب منكِ أن تفعلي ذلك بلا جدوى، وإلا فسأصبح مسخًا. أرجوكِ، أمي، ألا تري في ضراعتي هذه إلا صرخة الحاجة الملحة. ومستقبلنا كله ماثل في هذه المنحة المالية التي سأفتتح بها المعركة؛ فالحياة في باريس معركة يومية. وإذا ما تطلب إكمال المبلغ أن تبيعي "دانتيلا" خالتي، فقولي لها إنني سأبعث إليها بأجمل منها. الخ".

وكتب إلى كل من أختيه طالبًا من كلتيهما تحويشة عمرها، وليبتزهما دون أن تتحدثا مع العائلة عن هذه التضحية التي لن تبخلا بها عليه بكل سرور. راح يستميل رقتهما وهو يضرب على أوتار الشرف المشدودة والرنانة تمامًا في قلب الأختين الشابتين. وعندما انتهى من الخطابات، أخذته رجفة لا إرادية: كان يختلج، كان يرتعد. فهذا الشاب الطموح كان يعلم النبالة الطاهرة لهذه النفوس المدفونة في الوحدة، كان يعلم أية آلام سيسببها لشقيقتيه، وأيضًا أي فرح سيجتاحهما وهما تلبيان في سرية تامة طلب أخيهما الحبيب. راح وعيُهُ يستضيء، ويراهما تحصيان في السر كنزهما الصغير: رآهما- بدهاءِ الفتيات الشابات- تعدان المبلغ لإرساله بصورة خفية، محاولتين أن تقوما بخدعة أولى لتكونا ساميتين. " قلب الأخت ماسة من النقاء، ونبعٌ من الحنان"، قال لنفسه. استشعر الخجل لأنه كتب إليهما. فكم ستكون قوية نذورهما، كم ستكون نقيةً وثبة

روحهما نحو السماء! وبأية شهوةٍ يمكن ألا تقوما بتضحيتهما! وأي ألم سيطال الأم إذا لم تقم بإرسال كامل المبلغ! تلك المشاعر العذبة، وهذه التضحيات الباهظة، ستستخدمان سُلَّمةً للوصول إلى دلفين دو نوسنجن. بضع دمعات، كحبات بخور يحرقها على مذبح العائلة المقدس، طفرت من عينيه. وراح يتحرك باهتياج يملأه القنوط. لمحه الأب جوريو وهو في حاله تلك، من خلال الباب الذي كان ما يزال مواربًا، فدخل وسأله: ـ ماذا بك، يا سيدي؟

ـ أوٍ، يا جاري الطيب! فأنا أيضًا ابنٌ وأخٌ، كما أنك أب. معك حق في أن ترتعد من أجل الكونتيسة أنستازي، فهي لدى مكسيم دو تراي، الذي سيضيعها.

تراجع الأب جوريو، مغمغمًا بكلمات لم يعرف يوچين لها معنى. في اليوم التالي، ذهب راستنياك ليرمي برسائله في صندوق البريد. تردد حتى آخر لحظة، لكنه ألقى بالخطابات في الصندوق قائلاً: سوف أنجح! كلمة المقامر، والقبطان الكبير، كلمة قدرية تُهلك من البشر أكثر ممن تُنجي.

بعد بضعة أيام، ذهب يوچين إلى السيدة دو رستو، ولم يتم استقباله. ثلاثَ مرات يعاود الذهاب، وثلاث مرات يجد الباب مغلقًا، رغم أنه كان يختار الأوقات التي لا يكون فيها الكونت "مكسيم دو تراي" موجودًا بالدار. كانت الكونتيسة على حق. لم يعد الطالب يدرس. كان يذهب تلبيةً للدعوة، وحين كان يثبت حضوره، كان ينصرف. كان يتعلل بما يتعلل به معظم الطلبة: سيدخر جهده حتى اقتراب موعد الامتحان؛ لقد عزم على تكديس مدوناته عن السنتين الثانية والثالثة، ثم يدرس القانون بجدية تامة دفعةً واحدة في اللحظة الأخيرة. هكذا،

كان لديه خمسة عشر شهرًا من الفراغ، للإبحار في المحيط الباريسي، للانغماس في الدعارة، أو اصطياد الثروة. وخلال ذلك الأسبوع، زار السيدة دو بوزيان مرتين، ولم يكن يذهب إليها إلا في اللحظة التي تغادرها عربة الماركيز "داجودا". ولعدة أيام أخرى، ظلت ظافرة هذه المرأة الرائعة، الوجه الأكثر شاعرية في ضاحية سان جرمان كلها، وتمكنت من تأجيل زواج الآنسة "دو روشفيد" من الماركيز "داجودا بنتو". لكن هذه الأيام الأخيرة، التي أصبح فيها الخوف من فقدان سعادتها أكثر اشتعالاً من كل شيء، كانت قد عجلت من الكارثة. كان الماركيز "داجودا"- بالاتفاق مع آل "روشفيد"- قد اعتبرا هذا الخصام وذلك الوصال مناسبةً سعيدة: كانا يأملان في أن تتآلف السيدة دو بوزيان مع فكرة هذا الزواج، وتنتهي بالتضحية بلقاءاتها الصباحية في سبيل مستقبل متوقَّع في عالم الرجال. ورغم الوعود الأكثر قداسة التي كان يقطعها على نفسه ويجددها، كان السيد "داجودا" يمثل آنذاك الكوميديا، فيما كانت الكونتيسة تحب أن تكون مخدوعة. "بدلا من أن تقفز بشرف من النافذة، تركت نفسها تتدحرج على درجات السلم"، ذلك ما قالته الدوقة "دو لنجيه" أعز صديقاتها. ومع ذلك، فقد طال التماع هذه الإشراقات الأخيرة بما يكفي لتبقى الكونتيسة في باريس لترعى قريبها الذي كانت تكنُّ له نوعًا من المودة الخرافية. وكان يوچين قد أظهر نفسه لها مفعمًا بالإخلاص والحساسية، في ظرفٍ لا ترى النساء فيه أية شفقة ولا عزاء حقيقي في أية نظرة. وإذا ما سمعن كلمات لطيفة من رجل، فلابد أن يكون قد قالها في انتظار الثمن.

ومع رغبته في أن يكون على علم تام بإمكانات ميدانه، قبل أن

يجرب اقتحام دار دو نوسنجن، أراد راستنياك أن يلم بدواخل حياة الأب جوريو، فيجمع عنها معلومات مؤكدة، يمكن أن تكون ناقصة هنا.

كان "جون جواكيم جوريو"- قبل الثورة- أحد العمال البسطاء في مجال صناعة الشعرية، حاذقًا، مقتصدًا، وجريئًا بما يكفي للحصول على أملاك معلمه، الذي شاءت الصدفة أن يلقى حتفه في الهبة الأولى لعام 1789. أقام جوريو في شارع "جسيين" بالقرب من "سوق الغلال"، وكان لديه من رهافة الحس أن تقَبَّل رئاسة ذلك القطاع، بهدف حماية تجارته من قِبل الشخصيات الأقوى نفوذًا في ذلك العصر الخطِر. وكانت حكمته تلك بمثابة الدعامة لثروته التي بدأت مع تفاقم المجاعة، الحقيقية أو المفتعلة، التي تمخض عنها ارتفاع سعر الحبوب ارتفاعًا جنونيًّا في باريس. كانوا الناس يقتلون بعضهم بعضًا على أبواب المخابز، فيما كان يذهب البعض- بلا جلبة- لشراء المكرونة الإيطالية من البقالين. في تلك السنة، جمع المواطن جوريو رؤوس أموال مكنته- فيما بعد- من القيام بتجارته بكل التفوق الذي يحقق أموالاً طائلة لمن يتوفر عليها. لقد حدث له إذن ما يحدث لكل الرجال ذوي الإمكانات النسبية. وأنقذته وسطيته. ومن جهة أخرى، فلم تُعرف ثروته إلا في الوقت الذي لم يعد فيه خطر على أن يكون المرء غنيًّا، ولم يستثر حسدَ أحد. ويبدو أن تجارة الغلال قد استأثرت بكل ذكائه. ففيما يتعلق بالقمح والدقيق، والخردق، ومعرفة خصائصها، والمصادر، والسهر على حفظها، وتخمين الأسعار، والتنبؤ بوفرة أو نقص المحاصيل، والحصول على الحبوب الموسمية بأسعار زهيدة، والحصول عليها من صقلية وأوكرانيا، لم يكن لجوريو ثانٍ. تراه

يدير أعماله، شارحًا قواعد تصدير أو استيراد الغلال، دارسًا روحها، ملمًّا بعيوبها، رجل كان جديرًا بأن يكون وزير دولة. صبورٌ، نشطٌ، مفعمٌ بالطاقة، مثابرٌ، سريعُ الإنجاز، كانت له عينا صقر، يستبق كل شيء، يتنبأ بكل شيء، يعرف كل شيء، ويتكتم على كل شيء؛ دبلوماسي في الإدراك، جندي في المشي.

فإذا ما انتزع من خصوصيته، وخرج عن دكانه البسيط المعتم ليقفَ على عتبته في أوقات فراغه، مسندًا كتفه إلى عارضة الباب، فقد كان يعود ذلك العاملَ الأرعن الفظَّ، رجلاً عاجزًا عن فهم المنطق، بليدًا إزاء كل مباهج العقل، رجلاً كان يغط في النوم أثناء العرض، أحد هؤلاء "الدوليبان"* الباريسيين، الأقوياء فقط في الحماقة. تتشابه هذه الطبائع جميعها تقريبًا. وفي جميعها تقريبًا، تجد عاطفة سامية في القلب. كان ثمة عاطفتان اثنتان- على وجه الحصر- تملكان على صانع الشعرية قلبه، امتصتا منه ما هو ندِي، مثلما كانت تجارة الغلال توظف كل ذكاء رأسه.

كانت زوجته- الابنة الوحيدة لمزارع ثري من "لابري"- مثار إعجاب ديني له، وحب بلا حدود. افتتن جوريو بطبعها الرهيف القوي، وحساسيتها وجمالها، المتناقضين مع سماته. وإذا ما كان ثمة شعور فطري في قلب الرجل، أليس هو زهو الحماية التي يمارسها- كل لحظة- من أجل مخلوق ضعيف؟ ولنُضِف هنا الحب، ذلك العرفانُ اليقظ في تلك النفوس المستقيمة لأصل ملذاتهم؛ وتتفهمون حشدًا هائلا من الغرائب الأخلاقية. بعد سبع سنواتٍ من سعادة بلا غيوم، فقد جوريو- لسوء

* الدوليبان Dolibans: أبناء أسرة فرنسية، لم يُستدَل على أصولها، في المراجع؛ (المحرر).

الحظ- زوجته؛ كانت قد بدأت تفرض سطوتها عليه خارج مجال العواطف. ربما استطاعت تحريك تلك الطبيعة الخاملة، وربما بذرت فيها بذور الفطنة بما يجري في العالم والحياة.

في هذا الوضع، تنامت عاطفة الأبوة لدى جوريو حتى اللا معقول. فقد حول عواطفه الخائبة بفعل الموت إلى ابنتيه، اللتين استوعبتا- في البداية- كل مشاعره تمامًا. ومع تلقيه عروضًا واعدةً من تجار ومزارعين غيورين، بأن يزوجوه من بناتهم، فضل البقاء أرمل. كان والد زوجته- الرجل الوحيد الذي كانت له معه مودة باقية- يعلم يقينًا أن جوريو قد قطع على نفسه عهدًا بألا يخونها، حتى بعد وفاتها. وإذا بتجار سوق الغلال- العاجزين عن فهم هذه الحماقة السامية- يتندرون على ذلك، ويطلقون على جوريو تسمياتٍ بشعة. إلا أن أول من تجرأ منهم، بعدما شرب الخمر الرخيص، على نطقها، تلقى من جوريو لكمةً في كتفه جعلته يرتطم برأسه بأحد نُصب شارع "أوبلان". كان الإخلاص الفطري، والحب الرقيق الذي أحاط به جوريو ابنتيه، معروفين، حتى إن أحد منافسيه- عندما أراد ذات يوم إبعاده عن السوق ليكون هو السيد الوحيد- أبلغه أن ابنته "دولفين" قد صدمتها عربة "كابريوليه". غادر صانع الشعرية- شاحبًا ممتقعًا- السوق في الحال. مرض لبضعة أيام كرد فعل لمشاعره المتناقضة التي سببها له ذاك النبأ الكاذب. وحتى إن لم تُود لكمته في كتف الرجل إلى موته، فقد طارده في السوق ودفعه- في ظرفٍ حرج- إلى الإفلاس.

وبطبيعة الحال، كانت تربية البنتين خارقةً للمألوف. فإذ كان غنيًّا مع دخل يجاوز الستين ألف جنيه سنويًّا، ولا يتعدى ما ينفقه ألفًا ومئة

فرنـك، فقـد كـان لجوريـو سـعيد الحـظ أن يُشبع أهـواء ابنتيـه: أفـضل الأساتذة المكلفين بتنمية مواهبهما التي يتسم بها التعليم الرفيع؛ وجلب آنسة لمرافقتهما، كانـت- لحظ الحظ- ذات مهارات عقلية وذوق رفيع؛ كانتا تذهبان إلى مضمار الخيل، ولكل منهما عربة؛ فعاشتا كما يكون حـال عـشيقتَي سـيد عجـوز فـاحش الثـراء؛ وكـان يكفـي أن يعربـا عـن رغائبهما حتى يُهرع أبوهما فيلبيها؛ ولم يكن يطلب منهما سوى الحنان مقابل عطاياه. كـان جوريـو يـضع ابنتيـه في مـصاف الملائكـة، وبالتأكيـد أرفع مقامًا منه، هو الرجل المسكين! لقد أحبهما حتى الأذى الذي كانتا تتسببان لـه فيـه. وعنـدما صـارتا في سـن الـزواج، كـان لهمـا أن تختـارا العـريس على ذوقهما: كـان لكـل منهما أن تقتسم ثروة أبيهمـا "كمَهـر". اختبـل الكونـت دو رستو بجمـال أنستازي ذات النـوازع الأرسـتقراطية، فتركـت منزل أبيها، وانطلقت إلى طبقـات المجتمع العليا. وكانـت دلفين عاشقة للثراء: تزوجت من "نوسنجن"، وهو رجل بنوك من أصل ألماني، ونـال لاحقًا لقـب "بارون" مـن "قداسة الإمبراطور". وظـل جوريو رجـل "الشعرية". وسرعان ما يُصدم صهراه وابنتاه لمواصلته تجارته، رغـم كونها قد استهلكت كل حياته. وبعد أن تحمل الأب جوريو لخمس سنوات، إلحاحهم، وافق على التقاعد بإيراد أصول تجارته ومكاسبه في السنوات الأخيرة؛ رأسمال قـدرت الـسيدة ڤوكيـه- الـتي جاء ليستقر عندها- ريعه السنوي بثمانية إلى عشرة آلاف جنيه.

ألقى جوريو عصا الترحال في هذا البنسيون، ليس فقط بفعل القنوط الذي ألم به عندما رفضت ابنتاه- بإيعاز من الزوجين- أن تسكناه لديهما، وإنما أيضًا بفعل التصميم على عدم استقباله لديهما علانيةً.

تلك المعلومات هي كل ما كان يعرفه عن الأب جوريو السيد "موري" الذي اشترى ممتلكاته. وهكذا، تم تأكيد التقديرات التي سمعها راستنياك من فم الدوقة "دو لانجيه". وهنا، ينتهي عرض هذه التراجيديا الباريسية الغامضة، لكن المفزعة.



الفصـــل الثَّاني

الدخُـول في العَـالم

تقريبًا، في نهاية الأسبوع الأول من شهر ديسمبر، تلقى راستنياك خطابين: أحدهما من أمه، والآخر من كبرى أختيه. هذا الخطوط المعروفة لديه تمامًا جعلته- في نفس الوقت- يخفق فرحًا ويرتعد خائفًا ذُعرًا. كانت هاتان الورقتان الرهيفتان تمثلان محطة للحياة أو للموت بالنسبة لآماله. وإذا ما كان قد تملكه بعض الرعب، وهو يتذكر الضائقة الشديدة لأبويه، فقد اختبر جيدًا إيثارهم بحيث لا يخشى امتصاص آخر قطرة دم في عروقهم. جاء خطاب والدته كالتالي:

"ابني الغالي، أبعث إليك بما طلبت. فأحسنْ استخدام هذا المال، فلن أستطيع- إذا ما تعلق الأمر بإنقاذ حياتك- أن أدبر ثانيةً مثل هذا المبلغ المعتبر دون علم والدك؛ فذلك سيربك انسجام منزلنا. ولكي نحصل عليه، سنكون مضطرين لرهن أرضنا. ومن المستحيل عليَّ الحكمُ على قيمة مشاريعك التي لا أعرفها؛ فما

هي طبيعتها حتى تخشى أن تأتمنني عليها؟ إن عرضك لها لم يكن يتطلب مجلدات، فكان لكلمة واحدة أن تكفي لتذهب عنا عذابات الشك. ولا أعرف كيف أخفي عنك الشعور الأليم الذي سببه لي خطابك. ولدي العزيز، ما هو إذن ذلك الشعور الذي جعلك تصبُّ كل هذا الفزع في قلبي؟ لا شك أنك عانيت كثيرًا وأنت تكتب لي، لأني عانيت مثله وأنا أقرأ. فأي أمر تُقدم عليه، إذن؟ إن حياتك وسعادتك رهينتان بأن تبدو شخصًا آخر غير ما أنت عليه، وأن ترى عالمًا تصعد إليه دون تكبد تكاليف مالية لا تستطيع تحملها، ودون أن تفقد الوقت الغالي لدراستك. يوچين الحبيب، فلتثق في قلب أمك، والسبل المتعرجة لا توصل إلى شيء عظيم. ويتوجب أن يكون الصبر والتخلي عن الأهواء الفضيلتين اللتين يتحلى بهما الشبان الذين يمرون بمثل ظروفك. أنا لا ألومك، لأني لا أريد أن أشوه العطاء بأية مرارة. لكن كلماتي هي كلمات أم واثقة، بقدر ما هي متبصرة. فإذا ما كنت تعرف مدى اضطرارك، فإنني أعلم كم هو صافٍ قلبك، وكم هي رفيعة نواياك. ويمكنني أيضًا أن أقول لك دونما خشية: اذهب أيها الحبيب! تقدم! أما أنا فأرتعد لأني أُم. لكن كل خطوة تخطوها ستكون مصحوبة بحنان أمنياتنا وبركاتنا. فكنْ على حذر، يا بنيَّ. كن عاقلاً، كرجل؛ فمصائر الأشخاص الخمسة الغالين عليك مرهونة بك. أجل، فكل حظنا كامنٌ فيك، كما أن سعادتك هي سعادتنا.

ندعو الله أن يعينك فيما أنت مقدمٌ عليه. أما عمتك مارسياك

فكانت- في هذا الظرف- ذات طيبة خارقة؛ حتى إنها اكتشفت ما كنت تعني عندما تحدثت عن قفازيك. لكنها قالت بمرح إن لديها نقطة ضعف تجاه الإبن البكري. يوچيني! فلتُحب عمتك كثيرًا! ولن أخبرك بما فعلَته من أجلك، إلا بعد أن تحقق النجاح؛ وإلا فستحرق أموالها أصابعك. أنت لا تعرف يا صغيري معنى أن يضحي المرء بتذكاراته! لكن ألا نضحي من أجلك؟ لقد كلفتني بأن أبلغك أنها تقبل جبينك، وأنها تود أن توصل لك بهذه القبلة قوةً تجعلك دائمًا سعيدًا. هذه المرأة الطيبة الممتازة كان يمكن أن تكتب لك، لو لم تكن أصابعها مصابة بالنقرس. أبوك بخير، ومحصول 1819 فاق آمالنا.

فوداعًا، يا بنيَّ. لن أتحدث عن أختيك. "لورا" تكتب لك. وقد تركتُ لها متعة أن تثرثر لك عن مستجدات العائلة. فليكلل الله جهودك بالنجاح!

آه! أجل، فلتنجح يا يوچيني. فقد سببتَ لي من الألم ما لا طاقة لي بإعادة تحمله. عرفتُ معنى أن يكون المرء فقيرًا، وأنا أشتهي المال لأقدمه إلى ابني. هيا! وداعًا. لا تدعنا طويلاً بلا أخبار، وإليك القبلة التي ترسلها أمك إليك".

عندما انتهى يوچين من هذه الرسالة، كانت عيناه دامعتين، كان يفكر في الأب جوريو وهو يلوي فضياته ويبيعها ليسدد السَّند من أجل ابنته. "باعت أمك مجوهراتها، قال لنفسه. وعمتك بكت بلا شك وهي تبيع بعض نفائسها. فبأي حق تلعن أنستازي؟ فأنت الآن قد فعلت من أجل أنانية مستقبلك ما فعلتْه من أجل عشيقها! فمن منكما أفضل من

الآخر؟" شعر الطالب بالنار تكوي أحشاءه بحرارة لا قِبل له بها. كان يريد أن ينبذ العالم، ألا يقربَ هذا المال. قاسى الندمَ النبيلَ الجميل، الخفي، الذي نادرًا ما يقدر قيمته الرجال عندما يحكمون على أندادهم، والذين كثيرًا ما يبرِّئون- على أيدي ملائكة السماء- المجرمَ المدانَ على أيدي قضاة الأرض.

فتح راستنياك خطاب أخته، وإذا بالتعبيرات البريئة، الرشيقة، تنعش فؤاده وترطب جوانحه.

"أخي العزيز، وصل خطابك في أنسب وقت. كنا، "أجاث" وأنا، نود استخدام أموالنا بطرائق شتى، ولم نكن نعلم بعد في أية مشتريات سنضعها. فإذا بك تفعل ما فعله خادم ملك أسبانيا، عندما عكس عقارب ساعة سيده، فإذا بنا وقد توافقنا. لقد كنا في الحقيقة دائمتي الشجار على رغائبنا، فإلى أيها نعطي الأفضلية؟ ولم نستطع أن نخمن- يا يوچين الحبيب- الاستخدامَ الأمثلَ الذي يجمع هذه الرغبات. لقد قفزت "أجاث" من الفرح. صرنا كمجنونتين طوال النهار، حتى إن أمنا زجرتنا (على طريقة عمتنا) بسيماء صارمة: "ماذا بكما، يا فتاتَيَّ؟" ولو أنها وبختنا قليلاً، لكننا- فيما أظن- أكثر سعادة أيضًا. فعلى المرأة أن تجد سعادتها في التفاني من أجل من تحب! أنا وحدي كنت حالمة، وأسيانة وسط فرحتي. سأكون على الأرجح امرأة رديئة لأنني أنفق الكثير. فقد اشتريت حزامين، ومخرزًا لثقب عُرى صدرياتي، وبلاهات؛ لذا كنت أقل مالاً من أجاث السمينة المقتصدة، التي تراكم مدخراتها كطائر النقار. كان لديها مائتا

فرنك! أما أنا، يا صديقي البائس، فلا أمتلك سوى خمسمئة ريال. لقد عوقبت تمامًا، وكنت أريد إلقاء حزامي في البئر، لأني كلما لففت به خصري شعرت بالألم. لقد سرقتك. كانت أجاث رائعة. قالت لي: "فلنرسل إليه الثلاثمئة وخمسين فرنكًا، باسمنا نحن الاثنتين معًا". لكنني لم أمسك نفسي عن أن أحكي لك الأشياء كما وقعت. أتعرف ماذا فعلنا كي نلبي لك طلباتك؟ لقد حملنا أموالنا "المجيدة" وذهبنا نحن الاثنتين للنزهة، وعندما بلغنا الطريق الرئيسية أخذناها عدوًا حتى "روفيك"، وسلمنا المال عن طيب خاطر إلى السيد "جرامبير" الذي يدير مكتب الـ"ميساجري روايال"! وفي العودة، كنا خفيفتين كسنونوتين. "أهكذا تجعلنا السعادة خفيفتين؟" سألتني "أجاث". وقلنا ألفَ شيء لن أعيدها عليك أيها السيد الباريسي. كانت تتعلق كلها بك أنت. آه! أخي الغالي، لكَم نحبك، ذلك كل شيء في كلمتين. أما بخصوص السر، كما قالت عمتنا، فإن أقنعة صغيرة مثلنا لجديرة بكل شيء، حتى بالإمساك عن الكلام. وأخبرك أن أمي قد ذهبت في سرية تامة، مع عمتي، إلى "أنجوليم"، ملتزمتين بالصمت عن الغاية الرفيعة لرحلتهما، التي لم تكن لتتم دون مشاورات طويلة بينهما كانت محظورة علينا، هكذا سيدي البارون. وثمة تكهنات كثيرة تشغل الآن مملكة "راستنياك". وفي تكتم شديد، فإن الفستان الموسلين المطرز بالزهور، الذي يخص صاحبة الجلالة الملكة، يكاد يكون جاهزًا، إذ لم يتبق للانتهاء منه سوى جانبين ضئيلين. وقد تقرر ألا يقام حائط بجوار "فيرتوي" بل سياج،

وسيتم بذلك حرمان الشعب من الفاكهة والتعريشات، وإن كان ذلك سيوفر منظرًا رائعًا يسر الأجانب. فإذا ما كان ولي العهد بحاجة لمناديل، فمن المتوقع أن تقوم الوريثة العجوز- وهي تقلب في كنوزها وصناديقها، المسماة "بومبيا" و"هيركولانيوم"- باكتشاف قطعة من النسيج الهولندي لم تكن تدري عنها شيئًا: وإذ بالأميرتين أجاث ولورا تضعان تحت تصرفها خيطهما وإبرتهما ويدهما دائمة الاحمرار. أما الأميران الشابان "الدون هنري" و"الدون جابرييل"، فقد احتفظا بعادتهما المهلكة في التهام عصير العنب المغلي المكثف، وإغضاب أختيهما، وعدم رغبتهما في تعلم أي شيء، والاستمتاع بمطاردة العصافير عن أعشاشها، وأن يضجًا ويقطعا أعواد الخيزران، منتهكتين قوانين المملكة، ليصنعا منها حرابًا. والسفير البابوي، ويطلق عليه بالعامية "السيد الخوري"، يهددهما بالطرد أو الحرمان الكنسي، إذا ما استمرا في استبدال قواعد الحرب بقواعد النحو المقدسة. وداعًا، أخي العزيز، ولا خطاب يمكن أن يحمل تمنياتٍ لكم بالسعادة كخطابي هذا، ولا كمية حب كهذه. وبالطبع، فستجد أشياء كثيرة يمكنك أن تقصها علينا لدى مجيئك إلينا! سوف تخبرني بكل شيء، أنا شقيقتك الكبرى. وقد ألمعت عمتنا إلى أنك قد حققت نجاحًا في العالم.

يتحدثون عن امرأة ويتناسون البقية.

وهذا مفهوم لدينا! أخبرنا إذن يا يوچين، إذا ما شئت إخبارنا، فباستطاعتنا أن نرسل إليك المناديل، وأن نصنع لك

القمصان. أجبني بسرعة فيما يخص هذا الأمر تحديدًا. فإذا ما كان يلزمك فورًا قمصان جديدة، فسنكون مجبرين على أن نصنعها لك حالاً، وإذا ما كانت في باريس تصاميم لم تصل إلينا بعد، فعليك بإرسال نموذج منها، وخاصةً ما يتعلق بالمعصمين. وداعًا، وداعًا! أقبلُ جبينك جهة اليسار، على المكان الذي يخصني حصريًا.

أترك باقي الورقة لـ"أجاث" التي وعدتني ألا تقرأ حرفًا مما كتبت لك. ولكني سأبقى بجانبها خلال كتابتها لك، لكي أكون أكثر ثقة. أختك التي تحبك

"لورا دو راسنياك".

ـ أجل، يفكر يوچين، أجل، فلتأتِ الثروة بأي ثمن! ولا تكفي كنوزٌ لتعويض هذا التفاني. كم أود لو حملت لهم السعادات كلها مجتمعة. ألف وخمسمئة فرنك! قال لنفسه بعد وقفة قصيرة. على كل فرنك أن يأتيني بصفقة! "لورا" على حق. اسم امرأة! ليس لي من القمصان غير الخشن. آه! فالفتاة قد تغدو، من أجل سعادة إنسان آخر، محتالة كلص! بريئة فيما يخصها وبصيرة من أجلي، تشبه ملاك السماء الذي يغفر خطايا البشر دون أن يدرك كنهها.

العالم كله له! بالفعل، قام باستدعاء ترزي، استقصى، وحسَم. وعندما رأى السيد دو تراي أدرك راستنياك التأثير الهائل للترزية على حياة الشبان. وا أسفاه! فلا وسطية بين المصطلحين: إما أن يكون الترزي

عدوًّا قاتلا، أو صديقًا، طبقًا للصنعة. وقد لقي يوچين ترزيًّا يعي تمامًا أسرار صنعته، بل يُعتبر همزة وصل بين حاضر ومستقبل الشبان. امتنَّ راستنياك أيضًا بأنه يحقق ثروة بهذا الرجل بإحدى تلك التعبيرات التي برع فيها فيما بعد: ـ ببنطالين من صنعه، قال، يمكن الزواج بعشرين ألف جنيه، عائدًا سنويًّا.

ألف وخمسمئة فرنك، وملابس تحت الطلب! الآن، ما عاد الجنوبي المسكين يبالي بشيء، بل ينزل ليتناول غداءه بتلك السيماء الغامضة التي تمنح الشاب سمت ذوي الأملاك. وفي الوقت الذي تنزلق فيه النقود إلى جيبِ طالبٍ، ينتصب داخله عمود وهمي ليتكئ عليه. يسير أفضل مما قبل، يشعر بنقطة ارتكاز رافعة له، وله نظرة يقظة مباشرة، وحركات رشيقة؛ البارحة، كان متواضعًا خجولاً يمكن أن يتلقى الصفعات؛ أما الغداة فهو يكيل منها لرئيس وزراء. في داخله، تمورُ ظواهر لا يسمع صوتها أحد: يريد كل شيء ويقدر على كل شيء، يرغب في كل وأي شيء خبطَ عشواء. مرح، كريم، منفتح القلب. وفي النهاية، عثر العصفور ـ الذي كان بلا جناحين، إلى عهدٍ قريبٍ ـ على مداه. يخطف الطالب الذي لا مالَ لديه القليل من المتعة، ككلب يخطف عظمة عبر ألف خطر، يكسرها، يمتص نخاعها، ثم يجري؛ بينما الشاب الذي يحرك بجيبه بعض القطع الذهبية العابرة، يتمتع بمباهجها، يسهب فيها، يلتذ بها، يتبختر في السماء، ولا يعرف من بعد معنى كلمة "فقر". باريس بأرجائها كلها تنتمي إليه. سِن يكون كل شيء فيها لامعًا، براقًا، متوهجًا! سِن القوة البهيجة التي يغتنمها الجميع، رجلاً كان أو امرأة! سِن الديون والمخاوف المتأججة التي تضاعف كل الملذات! فمَن لم يجرب

الحياة على الضفة اليسرى لـ"السين"، ما بين "سان جاك" وشارع "سان بيير"، لم يعرف أي شيء عن الحياة الإنسانية! ـ آه لو كانت نساء باريس يعرفن!ـ يفكر راستنياك وهو يلتهم الكمثرى الناضجة الرخيصة التي تقدمها لنزلائها السيدة ڤوكيهـ لهرولنَ لممارسة الحب هنا. في تلك اللحظة، وصل ساعي بريد "الميساجري روايال" إلى صالة الطعام، بعد أن دق على الباب المؤدي إلى المنوَر. طلب السيد يوچين دو راستنياك، وأسلمه كيسين، وسجلاً للتوقيع. شعر راستنياك حينئذٍ أنه وكأنما تم تحزيمه بضربة سوط، بنظرة ڤوتران الثاقبة النافذة.

ـ لقد حصلت الآن على ما يمكنك من دفع نفقات دروس السلاح والتدريب عليه، قال له ذاك الرجل.

ـ أخيرًا وصلت الـ"غاليونات"*، قالت السيدة ڤوكيه وهي تنظر إلى الكيسين.

وكانت الآنسة ميشونو تخاف من أن تلقي نظرة على المال، خشية أن تظهر شهوتها.

ـ لديك أم طيبة، قالت السيدة كوتور.

ـ السيد لديه أم طيبة، كرر پواريه كلامها.

ـ أجل، قال ڤوتران، الأم تنزف دم قلبها. يمكنك الآن أن تقوم بكل هزلياتك، أن تنطلق إلى العالم، وتصطاد "المهور"، وتراقص الكونتيسات اللائي يزينَّ شعرَهن بأزهار الخوخ. لكن صدقني، أيها الشاب، فلتتردد على ميادين الرماية.

---

* الغاليون galion: سفينة شراعية حربية وتجارية، كانت تستعمل قديمًا في نقل الذهب إلى أسبانيا من مستعمراتها؛ (المحرر).

قـام ڤـوتران بإيمـاءة مَـن يـسدد إلى خـصمه. أراد راسـتنياك أن يقـدم إكراميةً لرجل البريد، لكنه لم يعثر على شيء في جيبه. فتش ڤوتران جيبه وقدم للرجل عشرين فلسًا.

ـ أنت رجل مضمون، قالها وهو يرمق الطالب.

اضطُر راستنياك أن يشكره، برغم الكلمات الحادة التي تبادلاها يوم عاد من لدى السيدة بوزيان، وأصبح بها ذلك الرجل غير محتمل لديه. وخلال الثمانية أيام تلك، كان يوچين وڤوتران يبقيان صامتين أحدهما أمام الآخر، ويتوجس كل منهما من الآخر. كان الطالب يتساءل داخله عن السبب، بلا جدوى. لا شك أن الأفكار تنطلق مباشرةً بالقوة التي تتشكل بها، وتمضي لتضرب ما حدده لها الدماغ، حسب قانون رياضي شبيه بما يدفع الدانات من ماسورة المدفع. متنوعة تجيء الآثار. فإذا ما وُجِدَت طبائع رقيقة تسكنها الأفكار فتتلفها، فثمة طبائع أخرى محصنة ببأس شديد، جماجمُ ذاتُ متاريسَ فولاذيةٍ تنحطم أمام صلادتها إرادات الآخرين، فتتساقط سقوط القذائف أمام أسوار القلاع؛ ثم هناك أيضًا طبائع لدنة رخوة، كمندوف القطن، تدلف إليها أفكار الآخرين وتموت كقنابـل تخمـد في الأرض الرخـوة للمتـاريس. كـان لراسـتنياك أحـد هـذه الأدمغة المتخمة بالبارود، التي تنفجر لدى أقل اصطدام. شاب متوقد الذهن تمامًا، إلى حد ألا يكون سهل المنال في طرح الأفكار هذا، أو في وباء العواطف هذا، الذي يذهلنا كثير من ظواهره الغريبة، بلا وعي منا. وكان لموقفه الأخلاقي المدى الواضح لعينيه الشبيهتين بعيني نمر. وكـان لكـل مـن توريـاتـه ذلـك الإسـهاب الغـامض، وتلـك المرونـة الـتي تـسمح بالـذهاب والعـودة، والـتي تبـهرنا لـدى عليـة القـوم، المبـارزين

البارعين في التقاط كل عيوب الدروع. وخلال شهر واحد، تنامت- من ناحية أخرى- لدي يوچين كثيرٌ من المزايا بأكثر من العيوب. أما عيوبه، فكان يتطلبها العالم وتحقيق رغباته المتزايدة. ومن بين مزاياه كانت تلك الحيوية الجنوبية التي تقود خطاه قدُمًا إلى الصعاب ليجد لها حلاً، والتي لا تسمح لرجل من "أوتر-لوار" أن يبقى في حالة عدم يقين، مهما كان؛ مزية يعتبرها الشماليون عيبًا: بالنسبة إليهم، فهي مصدر ثراء "مورا"* وإن كانت السبب أيضًا في موته. ومن هنا، يتوجب استخلاص أن الجنوبي- حين يعرف كيف يضفر مكر أهل الشمال بجرأة "أوتر-لوار"- فسيكون متكاملاً، وملكًا على السويد! هكذا، فلن يتحمل راستنياك البقاء طويلاً تحت مرمى قذائف ڤوتران، دون معرفة ما إذا كان ذلك الرجل صديقًا أو عدوًّا. وبين الحين والحين، كان يبدو له أن تلك الشخصية الفريدة تتغلغل في مكنوناته وتقرأ ما في قلبه، فيما كان كل شيء داخله محكم الإغلاق، وكأنما امتلك العمق الراسخ لأبي الهول الذي يعرف ويرى كل شيء، دون أن يقول شيئًا! وإذ شعر يوچين أن جيبه ملآن، انتفض.

- فلتسعدني بانتظارك لي، قال لڤوتران الذي كان ينهض متأهبًا للخروج، بعد أن ارتشف الجرعات الأخيرة من قهوته.

- لماذا؟ أجاب الأربعيني، وهو يضع على رأسه قبعة عريضة الحواف، ويتناول عصاه الحديدية التي كان يحلو له أن يديرها حول رأسه

---

* جواشيم مورا Murat: مارشال فرنسا (1767-1815). أصبح مارشالاً 1804، وقائدًا أعلى في أسبانيا (1808)، ثم أصبح ملك نابولي في نفس العام. وعام 1815، لدى عودته إلى مملكته، تم إلقاء القبض عليه، وإعدامه رميًا بالرصاص.

كرجل لا يخشى أن يهاجمه أربعة لصوص.

ـ أريد أن أعيد إليك حقك، أجاب راستنياك الذي حل أحد الكيسين على الفور، وأحصى مئة وأربعين فرنكا ناولها إلى السيدة ڤوكيه. المحاسبة الجيدة تصنع الأصدقاء الجيدين، قال للأرملة. نحن خالصان حتى ليلة رأس السنة. غيري لي المئة فلس هذه.

ـ الأصدقاء الجيدون يقومون بالمحاسبة الجيدة، كرر پواريه، ناظرًا إلى ڤوتران.

ـ إليك العشرين فلسًا، قال راستنياك وهو يعطي قطعة نقدية لأبي الهول ذي الباروكة.

ـ لكأنك كنت تخشى أن تكون مدينًا لي بشيء؟ صاح ڤوتران وهو يغوص بنظرة نافذة في أعماق الشاب، مبتسمًا له ابتسامته الهادئة، الديوچينية*، التي كادت تسلم يوچين لحافةِ الغضب مئة مرة.

ـ لكن.. أجل، أجاب الطالب الذي كان يمسك بالكيسين في يده، ويقوم ليتوجه إلى غرفته. خرج ڤوتران من الباب المؤدي إلى الصالون، واستدار الطالب ليمر من الغرفة التي تؤدي إلى تربيعة السلم.

ـ هل تعرف، يا سيدي الماركيز "راستنياكوراما" أن ما قلته لي يفتقر إلى الأدب؟ قال ڤوتران، وهو يضرب باب الصالون قادمًا نحو الطالب الذي تطلع إليه ببرود شديد.

أغلق راستنياك بابَ صالةِ الطعام، وهو يقتاد ڤوتران معه إلى أسفل السلم، في التربيعة التي تفصل صالة الطعام عن المطبخ، حيث كان ثمة

---

* نسبةً إلى ديوچين، الفيلسوف والحكيم الإغريقي، الذي كان يبحث عن الحقيقة في النهار، على ضوء مصباح؛ (المحرر).

باب يفتح بكامله على الحديقة، يعلوه لوح زجاج طويل مدعم بقضبان حديدية. هنا، قال الطالب أمام سيلڤي التي خرجت من مطبخها:

ـ سيدي ڤوتران، أنا لست "ماركيزًا"، ولا أُدعَى "راستنياكوراما".

ـ إنهما سيقتتلان، قالت الآنسة ميشونو بلا مبالاة.

ـ سيقتتلان! كرر پواريه.

ـ لا، ردت السيدة ڤوكيه، وهي تتحسس وجه عملاتها النقدية.

ـ ها هما يذهبان تحت أشجار الزيزفون، صاحت الآنسة ڤكتورين، وقد نهضت لتلقي نظرة على الحديقة. ذلك الشاب المسكين! إنه مع ذلك على حق.

ـ فلنصعد نحن، يا عزيزتي الصغيرة، قالت السيدة كوتور، فالشؤون التي تحدث هناك لا تعنينا.

عندما نهضت السيدة كوتور وڤكتورين، قابلتا ـ لدى الباب ـ سيلڤي السمينة التي اعترضت سبيلهما.

ـ ماذا يحدث؟ سألت. أما السيد ڤوتران فسأل السيد يوچين: فليوضح كل منا موقفه! ثم أخذه من ذراعه. وها هما يتمشيان بين نباتات خرشوفنا.

في تلك اللحظة، ظهر ڤوتران. ـ لا تجزعي من شيء، سيدتي ڤوكيه، سأجرب تصويب مسدسي تحت أشجار الزيزفون.

ـ آه، سيدي، قالت ڤكتورين شابكة يديها، لماذا تريد قتل السيد يوچين؟

تراجع ڤوتران خطوتين للخلف، وتأمل ڤكتورين.

ـ قصةٌ أخرى، صاح بنبرة ساخرة جعلت وجه الفتاة المسكينة يتورد.

شاب لطيف جدًّا، أليس كذلك؟ وها أنتِ توحين إليَّ بفكرة. سوف أسعدكما، بالتوفيق بينكما يا صغيرتي الجميلة.

أمسكت السيدة كوتور بذراع يتيمتها القاصر. جذبتها هامسة في أذنها: أنتِ غير معقولة هذا الصباح!

ـ لا أحب أن يطلق أحدٌ الرصاص عندي، قالت السيدة ڤوكيه، إنك بهذا تزعج الجيران، وتستدعي البوليس في هذه الساعة!

ـ اهدئي، اهدئي يا سيدة ڤوكيه، رد ڤوتران، فكل شيء على ما يرام. نحن ذاهبان للتدريب على الرماية. ولحق براستنياك، وتأبط ذراعه بطريقة ودودة. – حينما أبرهن لك على أني أستطيع ـ من بُعد خمس وثلاثين خطوة ـ أن أرشق خمس رصاصاتٍ في علامة الآس، قال له، فلن يبدد هذا شجاعتك. تبدو لي غاضبًا إلى حدٍّ ما، وهو ما سيجعلك تُقتل كما البلهاء.

ـ هل تتراجع؟ سأله يوچين.

ـ لا تشعل غضبي، رد ڤوتران، الجو ليس باردًا هذا الصباح. تعال نجلس هناك، قال وهو يشير إلى المقاعد الصغيرة ذات اللون الأخضر. هناك، لن يسمعنا أحد. أريد أن أتحدث معك. أنت شاب طيب، وأنا لا أريد لك الإيذاء؛ بل إنني أحبك، وأقسم لك. لماذا أحبك؟ سأقول لك. وحتى ذلك الحين، فأنا أعرفك كما لو كنت أنا الذي صنعتُك، وسأبرهن لك. ضع كيسك هنا، قال وهو يشير إلى المنضدة المستديرة.

وضع راستنياك نقوده على المنضدة، وجلس نهبًا للفضول الذي أذكاه داخله ـ إلى أقصى درجاته ـ ذلك التغير المفاجئ في سلوكيات ذلك الرجل، الذي ـ بعد أن كان يتحدث عن القتل ـ صار يتحدث كما لو

كان الحامي له.

ـ تودُّ أن تعرف مَن أكون، ماذا فعلت، أو ماذا أفعل، سأل ڤوتران، أنت فضولي تمامًا، يا صغيري، اهدأ! هيًّا! فستسمع ما هو أكثر من ذلك. لقد خبرت العديد من المآسي. ولكن اسمعني أولاً، وأجب فيما بعد! إليك هويتي الحقيقية في كلمتين: مَن أكون؟ ڤوتران. ماذا أفعل؟ ما يحلو لي. دعنا من هذا. هل تريد معرفة طبعي؟ أنا طيبٌ مع الطيبين معي، أو مَن يتحدث قلبهم إلى قلبي. هؤلاء أبيح لهم كل شيء، فبإمكانهم أن يركلوني بأقدامهم في عظمة ساقي دون حتى أن أقول لهم: "احذروا". ولكن تبًّا! فأنا شريرٌ كالشيطان ذاته مع أولئك الذين يُربكونني، أو مَن لا يروقون لي. ولك أن تعلم أنني يمكن أن أقتل رجلاً كما أفعل هذا، قال وهو يبصق. فقط أجهد نفسي ـ عندما يتوجب القتل ـ أن يكون القتل نظيفًا. إنني ما يمكن أن تسميه "فنان". لقد قرأت مذكرات "بنفونوتو تسلليني" كان كما تراني أمامك الآن، وبالإيطالية أيضًا! وتعلمت من ذلك الرجل، الخالي من الهموم، محاكاة العناية الإلهية التي تميتنا خبطَ عشواء، وأن أحب الجمال أنَّى وجدته. أليس رائعًا أن تكون وحدك في مواجهة الجميع، وأن يكون الحظ حليفك؟ لقد فكرت في الدستور الحالي لفوضاكم الاجتماعية. يا صغيري، المبارزة لعبة أطفال، حماقة. وإذا ما كان يتوجب اختفاء شخص من بين اثنين مفعمين بالحياة، فمن الغباء أن يترك هذا الأمر للصدفة. المبارزة؟ ملك أم كتابة؟ أنت وحظك. بإمكاني رشق خمس رصاصات على التوالي في قلب علامة الآس، وكل رصاصة فوق الأخرى، عن بُعد خمس وثلاثين خطوة. وعندما يكون المرء موهوبًا هكذا، فيمكنه أن يظن بالتأكيد إصابته لمتحديه. حقًّا! فقد

صوبت على رجل من مسافة عشرين خطوة فأخطأته. الطريف أنه لم يطلق في حياته أية رصاصة. انظر! قال هذا الرجل الاستثنائي، وفتح سترته وأظهر صدره المشعِر كظهر دُبٍّ، مع خصلة صهباء كانت تسبب نوعًا من التقزز الممزوج بالهلع. ذلك الغِر أحرق الخصلة؛ أضاف وهو يضع إصبع راستنياك على ثُقب في صدره. في ذلك الزمن، كنت ما أزال صغيرًا، في مثل عمرك، في الحادية والعشرين. كنتُ مشغولاً أيضًا بشيءٍ ما، بحب امرأة، وركام من الهراء يتشوه فكرك فيه. كنا على وشك التقاتل، أليس كذلك؟ وكان بإمكانك أن تقتلني. افرض أنني طريحٌ على الأرض، فأين ستذهب؟ عليك أن ترحل، تذهب إلى سويسرا، تصرف مال أبيك الذي لا يملك النزر اليسير. سأبين لك حالتك بجلاء؛ لكني سأفعلها بامتياز رجل رأى- بعد تفحص الأمور هنا- أن ثمة أمرين: إما الطاعة العمياء أو التمرد. وأنا لا أنصاع. هل تفهمني؟ أتدري ما الذي يلزمك فيما أنت مقدم عليه؟ مليون، وعلى وجه السرعة؛ فبدونه، ومع رأسنا الصغير، يمكننا أن نضيع وقتنا في شِراك "سان كلو" لنرى ما إذا كان ثمة كائنٌ أسمى؟ هذا المليون، سأعطيه لك. يتوقف لحظات متطلعًا ليوچين. – ها أنت ترحب بوالدك الصغير، ڤوتران. مع سماعك هذه الكلمة، تصبح كفتاة يُقال لها: "موعدنا هذا المساء" فتتزين، وهي تتلمظ كقطة تلعق اللبن. حسنًا. فيما بيننا! إليك موقفك أيها الشاب! لديك هناك الأب والأم، العمة الكبرى، أختان (16، 17 عامًا) أخوان (15، 10 أعوام)؛ تلك قائمة فريقك. العمة تربي شقيقتيك، والقس يجيء ليعلم اللغة اللاتينية للشقيقين. العائلة تأكل عصيدة الكستناء بأكثر مما تأكل الخبز الأبيض. يقتصد الأب في سراويله، والأم بالكاد تستخدم

ثوبًا للشتاء ومثله للصيف، بينما الأختان، كيفما اتفق. أعرف هذا كله، لأني عشت في الجنوب. هكذا تسير الأمور لديكم، إذا ما أرسلوا إليك ألفًا ومئتي فرنك سنويًا، بينما لا تأتي أرضكم إلا بثلاثة آلاف فرنك. ولدينا طاهية وخادم، وعلى الصورة العامة ألا تهتز! فالأب "بارون". أما أنت، فلدينا الطموح، وأصهارنا آل بوزيان، ونذهب سيرًا على الأقدام، نبغي الثروة ولا فلس معنا. نأكل اليخني لدى ماما ڤوكيه، ونهفو إلى وجبات العشاء الفاخرة في ضاحية "سان-جرمان"، ننام على سرير حقير ونريد فندقًا! لا لومَ لي على رغباتك. فلتملك الطموح، يا قلبي الصغير، فذاك لا يتاح للجميع.

سل النساء، أي الرجال يفضلن، الطموحين. فالطموحون لديهم أعضاء أكثر قوةً، والدم يغلي في عروقهم أكثر كثافة، والقلب أكثر سخونة ممن سواهم. وتجد المرأة نفسها سعيدة جميلة إذا كانت قوية، فتفضل من الرجال ذا القوة الهائلة، حتى لو تعرضَت لخطر أن يسحقها بين يديه. هكذا أتصور رغباتك وأعرضها عليك لأواجهك بسؤال. ها هو السؤال. لدينا جوع الذئاب، وأسناننا اللبنية قاطعة، فمن أين لنا بالمؤن لنضعها في القِدر؟ لدينا أولاً القانون لنأكله، وهو ليس مستساغًا، لكنه ضروري. فليكن. فنحن نعمل على أن نكون محامين، لنصبح رئيس محكمة الجنايات، ونزج بالأشقياء المساكين- الذين هم في الحقيقة خير منا- بخاتم الأشغال الشاقة على الأكتاف، لنثبت للأغنياء أنهم قادرون على النوم ملءَ الجفون. ليس ذلك مضحكًا، ومشواره طويل. وفي البداية، هناك عامان من الانتظار الطويل في باريس، نتطلع إلى *اللذائذ* التي نشتهيها، دون أن نلمسها. إنه لشاق على المرء أن يرغب

دائمًا في شيء لا يطاله. فإذا ما كنت شاحب الوجه، وذا طبيعة رخوية، فلن يكون لديك ما تخشى عليه؛ لكنَّ لنا دمًا محتدمًا كدم الأسود وشهية لارتكاب عشرين حماقة كل يوم. ستلقى حتفك إذن جراء هذا العذاب الأفظع مما ينتظرنا في جحيم الإله الطيب. ولو سلمنا بأنك ستتحلى بالحكمة، وستشرب الحليب، وتكتب المراثي؛ فعليك- بكرم طبعك- أن تبدأ- بعد متاعب وحرمان كبير يدفع الكلب إلى الجنون- بأن تغدو وكيل نيابة هزلية في حي صغير بمدينةٍ ما، لتلقي إليك الحكومة بألف فرنك سنويًّا، مثلما نقدم الفتات إلى كلب الجزار. فلتنبح على اللصوص، ودافع عن الأثرياء، واحكم بالإعدام على الناس بالظن. مجبر تمامًا! وإذا لم يكن لديك من يحميك، فستظل قابعًا في محكمة نائية ريفية. وعندما تكون في الثلاثين، ستصبح قاضيًا براتب ألف ومئتي فرنك سنويًّا، إن لم تكن قد رميت برداء القاضي على الأشواك! وعندما تبلغ الأربعين ستتزوج من ابنة طحان غني، بدخل سنوي حوالي ستة آلاف جنيه. شكرًا. أما إذا ما كان لديك من يحميك، فستصبح- في الثلاثين- نائبًا عامًّا ملكيا بألف ريال سنويًّا. وستتزوج ابنة العمدة. ولكنك إذا ارتكبت سفالات سياسية بسيطة، كأن تقرأ في نشرة "فيلال" بدلا من "مانيال" (نفس القافية، وسيبقى ضميرك مرتاحًا) فستكون- وأنت في الأربعين- نائبًا عامًّا، وربما تغدو نائبًا في البرلمان. ولتلاحظ يا صغيري العزيز، أننا سنكون قد ثقبنا ضميرنا الصغير! وأننا قد عشنا المتاعب عشرين عامًا، في ضرَّاء متخفية، وأن أختينا أصبحتا عانسين. ولي الشرف بأن أخبرك أن فرنسا لا يوجد بها سوى عشرين نائبًا عامًّا، وأنكم عشرون ألفًا من الطامحين إلى الوظيفة، مِن بينهم مهرجون يمكن أن يبيعوا عائلاتهم كي

يرتقوا درجة. فإذا ما كان ذلك يثير اشمئزازك، فلتبحث لك عن شيء آخر. هل يرغب البارون دو راستنياك أن يصير محاميًا. أووه! رائع. عليك إذن أن تشقى عشرة أعوام، وتنفق ألف فرنك شهريًّا، وتكون لديك مكتبة خاصة، ومكتب ملائم، وتدخل إلى العالم الباريسي، وتقبل رداء المُحضَر لتحصل على قضايا، وتنظف المحكمة بلسانك. فإذا ما أوصلك إلى الخير، فلا اعتراض لي، ولكن، فلتذكر لي في كل باريس أسماء خمسة محامين تجاوزوا الخمسين ويكسب الواحد منهم فوق الخمسة آلاف فرنك سنويا! بااااه! وبدلاً من تقليل قيمة أنفسنا هكذا، أفضل لو لو صرتُ قرصانًا. فمن أي السبل يمكن جني المال؟ كل هذا لا يسرُّ البال. لدينا مصدر في "مَهر" العروس. أتريد الزواج؟ ستكون كأن تُعلق حجرًا في رقبتك؛ ثم إذا ما تزوجت من أجل المال، فأين يذهب شعورنا بالشرف، ونبالتنا! إذن، فنقطة الانطلاق هي التمرد على الأعراف البشرية. ولا يكون هذا سوى بأن تتمدد كالثعبان أمام المرأة، وتلعق قدمَي أمها، وتقوم ببعض الابتذالات التي تُقزز الخنزيرة ذاتها. أوووف! هذا لو وجدت ـ على الأقل ـ السعادة؟ ستكون تعيسًا كأحجار المجاري مع امرأة تتزوجها بهذه الطريقة. الأفضل أن تدخل في حرب حقيقية مع الرجال من أن تناطح زوجتك. هذا هو مفترق الحياة، أيها الشاب، فعليك بالاختيار. لكنك اخترتَ بالفعل: لقد قصدتَ ابنة عمومتك دو بوزيان وتنسمت هناك الترف. وتوجهت إلى السيدة دو روستو ابنة الأب جوريو، وتنسمت هناك العبق الباريسي. في ذلك اليوم، عدتَ وكلمة مكتوبة على جبينك، توصلتُ إلى قراءتها جيدًا: الوصول! وبأي ثمن! براڤو! هتفتُ، هذا هو الجريء الذي يناسبني! احتجتَ إلى المال. فمِن

أين؟ لقد سفحتَ دم أختيك. كل الأشقاء يسرقون بصورة أو بأخرى أخواتهم! هي الألف وخمسمئة فرنك المبتزَّة، يعلم الله كيف- في بلد به من شجر الكستناء أكثر مما به من عملات المئة فلس- تفر النقود كجنود في إغارة. وبعد؟ ماذ ستفعل؟ هل ستعمل؟ العمل، كما تفهمه أنت، في هذه اللحظة، سيوصلك- في شيخوختك- إلى أن تسكن شقة لدى ماما ڤوكيه، مع أشخاص من قبيل پواريه. الثروة العاجلة هي المعضلة التي يتصدى لحلها الآن خمسون ألف شاب مثلك، وفي مثل الوضع الذي أنت فيه. أنت حلقة في هذه السلسلة. فلتقدِّر الجهود التي عليك بذلها، والصراع الذي عليك خوضه. فليأكل أحدكم الآخر، كما العناكب الحبيسة في وعاء! ولا يمكن أن يتوفر خمسون ألف مكان جيد. هل تعرف كيف يمكن للمرء أن يشق طريقه هنا؟ بوهج العبقرية أو بحذق الخبث. لابد من دخول هذا الحشد من الناس كطلقة مدفع، أو التسلل فيهم كالطاعون. الأمانة لا جدوى منها. ينحني الناس أمام سطوة العبقرية، وهم لها كارهون، ويلطخونها بالافتراء، لأنها تأخذ بلا مشاركة؛ لكنها إن صمدت ينحنون لها؛ باختصار، نحن نركع عبادةً لما لا نستطيع أن ندفنه في الوحل! فالفساد هو الغالب، والمواهب نادرة. هكذا، فالفساد هو سلاح الخاملين، المنتشرين، وتشم في كل مكان لذعته. ستقابل نساءً دَخل أزواجهن الكلي ستة آلاف فرنك، وينفقن أكثر من مئة ألف فرنك على الزينة. وسترى موظفين دخل الواحد منهم ألف ومئتي فرنك، ويشتري الأراضي. وستلمح نساءً يتعهرن ليركبن عربة ابن عضو المجلس الفرنسي، الذي يمكن أن يقودها إلى لونجشان في الحارة الوسطى من الطريق.

لقد رأيتَ المسكين الأبله جوريو مجبرًا على دفع السَّند المالي الذي وقعته ابنته، التي يصل دخلُ زوجها إلى خمسين ألف جنيه سنويًّا. أتحداك أن تخطو في باريس خطوتين دون أن تتعثر في مكائد جهنمية. وأراهن برأسي مقابل قدم- في هذا الخليط المشوش- على أنك ستستثير عش زنابير لدى أول امرأة تروقك، إذا ما كانت غنية وجميلة وشابة. جميعهن ينحرفن بالقانون، في حرب مع أزواجهن، فيما يتعلق بكل شيء. ولن أنتهي إذا ما كان لي أن أشرح لك ما يقمن به من تحايلات من أجل المحبين، والأطفال، والأثاث، أو التفاهات، أو الزهو، ونادرًا ما يفعلن ذلك عن طريق الفضيلة. كن على يقين. والرجل الشريف هو العدو المشترك بينهن. ولكن، من هو الرجلُ الشريفُ، في نظرك؟ في باريس، الرجل الشريف هو مَن يغلق فمه، ويرفض المشاركة. لا أحدثك عن الأرقاء المساكين الذين يكدحون دون أن يُثابوا، والذين أسميهم مجاذيب الإله الطيب. فالفضيلة تكمن هنا في أوج ازدهار غبائها، لكن هنا يكمن البؤس. وبمقدوري من مكاني هذا أن ألمح تكشيرة وجه هؤلاء الناس إذا ما فرض الإله الطيب علينا مزحةً ثقيلة وتغيبَ عن يوم القيامة. فإذا ما كنت متعجلاً الحصول على الثروة، فعليك أن تكون غنيًّا بالفعل، أو تتظاهر بالغنى. ولكي تغتني، فعليك أن تلعب بقوة؛ وإلا فسيتم ابتزازك، وملكُ يديك! فمن بين مئة وظيفة ينجح عشرةُ رجال فقط سريعًا، فيسميهم الجمهور لصوصًا. ولتستخلص النتائج التي تروقك. تلك هي الحياة على حقيقتها. وليس هذا بأجمل من مطبخ يتسخ أو ينتن، ومع ذلك فعلينا أن نلطخ أيدينا إذا ما أردنا أن نغتني. فلتعرف فحسب أن تنظف نفسك جيدًا: هنا يكمن كل أخلاق عصرنا. وإذا ما

حدثتك عن العالم، فالحق معي، فأنا أدرى به. هل تظن أنني ألام؟ إطلاقًا. كان دائمًا هكذا. لم يغيره فلاسفة الأخلاق أبدًا. فالإنسان بطبعه ناقص. إنه منافق أحيانًا- على نحو أو آخر- وقال الحمقى إنه أخلاقيٌّ، أو لا أخلاقي. وأنا لا أتهم الأغنياء لصالح الباقين: فالإنسان هو هو، في القمة، في القاع، أم بَين بَين. ومن بين كل مليون من هذه الخراف ثمة عشرة أشخاص بلا هموم، يترفعون عن كل شيء، حتى على القوانين: أنا من بينهم. فإذا ما كنت رجلاً ساميًا، فاسلك السبيل القويم ورأسك مرفوعة. لكن عليك أن تحارب الحسد والنميمة، والخمول، أن تحارب العالم. لقد التقى "نابليون" بوزير حرب كان يُدعى "أوبري" فأخطأ فأرسل به إلى المستعمرات. استوثق من نفسك! وانظر هل بإمكانك النهوض كل صباح وإرادتك أقوى مما كانت عليه البارحة. وبالتالي، فسأعرض عليك عرضًا لا يمكن رفضه. اسمعني جيدًا. فلديَّ فكرة أعرضها عليك. تكمن فكرتي في الذهاب للعيش في حياةٍ بطريركيةٍ في مساحة شاسعةٍ تمتد لمئة ألف فدان، مثلاً في جنوب الولايات المتحدة. هناك، سأعمل مزارعًا، وأمتلك العبيد، وأكسب بضعة ملايين من بيع أبقاري وتبغي وأخشابي، وأعيش كعاهل نافذ الإرادة، أحيا حياة لا تتوفر هنا، حيث نقبع في جُحر من الجبس! إنني شاعر كبير. قصائدي: لا أكتبها: إنها أفعال ومشاعر. إنني أمتلك في هذه اللحظة خمسين ألف فرنك تمكنني بالكاد من شراء أربعين زنجيًّا. لكنني في أمس الحاجة لمئتي ألف فرنك أشتري بهم مئتي زنجي، حتى أشبع مزاجي في الحياة البطريركية. زنوج، أترى؟ هم أطفال جاهزون يمكنك أن تفعل بهم ما يحلو لك دون أن يصل نائب عام ملكي فضولي ويطالبك بالحساب. بذلك الرأسمال

الأسود، سأحصل- خلال عشرة أعوام- على ثلاثة ملايين وربما أربعة. فإذا ما نجحت، فلن يسألني أحد "مَن أنت؟" لأني سأكون "السيد أربعة ملايين"، المواطن الأمريكي. سأكون في الخمسين، ولن أكون قد كبرت بعد، سألهو كما يحلو لي. باختصار: إذا ما وجدتُ لك ذات مَهر بقيمة مليون، فهل تمنحني مائتي ألف فرنك؟ عشرون بالمائة عمولة، هه؟ أكثيرٌ هذا؟ ستحبك زوجتك الشابة كثيرًا. ومع الزواج، ستُبدي القلق، والندم، وسيخيم الحزن عليك خلال أسبوعين. وذات ليلة، بعد القيام ببعض التكشيرات، ستخبرها- بين قبلتين- أنك مدينٌ بمئتي ألف فرنك! قائلا: "حبيبتي!". هذه المسرحية الهزلية يمثلها جميع الشبان المتميزين طول الوقت. ولا ترفض زوجة شابة أبدًا تقديم مالها لمن وهبته قلبها. هل تظن أنك خاسر؟ إطلاقًا. فستجد الوسيلة الكفيلة باستعادة المئتي ألف فرنك في إحدى العمليات. وأنت، بأموالك وعقلك النيِّر، ستجمع الثروة الطائلة التي تأمل في جمعها. *هكذا*، ستكون قد حققت- في ستة شهور- سعادتك، وسعادة زوجتك الحبيبة، وسعادة بابا ڤوتران، وسعادة أسرتك التي تنفخ في أصابعها في ليالي الشتاء القارس لانعدام الحطب. لا تندهش مما أقترحه عليك، ولا مما أطلبه منك. ففي باريس، من بين كل ستين أسرة ناجحة الزواج، ثمة سبعة وأربعون يعطون مساحة لمساومات مثل تلك. وقد أرغمت غرفة كتاب العدل السيد...

- ما الذي عليَّ أن أفعله؟ قاطع راستنياك محدثه بلهفة ظاهرة.

- تقريبًا، لا شيء، أجاب الرجل بحركة لا إرادية مبتهجة، تحاكي الإيماءة البليد لصياد يشعر بسمكة على طرف سنارته. اسمعني، جيدًا! ما قلب فتاة مسكينة تعسة سوى اسفنجة شرهة للامتلاء بالحب، اسفنجة

جافة تتفتح ما إن تسقط فيها قطرة إحساس. فلتغازل فتاة محكومةً بالعزلة والفقر واليأس، دون أن تشك في أن حظها قادم! اللعنة! وكأنك تعرف أرقام "اللوتارية"واللعب على "المَهر" وأنت تعرف المستجدات. إنك تشيد على ركائز قوية زواجًا غير قابل للانفصام. ستأتي الملايين إلى هذه الفتاة، وسترمي بها تحت الأقدام، كأنها بعض الحصَى. "خذ، يا أغلى حبيب! خذ يا "أدولف". يا "ألفريد". خذ يا يوچين! ستقول هي ذلك، كأن أدولف وألفريد ويوچين لديهم الروح الطيبة للتضحية من أجلها. وما أعنيه بالتضحية هو بيع رداء قديم للذهاب معًا إلى "كادران بلو"، لتناول عيش الغراب، ومن هناك في المساء، إلى "الامبيجي كوميك"، ورهن ساعته في "مون-دو- بيتييه" لشراء شال لها. ولن أحدثك عن تفاهات الحب الفارغ التي تخلب لب النساء كثيرًا، مثل نثر قطرات ماء على ورق الرسائل كدموع، عندما يكون المرء بعيدًا عنهن: يبدو لي أنك على معرفة تامة بلغة القلب. فباريس- كما ترى- تشبه إحدى غابات **العالم الجديد**، حيث يهتاج عشرون فصيلاً من القبائل الهمجية: "ألينوي" و"هورون" وغيرهما ممن يعتاشون على منتجات الصيد الاجتماعي؛ أنت صياد الملايين! ولكي تفوز بها، عليك باستعمال الفخاخ والشبابات والشراك الخداعية. وثمة طرق عديدة للصيد. البعض يصطاد "المَهر"، والآخر يصطاد المال السائل؛ هؤلاء يصيدون الضمائر، وأولئك يبيعون المرتبطين بهم مقيدي الأيدي والأرجل. ومَن يعود من الصيد موفور الرزق، يحيونه ويحتفلون به ويُستقبل في قمة المجتمع. وإن أعدنا العدل إلى هذه الأرض المضيافة، فإن لك أعمالا تنتظرك في المدينة الأكثر مجاملةً في العالم. فإذا ما رفض أرستقراطيو عواصم أوروبا المترفعون أن يضموا إلى

صفوفهم مليونيرًا دنيئًا، فستفتح له باريس ذراعيها، تجري إلى حفلاته، وتتعشى على موائده، وتشرب نخب شناعاته.

ـ ولكن، أين يمكن أن أجد فتاةً؟

ـ هي موجودة لك، أمامك.

ـ الآنسة ڤكتورين؟

ـ بعينها!

ـ آه! كيف؟

ـ وهي واقعة في غرامك، البارونة دو راستنياك الصغيرة!

ـ إنها لا تحتكم على فلس واحد، رد يوچين مندهشًا.

ـ آه! وصلنا لمربط الفرس. بقيت لك عندي كلمتان ـ قال ڤوتران ـ وسيتضح كل شيء. فالأب تايفيه عجوزٌ مارق قتَل أحد أصدقائه إبان الثورة. هو أحد أولئك الأفذاذ المستقلين في التفكير. رجل بنوك، والشريك الرئيسي لدار "فردريك تايفيه وشركاه". له ابن وحيد، سيترك له كل ثروته، سالبًا ڤكتورين حقها. وأنا، لا أقبل مثل هذا الظلم. أنا كـ"دون كيخوته" أنتصر للضعيف من القوي. فإذا ما شاءت العناية الإلهية أن تزيح الولد عن الوجود، فإن تايفيه سيستعيد ابنته؛ سيريد وريثًا، أيًّا مَن كان، إحدى حماقات الطبيعة، وهو لن ينجب بعد الآن، أعرف ذلك. وڤكتورين لطيفة، ظريفة، وسرعان ما ستستأثر بقلب أبيها، بل ستجعله يدور كما النحلة الألمانية بسوط العاطفة. وستكون أرهف حساسيةً تجاه حبك من أن تنساك، وستتزوجك. أما أنا، فسأقوم بدور العناية الإلهية، وسيساعدني الله. لي صديقٌ يدينُ لي بالكثير، كولونيل في الجيش في "اللوار"، تم تعيينه مؤخرًا في الحرس الملكي. يأخذ برأيي،

ملكيٌّ متطرف: ليس أحد هؤلاء البلهاء المتشبثين بآرائهم. وإذا ما كان لي أن أنصحك مرةً أخرى، يا ملاكي، فلا تتشبث بآرائك، ولا بأقوالك. وإذا أراد أحدٌ شراءها فبعها له. فمَن يتباهى بعدم تغيير رأيه هو مَن يثقل كاهله بالسير في خط مستقيم، مغفلٌ يؤمن بالعصمة واليقينية. ما من مبادئ، هناك أحداث فحسب؛ لا قوانين، فليس هناك سوى ظروف: الرجل "السوبر" يتبنى الأحداث والظروف ليقودها. فإذا ما كان ثمة قوانين ومبادئ ثابتة، فإن الأمم تقوم بتغييرها كما نقوم بتبديل قمصاننا. وليس للرجل أن يكون أكثر حكمة من أمة بأكملها. والرجل الذي أدى لفرنسا خدمة تافهة هو الآن صنم يوقرونه، يُرى دائمًا في الزي الأحمر، والأحرى أن يُوضع في "الكونسرڤاتوار" بين الآلات، وإلصاق اسم "لافاييت" عليه؛ أما الأمير الذي يقذفه الجميع بالأحجار، والذي يحتقر الإنسانية بما يكفي ليبصق في وجهها أي قسَم تطلب، ومنَع تقسيم فرنسا في مؤتمر ڤيينا: مدينون نحن له بأكاليل الغار، ونلطخه بالوحل. آه! أعلم ما يدور، وأنا! لديَّ أسرار نفع الناس! كفى. سيكون لي رأيٌ راسخٌ في ذلك اليوم الذي سأقابل فيه ثلاثة عقول متفقة على استخدام أحد المبادئ، وسوف أنتظر طويلاً. وحتى داخل المحاكم، فلن تجد ثلاثة قضاة يتفقون على رأي واحد فيما يخص إحدى مواد القانون. أعود للتحدث عن الرجل الأثير لديْ. فسيعيد صلب المسيح إن طلبتُ منه ذلك. وبكلمة واحدة من بابا ڤوتران، سيسعى إلى مشاجرة مع ذلك الهزؤة الذي يحرم أخته المسكينة من كل فلس، و..

هنا نهض ڤوتران، أخذ وضع الحذر، تصنع حركة المبارز الذي يتلقى طعنة ثم..

- وفي الظل.. أضاف.

- يا للتعاسة!- قال يوچين- أتريد المزاح يا سيد ڤوتران؟

- على رسلك! اهدأ قليلا، قال الرجل. لا تكن طفلاً: ومع ذلك، فلو كان هذا يسليك، فلتغضب! ولتحتَد! قُل عني إنني دنيء، سافل، وغد، مارق شرير؛ ولكن لا تقل إنني غشاش ولا جاسوس. هيا، قُل، أطلق قذيفتك! أنا أعذرك، فذلك طبيعي مع عمرك! كنت كذلك، أنا نفسي! فقط، عليك بالتفكير. ستفعل ذات يوم ما هو أسوأ. ستتغنج لامرأة جميلة لتحصل على المال. أفكرتَ في مثل هذا؟ قال ڤوتران؛ لأنك كيف ستنجح إذا لم تحسم أمر حبك؟ فالفضيلة- يا عزيزي الطالب- كلٌّ لا يتجزأ، إما موجودة أو بلا وجود. يطلبون منا أن نتوب عن خطايانا. ثمة نظامٌ أجمل من ذلك، نبرأ فيه من جريمة اقترفناها بندمنا على ارتكابها! أن تغوي امرأة لترتقي بك على السُّلم الاجتماعي، أو أن تنثر الشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة، وأخيرًا كل الخسة التي تمارَس في ظل مدفأة، أو بالأحرى بهدف المتعة أو النفع الشخصي: أتعتقد أنها أفعال إيمان ورجاء ورحمة؟ لماذا يُحكم بالسجن شهرين على غندور استلب من طفل نصف ثروته، ذات ليلة، بينما يحكم بالأشغال الشاقة مع تشديد العقوبة على رجل مسكين، إذا ما سرق ألف فرنك؟ تلك قوانينكم. ما مِن مادة تخلو من العبث. لقد ارتكب الرجل ذو القفازات واللسان المعسول جرائم قتل دون أن يريق قطرة دم، لكن تم القتل؛ لقد فتح القاتل بابًا مع أحد السادة: شيئان يحدثان في الليل! وبين ما أقترحه، وما سترتكبه ذات يوم، فلتحذر الدم، على الأقل. إنك مؤمن بشيءٍ ما ثابت في هذا العالم! فلتحتقر البشر إذن، وعينك على المال الذي سيكون وسيلتنا

للتملص من قبضة القانون. فما الثراء الفاحش، الذي لا يُعرف سببه، سوى جريمة منسية لأنها تمت بدقة وإحكام.

ـ صمتًا، يا سيدي، لا أريد أن أسمع المزيد. فأنت تشككني في نفسي. فعاطفتي- في هذه اللحظة- هي كل معرفتي.

ـ على راحتك، يا طفلي الجميل. كنت أظنك أقوى، قال ڤوتران، سأكتفي بهذا. بقيت لي كلمة واحدة، مع ذلك. ركز ناظريه في الطالب: لقد استأمنتك على أسراري.

ـ الشاب الذي رفض مجاراتك يعرف جيدًا كيف ينسى.

ـ جميل ما قلت، وهذا يسرني. واحدٌ غيرك سيكون أقل وسوسة. تذكر ما أريد فعله لك. أمامك أسبوعان. إما أن تأخذ بكلامي، أو تترك الأمر برمته.

"يا لها من رأس حديدية يملكها هذا الرجل!" قال لنفسه راستنياك، وهو يرى ڤوتران يمضي هادئًا تمامًا وعصاه تحت إبطه. "لقد قال لي بفظاظة ما قالته لي السيدة بوزيان في صياغات شكلية. لقد مزق قلبي ببراثن من حديد. فلماذا أود الذهاب إلى السيدة دو نوسنجن؟ لقد قام بتخمين دوافعي ما إن بلورتها. باختصار، فقاطع الطريق هذا أخبرني عن الفضيلة ما لم يقله لي أحدٌ من الناس ولا الكتب! فإذا كانت الفضيلة لا تعاني من التقهقر، أأكون إذن قد سرقت أختي؟" قالها وهو يلقي الكيس على المنضدة. جلس غريقًا في تأمل مذهول. ـ أن تكون مخلصًا للفضيلة، شهيدًا رائعًا! حسنًا! فكل الناس يؤمنون بالفضيلة، لكن مَن منهم الفاضل فعلاً؟ والشعوب تعبد الحرية، لكن أين- على وجه البسيطة- الشعب الحر؟ ما يزال شبابي أزرقَ كسماءٍ بلا غيمة: وأن ترغب أن تكون

عظيمًا أو غنيًّا، أفلا يقود ذلك إلى الكذب، الانحناء، الزحف، النهوض، التملق، والتستر؟ بل أن تكون خدامًا لَمن كذبوا وانحنوا وزحفوا على بطونهم؟ فقبل أن تكون شريكًا لهم، عليك أن تخدمهم. أليس كذلك؟ لا. أريد أن أعمل بنبل وقداسة؛ أن أعمل ليل نهار، وألا أجني شيئًا من ثراء إلا بكدي. ستكون هذه أبطأ ثروة، لكن كل يوم تستقر فيه رأسي على وسادتي لن تراودني أفكار رديئة. أهناك ما هو أجمل من أن يتأمل الإنسان حياته، فإذا بها نقية كزنبقة؟ أنا والحياة، كشاب وخطيبته. لقد استطاع ڤوتران أن يريني ما سيحدث لي بعد عشر سنوات من الزواج. اللعنة! رأسي تتوه. لا أود التفكير في أي شيء، القلبُ دليلٌ جيد.

انتُزع يوچين من أحلام يقظته على صوت سيلڤي السمينة، معلنة قدوم الترزي الذي ظهر أمامه وكيسا النقود ما يزالان في يده، دون أن يرتبك في هذا الموقف. وعندما جرب ملابس المساء، أعاد ارتداء ثياب الصباح، الجديدة، التي جعلت منه شخصًا آخر.

ـ أنا الآن في مقام السيد دو تراي، قال لنفسه، أخيرًا، صار لي سمت الشخص المحترم!

ـ سيدي، قال الأب جوريو وهو يدخل غرفة يوچين. لقد سألتني ما إذا كنت على معرفة بالبيوت التي تتردد عليها السيدة دو نوسنجن.

ـ أجل!

ـ إذن، فهي ذاهبة ـ الاثنين القادم ـ للحفل الراقص لدى الماريشال "كاريجليانو". فإذا ما أمكنك الذهاب، فستخبرني ما إذا كانت فتاتاي هناك تمرحان جيدًا، وماذا كانتا ترتديان. فلتخبرني بكل شيء!

ـ كيف عرفت ذلك، يا أبي الطيب جوريو؟ قال يوچين، وطلب منه أن يجلس عند المدفأة.

ـ أخبرتني وصيفتها. فكل شيء يصلني عن طريق تيريزا وكنستانتين، أجاب مرحًا. كان العجوز يبدو كعاشق ما يزال شابًا، بحيث يسعد بامتلاكه الخطة المحكمة التي تضمن تواصله مع عشيقته دون أن يتطرق إليها الشك. ـ سوف تراهما أنت، بعينيك! قال وقد تحركت في محياه الساذج سيماء رغبة أليمة.

ـ لا أدري، رد يوچين. سأذهب إلى السيدة بوزيان، وأسألها ما إذا كان يمكن أن تقدمني إلى "الماريشالة".

كان يوچين يفكر بنوع من الابتهاج الداخلي، بأنه سيظهر أمام الكونتيسة بملابسه الجديدة. ما يسميه منظرو الأخلاق مهاوي القلب البشري هي بالتحديد الأفكار الخداعة والحركات اللا إرادية للمصلحة الشخصية. وهذه الانقلابات- موضوع عديد من الشكاوى- وتلك التراجعات هي حسابات تمت لصالح استمتاعنا.

وإذ رأى يوچين نفسه أنيقًا مهندمًا، لطيف القفازين لامع الحذاءين، نسي تمسكه بالفضيلة. لا يجرؤ الشباب أن يواجه نفسه في مرآة الضمير، عندما يساند الظلم، لكنما السن الناضج يستطيع أن يفعل: هنا يكمن كل الفارق بين هاتين المرحلتين العمريتين. منذ بضعة أيام، أصبح الجاران- يوچين والأب جوريو- صديقين طيبين. كانت صداقتهما قائمة على أسباب سيكولوجية متجذرة في المشاعر، مناقضة لما بين ڤوتران والطالب. والفيلسوف الجريء الذي يريد التحقق من تأثير عواطفنا على العالم المادي سيجد- بلا شك- أكثر من برهان على ماديتها الفعالة في

العلاقات التي تخلقها بيننا وبين الحيوانات. فأي عالم من علماء الفراسة يمكنه أن يخمن- مثلما يمكن للكلب- ما إذا كان شخصٌ مجهول يحبه أو لا يحبه؟ إن *الذَّرَّات المتماسكة*، وهذا تعبير شائع لدى الجميع، هي إحدى تلك الحقائق الموجودة في اللغات، لنفي الترهات الفلسفية التي ينشغل بها أولئك الذين يحبون نسف قشور الكلمات الأصلية. يشعر المرء أنه محبوب. ويرتسم هذا الشعور على كل شيء، ويجتاز الفضاءات. الحرف روح، هو صدًى أمين للصوت المتكلم الذي تصنفه العقول الرهيفة من بين أغلى كنوز الحب. والأب جوريو- الذي كان شعوره النزق يعلو حتى ذُرى الطبيعة الكلبية- كان قد اشتم التعاطف، والطيبة المستحسنة، والتعاطف الشبابي الذي كان قد اعتمل تجاهه في قلب الشاب. لكن هذا التوحد الناشئ لم يكن مصحوبًا بأية ثقة. فإذا ما كان يوچين قد أعلن عن رؤيته للسيدة دو نوسنجن، فلم يكن ذلك إلا لأنه اعتمد على العجوز الذي سيقدمه لها؛ وكان يأمل أن يكون إفشاء السر في صالحه. ولم يكن الأب جوريو ليحدثه عن ابنتيه إلا بما هو مسموح به له علنًا يوم زيارتيه.

- سيدي العزيز، قال له في اليوم التالي، كيف استطعت الجزم بأن السيدة دو رستو أرادت أن تعرف منك اسمي؟ إن ابنتيَّ تحبانني كثيرًا. أنا أب سعيد. ولكن صهريَّ هما السيئان معي. وأنا لا أريد لهاتين المخلوقتين الغاليتين أن تعانيا من خلافاتي مع زوجيهما؛ ففضلتُ رؤيتهما في السر. وهذا الغموض يمنحني ألف متعة لا يحسها الآباء الآخرون الذين يمكنهم زيارة بناتهم متى شاءوا. أنا، لا أستطيع ذلك. أتفهمني؟ إذن، فأنا أذهب- عندما يكون الجو معتدلاً- إلى "الشانزليزيه"، بعد أن أكون قد سألتُ

الخادمات ما إذا كانت بنتاي ستخرجان. فأنتظرهما على الممر، ويدق قلبي وأنا ألمح السيارتين قادمتين، وأعجب بهما وهما في زينتهما، وإذا بهما تلقيان عليّ أثناء مرورهما ضحكة صغيرة تُذَهِّب الطبيعة، كأنما سقطت عليها أشعة شمس جميلة. وأبقى، فلابد أن تعودا. وأراهما مرةً أخرى! والجوُّ يجعلهما أفضل، تصبحان وردتين. وأسمع حولي: "تلك امرأة جميلة" فيبتهج قلبي. أليسا من دمي؟ أحب الجياد التي تقود عربتيهما، وأود لو كنت الكلب الصغير الذي يحملانه في حجرهما. على سرورهما أحيا. لكل إنسان طريقته في الحب، وطريقتي لا تؤذي أحدًا، فلماذا ينشغل العالم بي؟ إني سعيدٌ على طريقتي. فهل منافٍ للقوانين أن أذهب لرؤية ابنتي، في المساء، لدى خروجهما من منزلهما للذهاب إلى الحفلات الراقصة؟ ويا لألمي إذا ما وصلت متأخرًا، فيقال لي: السيدة خرجت. ذات ليلة، انتظرت حتى الساعة الثالثة فجرًا لأرى "نازي"، ولم أكن رأيتها منذ يومين. لم يكن ينقصني سوى أن أنفجر من السرور. فأرجوك ألا تتحدث عني إلا لو قلت كم هما طيبتان ابنتاي. إنهما تودان لو أغرقتاني بالهدايا. ولكني أمنعهما قائلاً: "حافظا على نقودكما. ماذا تودان أن أفعل بها؟ لا ينقصني شيء". في الحقيقة- يا سيدي العزيز- ماذا أنا؟ أنا جثة كريهة فارقتها الروح لتحوم حول ابنتيَّ. فعندما ترى السيدة دو نوسنجن فقُل لي أي منهما الاثنتين تعجبك أكثر. قال الرجل الطيب بعد لحظة صمت، وهو يرى يوجين يتأهب للذهاب إلى النزهة في "تيلاري"، في انتظار ساعة ذهابه إلى السيدة دو بوزيان.

كانت تلك النزهة مصيرية بالنسبة للطالب. بعض النساء رمقنه بإعجاب. كان في غاية الجمال والشباب، وذا أناقة رفيعة الذوق! وإذ

رأى أنه هدفٌ للإعجاب، ما عاد يفكر في أختيه، ولا في عمته مسلوبة المال، ولا في تقززاته الفاضلة. لمح شيطانًا ـ على هيئة ملاك ـ يحوم حول رأسه، ذلك الشيطان بأجنحته المبرقشة، والذي ينثر الياقوت الأحمر، ويلقي بسهام الذهب على واجهات القصور، ويضرج وجنات النساء، ويكسو بهالة حمقاء العروش، البسيطة في أصولها؛ سمع حفيف هذه الخيلاء التي يتبدى بريقها كرمز للقوة. وكان كلام ڤوتران، الكلبي* نوعًا ما، قد سكن قلبه، مثلما تنحفر في ذاكرة عذراء ملامح شائنة لتاجرة أدوات زينة عجوز، قالت لها: "موجات من ذهب وحُب".

بعد تسكعه المتراخي، وصل يوچين نحو الساعة الخامسة لدى السيدة دو بوزيان، وتلقى هناك إحدى تلك الضربات التي يقف إزاءها القلب الشاب بلا حيلة. تبدت له الكونتيسة مفعمة بالدماثة المهذبة، وبالسماحة المعسولة التي توفرها التربية الأرستقراطية، والتي لا تكتمل إلا إذا صدرت عن القلب.

حينما دخل، أومأت له إيماءة جافة، وقالت له بصوت مقتضب: ـ سيد دو راستنياك يستحيل أن أستقبلك في هذه اللحظة على الأقل! فأنا في عمل..

بالنسبة لمراقب، وهو ما أصبحه راستنياك بسرعة، فتلك الجملة، والإيماءة، والنظرة، وتغيير نبرة الصوت، كانوا يمثلون تاريخ الشخصية وعادات الطبقة. لمح القبضة الحديدية داخل القفاز المخملي؛ الشخصية والأنانية تحت السلوكيات؛ والخشب تحت الورنيش. سمع أخيرًا "نحن

---

* نسبةً إلى الفلسفة الكلبية، أو الرواقية Cynicism؛ الإيمان بأن السلوك البشري تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها، والتعبير عن ذلك عادةً بنبرة ساخرة، تهكمية؛ (المحرر).

الملك" التي تبدأ من تحت ريش العرش، وتنتهي تحت قبعة أصغر "سيد". لقد استسلم يوچين ببساطة مفرطة للاعتقاد في نبالة المرأة. وككل التعساء، وقّع مخلصًا على بنود الميثاق العذب، الذي يتوجب أن يجمع الخيِّر والمعوز، وتضمن المادة الأولى منه مساواةً تامة بين القلوب الكبيرة. فالخير- الذي يوحِّدُ كائنين في واحد- هو عاطفة سماوية غير مفهومة، نادرة شأن الحب الحقيقي. فكلاهما نابع من النفوس الجميلة. وكان راستنياك يود الوصول إلى حفل الدوقة "دو كاريجليانو"، فانحنى أمام الزوبعة.

- سيدتي، قال بنبرة متهدجة، لو لم يكن الأمر بالغ الأهمية، لما جئت إليك وأزعجتك. ولعلك تتكرمين فتسمحين لي بزيارتك في موعد لاحق. وسأنتظر.

- إذن، تعال الليلة للعشاء معي، قالتها مرتبكةً قليلاً من خشونة كلماتها، لأن هذه المرأة كانت حقًّا طيبة وعظيمة.

ورغم أنه تأثر بهذا التراجع المفاجئ، قال يوچين لنفسه: "استكن، وتحمل كل شيء! فماذا ستكون الأخريات، إذا ما مسحت أفضل امرأة- في لحظة- وعودَ صداقتها، وتركتك هنالك كحذاء قديم؟ لن ينفعك سواك، آنذاك. صحيحٌ أن منزلها ليس دكانًا، وقد أخطأت بالاحتياج إليها. لابد أن أكون كطلقة مدفع، كما نصحني ڤوتران". لكن أفكار الطالب المريرة سرعان ما تبددت بتلك الملذات الموعودة في عشائه مع الكونتيسة. هكذا، وبنوع من القدرية، كانت تتواطأ أوهى أحداث حياته على دفعه- وفقًا لملاحظات "أبي هول" دار ڤوكيه، المرعب- إلى درب يكون عليه- كما في ساحة معركة- أن يَقتل كيلا يُقتل، أن يخدع

كيلا يُخدَع؛ أن يترك على الباب ضميره وقلبه، ويضع قناعًا، ويتلاعب بلا رحمة بالناس، وأن تختطف جائزتك- كما كان الحال في سبرطة- دون أن يراك أحد، لتستحق التاج.

وإذ رجع إلى الكونتيسة، وجدها مفعمة بتلك الطيبة الأنيقة التي عهدها فيها دومًا. توجه الاثنان إلى صالة الطعام حيث كان الكونت ينتظر زوجته، وحيث كانت تتألق فخامة المائدة التي دفع بها عصر الإحياء- كما يعرف الجميع- إلى أرفع درجة. لم يعد للسيد دو بوزيان- ككثير من الضجرين- إلا متعة الطعام الفاخر؛ كان- في الحقيقة- شرهًا من مدرسة لويس الثامن عشر ودوق إسكار. وكانت مائدته تقدم نمطين من الترف: ترف الحاوي وترف المحتوَى. ولم يحدث أبدًا أن خطف مشهدٌ كهذا عينَيْ يوچين، الذي كان يتناول عشاءه لأول مرة في أحد تلك المنازل التي تتوارث العظمة. وكانت الموضة قد أبطلت العشاءاتِ التي كانت تختتم- فيما مضى- الاحتفالات الإمبراطورية، حيث كان العسكريون بحاجة إلى التقوية استعدادًا للمعارك التي تنتظرهم داخليًا وخارجيًّا. ولم يكن يوچين قد حضر من قبل سوى الحفلات الراقصة. لكن رباطة جأشه التي كان يمتاز بها في الآونة الأخيرة، بعد أن بدأ في امتلاكها، منعته من الانبهار ببلاهة. وإن كانت رؤية الفضيات المنقوشة، والبذخ بلا مثيل في تلك المائدة الفخيمة، والإعجاب- لأول مرة- بالخدمة بلا صخب، كان من الصعب على شخص مضطرم الخيال إلا أن يفضل حياة الأناقة هذه على حياة الحرمان التي كان ينتوي اختيارها في الصباح. رمى به تفكيره للحظة داخل بنسيونه البرجوازي: انتابه ذعر عميق، فأقسم أن يغادره في شهر يناير، ليعيش في مكان نظيف،

وليهرب- في نفس الوقت- من ڤوتران، الذي كان يحس بيده الضخمة على كتفه.

وإذا ما فكر المرء في الألف شكل التي يتبدى فيها الفساد الباريسي، ناطقًا أو صامتًا، فمن حق الرجل المرهف أن يتساءل بأي ضلال تبني الدولة المدارس، وتحشد فيها الطلبة، وكيف تكون السيدات الجميلات محترمات، وكيف يعرض الصيارفة الذهب ولا يتم سرقته بصورة خفية من صحونه الخشبية. لكننا- إذا ما فكرنا في أنه لا وجود إلا للقليل من الأمثلة على الجرائم، بل حتى الجنح التي يرتكبها الشبان- فأي احترام يتوجب أن نكنه لهؤلاء "التانتاليين"* الصبورين، الذين يحاربون أنفسهم، ودائمًا ما ينتصرون تقريبًا! وإذا ما كان مرسومًا جيدًا في صراعه مع باريس، فسيكون الطالب المسكين أحد الموضوعات الأكثر درامية في حضارتنا الحديثة. كانت السيدة دو بوزيان تنظر عبثًا إلى يوچين، لتحثه على الكلام، لكنه لم يشأ أن ينطق بكلمة في حضور الكونت.

- ستأخذني هذا المساء إلى "مسرح الإيطاليين"؟ سألت الكونتيسة زوجَها.

- ليس بإمكانك الشك في السرور الذي يتملكني بتلبية طلبك، رد بلباقة تهكمية لم يتوصل إليها يوچين، لكني مضطرٌ لمقابلة أحد الأشخاص في "الڤارايتيه".

- عشيقته، قالت لنفسها.

---

* نسبةً إلى تانتالوس، ملك عاقبته الآلهة- في الأساطير الإغريقية- بأن غُمر إلى ذقنه في الماء، وقد تدلت الأغصان المثقلة بالفاكهة قُرب شفتيه. لكن كلاً من الماء والفاكهة كان يرتد بعيدًا عنه، كلما حاول بلوغه؛ (المحرر).

ـ إذن، فليس لديك "داجودا"، هذا المساء؟ تساءل الكونت.

ـ لا، أجابت بتبرم.

ـ حسنًا! إذا كان ما ينقصك ذراع، فخذي إذن ذراع السيد دو راستنياك.

ألقت الكونتيسة نظرة على يوچين، وهي تبتسم.

ـ سيعرضك ذلك للشبهات، قالت.

ـ *الفرنسي يحب الأخطار، إذ يجد فيها المجد*، هذا ما قاله السيد شاتوبريان*، أجاب راستنياك وهو ينحني.

ولم تمض لحظات حتى كان إلى جوار السيدة دو بوزيان في عربة مقفلة تنهب الأرض، أوصلتهما إلى مسرح حديث الطراز، وراح يفكر في عالم الجن، ودخل مقصورة في الواجهة، حيث يكون هدفًا لكل المناظير معًا، مع الكونتيسة، التي كانت زينتها فاتنة. كان ينتقل من افتتان لافتتان.

ـ عندك ما تريد أن تقوله لي، قالت السيدة دو بوزيان، آه! انظر. تلك هي السيدة "دونوسنجن" عن بُعد ثلاثة مقاصير من مقصورتنا. أختها والسيد دو تراي في الجانب الآخر.

ولدى نطقها بهذه الكلمات، كانت الكونتيسة تنظر إلى المقصورة التي تخص الآنسة "دو روشفيد". وإذ لم تجد السيد داجودا، التمع وجهها بألق فريد.

ـ رائعة، قال يوچين، بعد أن ألقى نظرة على السيدة دو نوسنجن.

---

* شاتوبريان **Chateaubriand** (1768ـ 1848): كاتب وسياسي فرنسي. من أهم أعماله "أتالا"، "رونيه"، ملحمة "الشهداء" ويُعتبر أب الرومانتيكية في فرنسا.

ـ أهدابها بيضاء.

ـ أجل. أي قوام نحيل جميل!

ـ يداها ضخمتان!

ـ يا لجمال عينيها!

ـ لها وجه ممطوط.

ـ لكن الشكل الممطوط له تميزه.

ـ إنها لمحظوظة أن تكون كذلك. انظر كيف أمسكت نظارتها ثم تركتها! إن جوريو كامنٌ في كل حركاتها، قالت الكونتيسة لدهشة يوچين الكبرى.

في الواقع، كانت السيدة دو بوزيان تجول بنظارتها في الصالة، وكأنها لا تولي أدنى اهتمام بالسيدة دو نوسنجن، وإن لم تفتها ـ رغم ذلك ـ حركة من حركاتها. كان الحفل جميلا متقنًا رائعًا. ولم تكن دلفين دو نوسنجن قليلة المكر في شَغلها تمامًا للشاب الجميل الأنيق، ابن عمومة السيدة دو بوزيان، الذي لم يكن يحول عينه عنها.

ـ إذا ما داومت تغطيتها بنظراتك، فسوف تحدث فضيحة يا سيد دو راستنياك. ولن تنجح أبدًا في شيء، إذا ما ألقيت بنفسك هكذا على رؤوس الناس.

ـ ابنة عمومتي الغالية، قال يوچين، لقد حميتني خير حماية. وإذا ما رأيتِ أن تكملي جميلك، فإني طالب منكِ خدمة تتعبكِ قليلاً، وتعود علي بالنفع. لقد هويت!

ـ فعلاً؟

ـ نعم.

ـ وتلك السيدة؟

ـ كيف يمكن لأحد سواك أن يسمع مناشداتي؟ قال وهو يطلق إحدى نظراته الثاقبة إلى ابنة عمومته. السيدة الدوقة "دو كاريجليانو" مرتبطة بالسيدة الدوقة "دوبري"، قال بعد توقف قصير. فعليكِ بزيارتها، والتحلي بالطيبة لتقديمي لديها، وتصحبينني إلى الحفل الذي ستقيمه يوم الاثنين القادم. سأقابل فيه السيدة دو نوسنجن، وسأبدأ أولى مناوشاتي!

ـ برحابة صدر! قالت. إن كنت تحس بميل إليها، فستكون شؤون القلب عندك على ما يرام. ها هي "دو مرساي" في مقصورة الأميرة "جالاتيون". السيدة "دونوسنجن" معذبة، ومغتاظة. ولا توجد لحظة أكثر مناسبةً من هذه لاقتحام امرأة، خصوصًا زوجة رجل بنوك. فهؤلاء السيدات من "شوسيه دانتان" يحببن الانتقام.

ـ ماذا كنتِ فاعلةً إذن في موقف مشابه؟

ـ أنا؟ كنت أتعذب في صمت!

يظهر ـ في هذه اللحظة ـ الماركيز "داجودا" في مقصورة السيدة دو بوزيان.

ـ أنهيت أعمالي بتسرع لأتمكن من المجيء إليك، قال، وإن كنت أذكر لك أن مجيئي لا يمثل تضحية من جانبي.

كشف وهج وجه الكونتيسة ليوچين أنه يرى تعبيرات حب حقيقي، مختلف تمامًا عن تصنعات الدلال الباريسية. أُعجب بابنة عمه، فالتزمَ الصمت تاركًا مكانه للسيد "داجودا" وهو يتنهد: "أية نبالة! أي كائن سامٍ هو المرأة وهي تحب هكذا! قال لنفسه. ويخونها ذلك الرجل من أجل دمية! كيف يمكن أن تخان هذه؟. شعر في قلبه بغضب طفولي. تمنى لو جثا

تحت قدمي السيدة دو بوزيان، وود لو كانت له قوة الشياطين ليحملها في قلبه، كما يحمل النسر من الوادي إلى الفضاء عنزة بيضاء ما تزال رضيعة. وشعر بالخزي لكونه في متحف الجمال هذا دون أن تكون له لوحة، دون أن تكون له عشيقة. أن تكون له عشيقة ووضع شبه ملكي- قال لنفسه- تلك علامة القوة! ونظر إلى السيدة دو نوسنجن كما ينظر شخص مهان إلى خصمه. استدارت الكونتيسة إليه لتشكره ألف مرة بغمزة من عينيها على تكتمه. وكان الفصل الأول قد انتهى.

- أنت تعرف السيدة دو نوسنجن بما يكفي لتقدم لها السيد دو راستنياك! قالت للماركيز "داجودا".

- وأعتقد أنها ستسعد بمعرفة السيد، قال الماركيز.

نهض البرتغالي الوسيم، وأخذ بذراع الطالب الذي- في رفة جفن- وجد نفسه بجوار السيدة "نوسنجن".

- سيدتي البارونة! قال الماركيز، يشرفني أن أقدم لك الفارس يوچين دو راستنياك، ابن عمومة الكونتيسة دو بوزيان. لقد أثرتِ فيه عاطفة جياشة، فأردتُ استكمال سعادته بتقريبه من معبودته.

قيلت تلك الكلمات بلهجة ساخرة، مما جعل الفكرة تتبدى فظة إلى حدٍّ ما، لكنها- إذ تخفت تمامًا- لم تكن لتزعج أبدًا أية امرأة. ابتسمت السيدة دو نوسنجن وقدمت ليوچين مكان زوجها الذي غادر منذ قليل.

- لا أجرؤ على أن أعرض عليك البقاء بجواري يا سيدي، قالت له. فمن يكون له سعادة البقاء بجوار السيدة دو بوزيان سيبقى.

- ولكن، همس يوچين، يبدو لي سيدتي أنني إذا ما أردت أن أرضي ابنة عمي، فليكن ذلك بقربي منكِ. فقبل وصول السيد الماركيز، كنا

نتحدث عنك وعن تميُّز شخصيتك، قالها بصوت مسموع.

انسحب السيد "داجودا".

- أحقًا، يا سيدي، قالت البارونة، ستكون بقربي؟ سنتعارف إذن، وقد أذكت السيدة دو رستو فيَّ الرغبة لأقابلك.

- لم تكن صادقة، فقد أغلقت باب منزلها دوني.

- كيف ذلك؟

- من الممكن أن أخبرك صراحةً بالسبب، يا سيدتي، لكني أستميحك عذرًا أن تعفيني من ذلك. أنا جار السيد والدك. وكنت أجهل أن السيدة دو رستو ابنته، واندفعت في حديث معه عنها ببراءة بالغة! فأغضبت السيدة أختك وزوجها. ولن تتخيلي كيف أن السيدة الدوقة "دو لنجيه" وابنة عمي قد وجدتا في هذا الإجحاف البَنَوي فساد ذوق. لقد حكيت لهما المشهد فضحكتا كمجنونتين. وبالتالي، انعقدت المقارنات بينك وبين أختك، وحدثتني السيدة دو بوزيان بكل وضوح قائلة إنك كنت ممتازة مع جاري السيد جوريو. فكيف لا تحبينه؟ فهو يكن لك من الحب ما يجعلني أشعر بالغيرة. لقد تحدثنا عنك هذا الصباح لمدة ساعتين. ثم، هذا المساء، وأنا متشبع بما حكاه لي والدك، قلت لابنة عمي- ونحن نتعشى- إنك لا تستطيعين إلا أن تكوني جميلة بقدر ما أنتِ محِبة. وقد اصطحبتني إلى هنا السيدة دو بوزيان لتأكيد إعجابها الدافئ، فقالت لي- بطريقتها الفاتنة- إنني سألقاكِ.

- كيف، يا سيدي، قالت زوجة رجل البنك، أدين لك الآن بالعرفان؟ بعد قليل، سنكون كأننا صديقان قديمان!

- رغم أن الصداقة بقربك شعور ليس معتادًا كثيرًا، قال راستنياك،

فإنني لا أريد أبدًا أن أكون صديقك!

تبدو مثل تلك الهراءات النمطية- التي تصدر عن المبتدئين- ساحرة دائمًا للنساء، ولا تبدو ركيكة إلا عندما تُقرأ ببرود. إلا أن نظرات الشاب ولفتاته ولمحاته ونبرته كانت تعطيها قيمة لا حد لها. وجدت السيدة دو نوسنجن راستنياك ساحرًا. وكما تفعل النساء، عندما لا يعرفن ما يقلن بخصوص مسائل مطروحة بحرارة، كتلك التي يطرحها الطالب، فإنها تجيب على شيء آخر.

- أجل. تخطئ أختي بطريقة معاملتها لهذا الأب البائس، الذي كان إلهًا بالنسبة لي ولها. وكان على السيد دو نوسنجن أن يأمرني- بصورة إيجابية- بألا أرى أبي إلا في فترة الصباح، وقد سلمتُ بذلك. لكنني ظللت في منتهى التعاسة زمنًا طويلا. كنت أبكي. وكانت تلك القسوة- التي أعقبت فظاظة الزواج- أحد الأسباب التي عكرت حياتي. من المؤكد أن المرأة الباريسية الأكثر سعادة في عيون الجميع، هي أشدهن تعاسة في واقع الأمر. ربما تتهمني بالجنون لأني أبوح لك بذلك. لكنك تعرف أبي، وبذلك، فأنت لست غريبًا عني.

- لن تجدي أبدًا شخصًا، قال لها، مشتعل الرغبة في أن ينتمي إليكِ مثلي. فما الذي تصبُون إليه، جميعكن؟ السعادة، نطقها بصوت ينفذ إلى الروح. حسنًا! فإذا كانت السعادة- بالنسبة لأية امرأة- تكمن في أن تكون محبوبة، معشوقة، وأن يكون لها صديق يمكنها أن تستودعه رغباتها ونزواتها وأحزانها وأفراحها؛ أن يتجلى في عُري روحه مع عيوبها الجميلة ومميزاتها الفاتنة، بلا خوف من خيانة؛ صدقيني، فذلك القلب المخلص المتوقد أبدًا لا يمكن أن يتوفر إلا لدى شاب مفعم بالخيالات، ويمكنه أن

يموت لدى إشارة من إصبعك، لا يعلم شيئًا عن العالم ولا يريد، لأنكِ أنت العالم كله بالنسبة له. أنا- كما ترين، فالضحك يرتسم على وجهك من سذاجتي- قادم من أعماق إقليم بريء تمامًا، لا يعرف سوى نفوس جميلة، وكنت أعتزم البقاء بلا حب. واتفقَ لي أن زرت ابنة عمي التي قربتني كثيرًا من قلبها، وجعلتني أخمن الكنوز الألف للعاطفة، إن مثلي مثل "شيربيانو" عشيق جميع النساء، في انتظار أن أستطيع الإخلاص لواحدة منهن. وإذ رأيتك لحظة دخولي، شعرت بي مأخوذًا إليك كما لو كان يدفعني تيارٌ ما. لقد فكرت فيك كثيرًا قبل اليوم! لكني لم أتخيلك- ولا في الأحلام- بهذا القدر من الجمال في الواقع. لقد زجرتني السيدة دو بوزيان بألا أنظر إليك كثيرًا هكذا! فهي لا تدري جاذبية شفتيك الحمراوين الجميلتين، ولا بشرتك الشفافة، ولا عينيك العذبتين. وأنا! أنا أيضًا أقول حماقات لك، لكني أرجوك أن تدعيني أقولها.

لا شيء يروق النساء أكثر من سماعهن همسًا لهذا الكلام العذب. وأكثر المتشددات منهن لا يملكن سوى الإصغاء، حتى لو لم يملن للرد عليه. أما راستنياك، فبعد أن بدأ مثل هذه البداية، تابع ترتيلته بوشوشة مغناج؛ وكانت تشجعه بابتساماتها، وهي تنظر- بين الفينة والفينة- إلى "مارساي" الذي لم يغادر مقصورة الأميرة "جالايتون". وظل راستنياك بجوار السيدة دو نوسنجن حتى عاد زوجها ليصحبها.

- سيدتي، قال لها يوچين، سيسعدني أن آتي لأزورك قبل حفل الدوقة "كاريليانو" الراقص.

- *إذا كانت السيدة قد دعتك*، قال البارون بنبرة ألزاسية ثقيلة، كانت إيماءاتها تعلن عن رهافة خطرة، *فتأكد أنك ستُستقبل بشكل جيد*.

ـ تجري أموري على قدم وساق، لأنها لم تجفل عندما سمعتني أقول: "هل ستحبينني كثيرًا؟" لقد تم وضع الشكيمة لحيوانتي، فلنقفز ولنسيطر عليها، قال يوچين وهو ذاهب يحيي السيدة دو بوزيان التي كانت قد نهضت، وانسحبت مع "داجودا". ولم يعرف الطالب البائس أن البارونة كانت شاردة، في انتظار رسالة حاسمة من "مارساي" تفتت القلب. في غاية السعادة بنجاحه، اصطحب يوچين الكونتيسة حتى باحة الأعمدة، حيث ينتظر كلٌ منهما عربته.

ـ ابن عمومتك لم يعد يشبه ذاته، قال البرتغالي للكونتيسة ضاحكًا، بعد أن تركهما يوچين. إنه سيجعل البنك يتبدد! إنه ناعم كثعبان الماء، وأظن أنه سيمضي بعيدًا. أنت وحدك استطعت أن تختاري له بكل دقة امرأة في اللحظة التي كان يتوجب تعزيتها.

ـ ولكن، قالت السيدة دو بوزيان، لابد أن نعلم ما إذا كانت ما تزال تعشق الرجل الذي يهجرها.

عاد الطالب من المسرح الإيطالي إلى شارع "نوڤ-سانت-جانڤياڤ" مشيًا على قدميه، وهو يضع أجمل المشاريع. لقد لاحظ جيدًا الاهتمام الذي كانت تتفحصه به السيدة دو رستو، سواء في مقصورة الكونتيسة أو مقصورة السيدة دو نوسنجن، فاعتبر أن باب الكونتيسة لن يُغلق في وجهه بعد اليوم. وها هي أربع علاقات كبرى- لأنه كان ينوي أن يحظى بإعجاب "الماريشالة"- ستضعه في قلب الطبقة العليا الباريسية. ودون أن يشرح لنفسه مطولاً الوسائل، كان يخمن مقدمًا أنه- في اللعبة المعقدة للمصالح في هذا العالم- يتوجب التعلق بترس للصعود إلى أعلا الآلة،

وكان يستشعر القوة لتثبيت العجلة الدائرة. "إذا ما اهتمت بي السيدة دو نوسنجن، سأعلمها كيف تحكم زوجها. فزوجها يدير أعمالا من ذهب، ويمكنه أن يعينني على لملمة ثروة طائلة فجأة". لم يكن يقول ذلك لنفسه بفظاظة، فلم يكن بعد سياسيًّا بما يكفل له تقدير الموقف والتثمين والحساب؛ فهذه الأفكار كانت تطفو على الأفق كسحابات خفيفة، ورغم أنها ليست في فظاظة أفكار ڤوتران، إلا إنها لو أُدخلت مجمرة الضمير، فلن تجد ما تقدمه من خير صاف. يصل الناس- عبر سلسلة من العمليات من هذا النوع- إلى هذه الأخلاق المتراخية، التي يتسم بها العصر الحالي، حيث يندر- أكثر من أي عصر- وجود رجال كالزوايا القائمة، ذوي إرادات جادة، لا يميلون أبدًا إلى الشرور، وأي انحراف عن جادة الصواب يعتبر في نظرهم جريمة: صور رائعة من الاستقامة تم تصويرها في تحفتين مبهرتين: "ألسيست" رائعة "موليير" ثم مؤخرًا "چيني دينز ووالدها" رائعة "والتر سكوت". والعمل المعاكس، رسم الالتواءات التي يتواجد فيها رجل المجتمع، والطموح الذي يدحرج ضميره، محاولاً تفادي الشر، ليصل إلى هدفه، محتفظًا بالمظاهر، لن يكون أقل جمالاً ولا درامية.

وإذ وصل إلى عتبة البنسيون، كان راستنياك مأخوذًا بالسيدة دو نوسنجن، التي كانت تبدو له رشيقة رهيفة كما السنونوة. العذوبة المسكرة لعينيها، والملمس الرهيف الناعم لبشرتها التي كان يظن أنه يرى تحتها انسياب دمها، الرنين الأغن لصوتها، شعرها الأشقر، كان يستعيد كل شيء؛ وربما كان المشي- الذي جعل دمه في حالة جريان- قد ساعد في هذا الافتتان. طرق الطالب بقوة باب الأب جوريو.

ـ يا جاري، قال، لقد رأيت السيدة دلفين.

ـ أين؟

ـ في مسرح الإيطاليين.

ـ أكانت تستمتع بوقتها كما ينبغي؟ تفضل بالدخول. وفتح الرجل الطيب ـ الذي كان قد نهض في قميص نومه ـ ليرقد في الحال.

ـ حدثني عنها، إذن.

كانت المرة الأولى التي يدخل فيها يوچين غرفة الأب جوريو، فراعته الحقارة التي كان يعيش فيها الأب، بعد إعجابه بترف ابنته. كان الشباك بلا ستارة؛ وتقشر ورق الحائط ـ في مواضع عدة ـ بفعل الرطوبة، وتقلص ليكشف عن الجبس المصفَر بفعل الدخان. كان الرجل الطيب ممددًا على سرير رديء، ليس عليه سواء غطاء هزيل، ولحاف مصنوع من بقايا فساتين السيدة ڤوكيه. أرضية الغرفة رطبة متربة. وفي مواجهة النافذة، ثمة خزانة عتيقة من خشب الورد منبعجة البطن، ذات مقابض نحاسية مبرومة على شكل ساق كرمة، مزينة بأوراق أو زهور؛ ومنضدة خشبية متهالكة عليها دورق ماء في حوض صغير وكل الأدوات اللازمة لحلاقة الذقن. وفي أحد الأركان الأحذية؛ وعند رأس السرير، منضدة بلا بابَ ولا رُخام؛ وفي ركن المدفأة ـ التي لم تكن بها آثار لنار ـ ثمة منضدة مربعة من خشب الجوز، التي استخدم الأب جوريو قائمتها في تحطيم جفنته الفضية. وثمة مكتب فظ عليه قبعة الرجل الطيب، ومقعد كبير من قش، وكرسيان يكتمل بهما الأثاث البائس. عمود السرير المثبت بالأرضية بخرقة، كان يسندِ شريطًا رديئًا من القماش ذا مربعات حمراء وبيضاء. إن أشدَّ التجار بؤسًا كان بالتأكيد أقل رداءةً في أثاثه مما كان

عليه أثاث جوريو لدى السيدة ڤوكيه. كان مظهر الغرفة يبث البرد ويقبض القلب. كانت أشبه بأشد حجرات السجون كمدًا. ولحسن الحظ فلم يلحظ جوريو التعبير الذي ارتسم على وجه يوچين، عندما وضع له شمعة على منضدة السرير. استدار الرجل على جنبه، وظل متغطيًا حتى ذقنه.

ـ حسنًا! أخبرني، أيهما تحب أكثر؟ السيدة دو رستو، أم السيدة دو نوسنجن؟

ـ أفضل السيدة دلفين، أجاب الطالب، لأنها تحبك أكثر.

إزاء هذا الحديث المفعم بالحرارة، أخرج الرجل الطيب ذراعه من تحت الغطاء، وشد على يد يوچين.

ـ شكرًا جزيلاً، تهدج صوت العجوز، فما الذي قالته لك عني؟

أعاد الطالب أقوال البارونة وقد جملها، واستمع إليه العجوز كما لو كان يتنزل عليه وحيٌ من السماء.

ـ نعم، نعم! يا بني العزيز، هي تحبني حقًّا. ولكن لا تصدق ما قالته لك بشأن أنستازي؛ فالأختان تغار الواحدة منهما من الأخرى، وهذا برهان حنانهما. السيدة دو رستو تحبني كثيرًا هي الأخرى. أعلم ذلك. فالأب مع أطفاله كالرب معنا، يتغلغل إلى سويداء القلب، ويطلع على النوايا. الاثنتان محبتان. آه! لو أني حصلت على صهرين طيبين لكنت بالغ السعادة. وبلا شك، فلا سعادة كاملة على هذه الأرض. وإذا ما كنت قد عشت لديهما، أن أسمع صوتهما، أن أعلم أين هما، أن أراهما ذاهبتين أو خارجتين كما كان الأمر وهما في بيتي، لكان هذا ما يسعد القلب. هل كانت ملابسهما رائعة؟

ـ أجل، قال يوچين، ولكن يا سيد جوريو، كيف ـ ولك ابنتان غنيتان تمامًا كهاتين ـ كيف يمكنك الإقامة في غرفة سيئة كهذه؟

ـ في الواقع، قال واللامبالاة تغطي وجهه، ما الذي سيفيدني أن أعيش بشكل أفضل؟ لا أستطيع أن أشرح لك هذه الأشياء؛ فلساني ما عاد بإمكانه نطق جملتين سليمتين. كل شيء مدخرٌ هنا! وضرب على صدره جهة القلب. حياتي التي تخصني تكمن في ابنتيَّ الاثنتين. فإذا ما كانتا مسرورتين، سعيدتين، ترتديان أفخر الثياب، وأقدامهما تغوص في السجاد، فما الذي يهمني من ملبس أو مضجع؟ فأنا لا أشعر بالبرد إذا ما نعمتا بالدفء، ولا تأتيني الهموم أبدًا إذا ما كانتا تضحكان. لا همَّ لي سوى همهما. عندما تصير أبًا، وترى أطفالك حولك يغنون ستقول لنفسك: "هؤلاء خرجوا من صُلبي" وتشعر بهذه المخلوقات الصغيرة مرتبطة بكل قطرة من دمك، الذي هم زهرته، لأن الأمر كذلك! فأنت تعتقد أنك مشدودٌ إلى بشرتهم، وتعتقد أن حركتك مرهونة بخطاهم. إن صوتهما يأخذني إلى كل مكان. ونظرة من عين إحداهن ـ إذا ما كانت حزينة ـ تجمد الدم في عروقي. ذات يوم، ستعرف أن المرء يكون أسعد بسعادتهم من سعادته هو بسعادته. لن أستطيع أن أشرح لك ذلك: إنها تيارات داخلية تنتشر بحرية في جميع الأرجاء. وفي النهاية، فإنني أعيش ثلاث حيوات. أتود أن أقول لك شيئًا هزليًّا؟ حسنًا! عندما صرت أبًا، فهمتُ الله. إنه موجود في كل شيء مادامت الخليقة قد صدرت عنه. وأنا ـ يا سيدي ـ هكذا مع ابنتيَّ. الفرق أنني أحب ابنتيَّ فوق ما يحب الرب العالم؛ لأن العالم ليس جميلاً مثل الرب؛ أما ابنتاي فهما أجمل مني بكثير. إنهما تأخذان بتلابيب روحي، حتى أن قلبي كان يحدثني أنك ستراهما

الليلة. يا إلهي! إن الرجل الذي يسعد ابنتي "دولفين" كزوجة، كما يتوجب أن تكون عليه السعادة، أورنشُ له حذاءه، وأتفانى في خدمته. علمت من وصيفتها أن هذا السيد الصغير "دو مارساي" كلبٌ حقير. فنازعتني نفسي أن أقصف رقبته. أفلا تُحَب جوهرة النساء؟ وشدو البلابل؟ كأنها المثال! فأين كانت عيناها حين ارتضت بهذا الألزاسي السمين زوجًا لها؟ كان يتعين على الاثنتين أن تحظيا بزوجين شابين وسيمين محبوبين. وفي النهاية، حققتا نزواتهما!

كان الأب جوريو ساميًا. لم يسبق لـ"أوجين" أن رآه متضوئًا بنيران عاطفته الأبوية هكذا. شيءٌ وحيدٌ جديرٌ بالملاحظة هو قوة البث التي تملكها المشاعر. فأيًا ما كانت فظاظة مخلوقٍ ما، فإنه- من اللحظة التي يعرف فيها عاطفة قوية حقيقية- ينضح السائل الخاص الذي يغير مظهره ولمحاته ويلون نبرة صوته. وكثيرًا ما يصل الكائن الأكثر غباءً- بتأثير العاطفة- إلى أرقى بلاغة في الفكر، إن لم يكن في اللغة، فيبدو كأنه سابح في مجال نوراني. وقد كانت في هذه اللحظة- في صوت وإشارات هذا الرجل الطيب- القدرة التواصلية التي تميز الممثل القدير. ألست معي في أن مشاعرنا الجميلة ليست سوى قصائد الإرادة؟

- حسنًا! إنك لن تغضب إذن عندما تعلم، قال له يوچين، إنها بلا شك ستقطع علاقتها مع "دو مرساي" هذا، فهذا الصِّهر تركها ليرتبط بالأميرة "جالانتيون". أما أنا، فقد وقعت هذا المساء في حب السيدة دلفين.

- باه! هتف الأب جوريو.

- أجل. أنا لم أرُق لها. لقد تبادلنا حديثًا عن الحب خلال ساعة،

وسأذهب لزيارتها السبت القادم، بعد غد.

ـ أوه! كم سأحبك ـ يا سيدي العزيز ـ إذا ما رُقت لها. أنت شخص طيب، ولن تعذبها أبدًا. وإذا ما خنتها قطعت رقبتك أولاً. والمرأة لا يكون لها حبيبان، أتفهمني؟ يا إلهي! إنني أهذي يا سيد يوچين. الجو باردٌ عليك هنا. يا إلهي! إذن، فقد استمعت لها، فأخبرني إذن ما الذي قالته لك عني.

ـ لا شيء، قال لنفسه يوچين، قالت لي، رد بصوت عال، إنها تبعث إليك قبلة ابنةٍ رائعة.

ـ إلى اللقاء، يا جاري. اهنأ بنومك، واحلم أحلامك السعيدة؛ فأحلامي جميعها صنعتها هذه الكلمة. وليحفظك الله في جميع رغباتك! فقد كنت لي ـ هذه الليلة ـ ملاكًا، وحملتَ إليَّ أنفاس ابنتي.

ـ يا للرجل المسكين! قال يوچين وهو يرقد، فلديه ما يذيب قلبًا من حجر. وابنته لم تعد تفكر فيه إلا بقدر ما تفكر في "السلطان التركي".

منذ تلك المحادثة، والأب جوريو يرى في جاره هذا صديقا مُلهمًا، مؤتمنًا. وربطت بينهما العلاقات التي يمكنها الوصل بين هذا العجوز وأي إنسان آخر. ولا تفضي العواطف إطلاقًا إلى حساب خاطئ. وكان الأب جوريو يُرَى ـ بعد قليل ـ قريبًا جدًّا من ابنته دلفين، ويحسن استقباله، كلما أصبح يوچين عزيزًا على قلب البارونة. ومن ناحية أخرى، فقد باح له بأحد عذاباته. فالسيدة دو نوسنجن ـ التي يتمنى لها والدها الخير ألف مرة في اليوم ـ لم تعرف ملذات الحب. وبالتأكيد، كان يوچين ـ لكي يستخدم تعبيره ـ أحد ألطف الشبان الذين رآهم في حياته، ويبدو أنه كان يستشعر أنه سيمنحها كل المسرات التي حرمت منها. وأكنَّ الرجل لجاره

صداقة ستتنامى، وبدونها- بلا شك- كان سيستحيل علينا معرفة حل عقدة هذه الرواية.

صباح اليوم التالي، أثناء تناول الفطور، أدهش نزلاء البنسيون المحبةُ التي كان ينظر بها الأب جوريو إلى يوچين، الذي اختار أن يجلس إلى جواره، والكلمات التي قالها له، وتغير وجهه الشبيه عادةً بقناع من جبس. أما ڤوتران، الذي كان يرى الطالب لأول مرة بعد حديثهما، فكان يبدو كأنه يريد قراءة روحه. ولما تذكر المشروع الذي اقترحه ذلك الرجل، راح يوچين- قبل أن ينام- يقيس الامتداد الشاسع للأفق الذي كان ينفتح أمام ناظريه، وفكر بالضرورة في مَهر الآنسة تايفيه، ولم يستطع الامتناع عن النظر لڤكتورين، كما يمكن لأكثر الشبان فضيلة أن ينظر إلى وريثة غنية. التقت عيونهما، صدفة. لم تنكر الفتاة البائسة أنها رأته ساحرًا في بذلته الجديدة. ولمحة العين التي تبادلاها كانت دالة لتؤكد لراستنياك أنه بلا شك موضوع تلك الرغبات المبهمة التي تجتاح الفتيات وتتعلق بأول كائن فاتن. صاح بداخله صوت: "ثمانمئة ألف فرنك!" لكنه انغمر فجأة بذكريات البارحة، وفكر أن عاطفته الغلابة تجاه السيدة "دونوسنجن" كانت ترياقًا يقيه من أفكاره الرديئة اللا إرادية.

- بالأمس، عرض مسرح الإيطاليين "حلاق أشبيلية" لـ"روسيني". لم أسمع في حياتي قط موسيقى بهذه العذوبة، قال، يا إلهي! لكم سعدنا بحصولنا على مقصورة في هذا المسرح.

راح الأب جوريو يتتبع- في الهواء- هذا الكلام، كما يتتبع الكلب حركات سيده.

ـ أنتم، معشر الرجال، كالديوك المرفهة ـ قالت السيدة ڤوكيه ـ تفعلون كل ما يحلو لكم.

ـ وكيف رجعت من هناك؟ سأل ڤوتران.

ـ سيرًا على الأقدام، أجاب يوچين.

ـ أنا، قال المعيد، لا أحب أنصاف الملذات؛ أحب الذهاب إلى هناك في عربتي وأستقر في مقصورتي، وأعود على كفوف الراحة. كل شيء أو لا شيء: هذا شعاري.

ـ وهو الشعار الأمثل، قالت السيدة ڤوكيه.

ـ ربما تذهب لزيارة السيدة دو نوسنجن، قال يوچين لجوريو بصوت خفيض، بالتأكيد ستتلقاك بذراعين مفتوحتين؛ وهي تريد منك معرفة ألف تفصيلة صغيرة عني. عرفت أنها يمكن أن تفعل أي شيء في العالم، لكي تستقبلها ابنة عمي السيدة الكونتيسة دو بوزيان. فلا تنس أن تخبرها أنني مولعٌ بها، إلى حد التفكير في تحقيق رغبتها تلك.

انطلق راستنياك مسرعًا إلى مدرسة الحقوق، كان يود أن يقلل من وقت مكوثه في هذا البنسيون الكريه. ظل يتسكع طوال النهار تقريبًا، فريسةً لحمَّى الدماغ تلك التي يعرفها الشبان الذين تضربهم الآمال الكبرى. جعلته حجج ڤوتران يفكر في الحياة الاجتماعية، في اللحظة التي قابل فيها صديقه "بيانشو" في حديقة اللكسمبورج.

ـ إلى أين تأخذك سحنتك المقلوبة؟ سأله طالب الطب، وقد أمسك بذراعه ليتنزها سويًا أمام القصر.

ـ إن أفكارًا سيئة تعذبني.

ـ ما نوعها؟ فالأفكار لها علاج.

ـ كيف؟

ـ بالاستسلام لها.

ـ تضحكُ منِّي دون أن تعرف ما هي أفكاري. هل قرأت "روسُّو"؟

ـ نعم.

ـ هل تذكر ذلك الجزء الذي يسأل فيه القارئ ما الذي يمكن أن يفعله في حال ما إذا أمكنه أن يغتني إذا ما قُتل في الصين بأمره موظفٌ كبيرٌ، دون أن يتحرك. هو من باريس؟

ـ أجل.

ـ إذن؟

ـ يااااه! إنني الآن في الصيني الثالث والثلاثين من هؤلاء.

ـ لا تمزح. أجبني، إذا ما كان كل شيء مهيأً، ولا يحتاج إلا لإيماءة رأس، فهل تفعل؟

ـ أهو عجوزٌ تمامًا، هذا الموظف؟ ولكن باااه! عجوز أم شاب، أم حتى مُقعد. الواقع.. يا للشيطان! أبدًا.. لا.

ـ أنت ولد طيب يا بيانشون، ولكن إذا ما كنت تحب امرأة بما يكفي لأن ترمي بروحك إلى الجحيم، ويلزمها المال، مالٌ كثيرٌ لزينتها، لعربتها ولجميع نزواتها في النهاية؟

ـ لكنك تذهب بعقلي، وتريدني أن أعقل.

ـ فليكن، يا بيانشون، أنا مجنون فاشفني. لي أختان في براءة وجمال الملائكة. وأريد لهما السعادة. فمن أين أحصل على "مَهر" لهما قدره مئتا ألف فرنك، من الآن وحتى خمس سنين؟ إن في الحياة ـ كما ترى ـ ظروفًا تدفعك إلى المغامرة الصعبة، بدلاً من استهلاك حياتك في جني بضع

فلوس.

ـ لكنك تطرح السؤال الكائن في بداية حياة كل إنسان، وتريد قطع العقدة المستعصية بالسيف. إذا ما شئت ذلك، يا عزيزي، فعليك أن تكون الإسكندر، وإلا فمآلك السجن والأشغال الشاقة. أما أنا، فسعيدٌ بحياتي البسيطة التي سأنشئها في الريف، حيث أواصل امتهان مهنة أبي. فرغبات البشر يمكن أن تتحقق في الدائرة الضيقة، كما في الرحابة الشاسعة. ونابليون لم يتعش في يوم واحد مرتين، ولم يتمكن من اتخاذ عشيقات بعدد مَن يتخذهن طالبُ طب في إقامته الداخلية. فسعادتنا ـ يا عزيزي ـ تبدأ من باطن أرجلنا حتى غطاء رأسنا؛ وسواء كلفتنا مليونًا في السنة أو مئة "لويزة"، فإن الإدراك الحسي واحد، لدينا. وأستنتج أن يبقى الصيني حيًّا.

ـ شكرًا، لقد أفدتني يا بيانشون! ستظل دائمًا صديقي.

ـ قُل لي إذن، قال طالب الطب، فأثناء خروجي من منتزه "كوڤييه" إلى حديقة النباتات، لمحت ميشونو وپواريه يتحادثان ـ على أريكة ـ مع السيد الذي كنت قد رأيته في اضطرابات السنة الماضية في محيط مجلس النواب، وأعطاني الانطباع بأنه رجل بوليس متنكر في هيئة برجوازي شريف يعيش من ماله الخاص. فلندرس هذا الثنائي؛ وسأخبرك لاحقًا بالسبب. وداعًا. سأرستجيب لنداء الساعة الرابعة.

وعندما عاد يوچين إلى البنسيون، وجد الأب جوريو في انتظاره.

ـ خذ! قال الرجل الطيب، هذا خطاب منها. هاااا. الخط الجميل.

فتح يوچين الخطاب وقرأ:

سيدي، لقد أخبرني أبي أنك مغرمٌ بالموسيقى الإيطالية. سأكون

سعيدة إذا قبلت دعوتي لك بالحضور إلى مقصورتي السبت القادم، حيث "لا فودور" و"بيلليچني". واثقةٌ أنك لن ترفض. وينضم السيد دو نوسنجن إليَّ في رجائي بأن تأتي للعشاء معنا بلا رسميات. فإذا ما قبلت، فإنك ستدخل السرور على قلبه، لأنك ستريحه من واجبه الزوجي باصطحابه لي إلى هناك. لا أريد منك الرد. احضر! وتقبل تحياتي".

د. دو ن.

ـ أرنيها، قالها الرجل الطيب ليوچين بعد فراغه من قراءة الرسالة. ستذهب. أليس كذلك؟ أضاف بعد أن تشمم الورقة. إن رائحتها شذية! فأصابعها قد لمستها!

ـ لا يمكن لامرأة أن ترتمي هكذا على رأس رجل، كان الطالب يفكر. إنها تريد استخدامي كجسر تصل به إلى "دو مارساي". ليس سوى الغيظ ما يدفع إلى القيام بمثل هذه الأشياء.

ـ حسنًا! قال جوريو، فيم تفكر؟

لم يكن يوچين يعرف هذيان الخيلاء الذي تستشعره بعض النساء في ذلك الزمن، ولم يعرف إلا أن امرأة رجل البنوك كانت قادرةً على القيام بكل تضحية لازمة لفتح باب في ضاحية سان-جرمان. في ذلك العصر، راحت الموضة ترفع نساء ضاحية "سان-جرمان" - أو قل سيدات "البيتي شاتوه" اللائي مِن بينهن السيدة دو بوزيان وصديقتها الدوقة "دو لنجيه" والدوقة "موفرنيير" - ليحتللن الصدارة. كان راستنياك وحده يجهل الجنون الذي تلبَّس نساء "شوسيه داردان" ليدلفن إلى الدائرة العليا، حيث كان يأتلق وميض جنسهن. لكن احتراسه عاد عليه بالنفع؛ فقد أسبغ عليه شيئًا من البرود، وأيضًا القدرة الفاترة على فرض شروطه، بدلاً من أن

يخضع هو للشروط.

ـ أجل سأذهب، أجاب.

هكذا قاده حب الاستطلاع إلى السيدة دو نوسنجن، أما لو كانت المرأة قد ازدرته فلربما كان قد انقاد إليها بفعل عاطفته. ومع ذلك، فلم ينتظر مجيء الغد وحلول الموعد دون نفاد صبر. وبالنسبة للشاب، فإن مغامرته العاطفية الأولى ربما تنضح بنفس السحر الذي يلقاه في حبه الأول. ينبثق عن التيقن من النجاح ألف غبطة لا يصرح بها الرجال، وتصنع كل السحر لبعض النساء. أما الشهوة، فلا تتولد عن صعوبة الظفر بأكثر مما تتولد عن سهولته. ومن المؤكد أن جميع أهواء الرجال تُستثار أو تغذّى بواحدٍ أو بآخر من هذين السببين اللذين يقسمان امبراطورية الهوى. وربما كان هذا التقسيم نتيجة للاختلاف الكبير بين الطبائع والأمزجة التي تهيمن على المجتمع. فإذا كان السوداويون بحاجة إلى مقوٍّ للغُنج، فإن العصبيين أو الدمويين يبتعدون إذا رأوا أن المقاومة ستطول. بعبارةٍ أخرى فإن شعر الرثاء لمفاويٌّ أساسًا، بقدر ما شعر المديح مراريٌّ صفراوي. وعندما كان يقوم بزينته، استمتع يوچين بكل هذه السعادات الصغيرة التي لا يجرؤ على الخوض في الحديث عنها الشبان الصغار، خوفًا من أن يواجهوا بالسخريات منهم، وإن كانت تدغدغ كبرياءهم. كان يصفف شعره، ويفكر في أن نظرة امرأة جميلة ستنساب تحت خصلاته السوداء. ترك نفسه على سجيتها فقام بحركات صبيانية كتلك التي تصدر عن فتاةٍ وهي ترتدي ثيابها للتوجه إلى حفل راقص. تطلع بإعجاب إلى قوامه الممشوق وهو يزيل الطيات عن ثيابه. ـ من المؤكد، قال لنفسه، أن المرء يمكن أن يجد ما هو أسوأ من هذا! ثم

نزل في اللحظة التي كان فيها جميع النزلاء حول المائدة، فاستقبلوه بمرح أحمق استثارته فيهم أناقة هندامه. ذلك عرفٌ خاص بالبنسيونات البرجوازية، أن ينذهلوا أمام الأناقة المفرطة. فلا يكاد أحدهم يظهر في ثوب جديد حتى تنفتح الأفواه بالتعليقات.

ـ كت كت كت، فرقع بيانشون بلسانه في فمه وكأنما ليسوق حصانًا.

ـ هيئة دوق وعضو مجلس لوردات، قالت السيدة ڤوكيه.

ـ السيد سيقوم بغزوة، قالت الآنسة ميشونو.

ـ غززووة؟! صاح المصور.

ـ تهنئتي للسيدة عروس، صاح موظف المتحف.

ـ وهل للسيد عروس؟ سأل پواريه.

ـ عروس متعددة الأجزاء، يمكنها المشي على الماء، مع ضمان جودة صباغتها، والثمن من خمسة وعشرين إلى أربعين. رسومات مربعات آخر صيحة، قابلة للغسل، ملبس جميل، نصفه مغزول، نصفه قطن، نصفه صوف. تشفي من آلام الأسنان، وأمراض أخرى أيضًا، معتمَدة من أكاديمية الطب الملكية! ثم إنها ممتازة للأطفال، ورائعة بالنسبة للصداع والانتفاخ وأمراض البلعوم والعين والأذن، صاح ڤوتران ذلق اللسان ساخرًا وبنبرة المزايدة. لكن، بكَم هذه الأعجوبة، خمنوا يا سادة؟ بفلسين؟ لا. إطلاقًا. فهي من مخلفات أثاث امبراطور المغول، وجميع ملوك أوروبا ـ بمن فيهم دوق "بادن" الكبير ـ أرادوا رؤيتها. فلتدخلوا مباشرةً إلى الأمام! ولتمروا على المكتب الصغير! هيا! موسيقى! برووم، لالا، ترن! لا، لا، بوم بوم! سيدي عازف الكلارينيت، إن عزفك نشاز، قالها بصوت أجش، سأضربك على أصابعك.

ـ يا إلهي! ذلك الرجل، كم هو رائع! قالت السيدة ڤوكيه للسيدة كوتور، لا يمكن أن أشعر بالسأم منه.

وسط الضحكات والنكات التي فجرها هذا الخطاب الكوميدي، التقط يوچين نظرة عابرة من عيني الآنسة تايفيه التي انحنت على السيدة كوتور ووشوشتها بعض الكلمات.

ـ ها هي العربة الكابريوليه، قال سيلڤي.

ـ أين سيتعشى، إذن؟ سأل بيانشون.

ـ لدى السيدة البارونة دو نوسنجن.

ـ ابنة السيد جوريو، أجاب الطالب.

ولدى سماع الاسم سقطت النظرات على صانع الشعرية العجوز، الذي كان يتأمل يوچين بعين الحسد.

وصل راستنياك إلى شارع "سان لازار"، في أحد هذه المنازل الرشيقة ذات الأعمدة النحيلة والأروقة الصغيرة، التي تشكل ما هو *جميل* في باريس؛ منزلُ مصرفي، حقيقي، مليء بالزخارف الباهظة، والجص، ودرجات السلم من الفسيفساء المرمرية. وجد السيدة دو نوسنجن في صالون من لوحات إيطالية أشبه بديكورات المقاهي. كانت البارونة حزينة. والجهود التي بذلتها لتخفي أحزانها أثارت أكثر اهتمام يوچين، الذي لم يكن بيده ما يفعله. كان يظن أنه يمكن أن يسعدها بمجرد حضوره، فوجدها في قبضة اليأس. وخزه هذا الإخفاق في كبريائه.

ـ لي عليكِ، يا سيدتي، حق ضئيل جدًّا في أن أحظى بثقتك، قال بعد أن ضايقها فوق انشغالها. ولكن إذا ما ضايقتك، فإنني أرتكن على

صدقك، فقوليها لي صراحة.

ـ ابقَ! قالت، لأني سأصير وحيدة إذا ما ذهبت. دو نوسنجن يتعشى في المدينة، ولا أريد أن أبقى وحيدة. وأنا في حاجة إلى ما يسليني.

ـ ولكن، ماذا بك؟

ـ إنك آخر شخص يمكنني إخباره بذلك، صاحت.

ـ بل أود معرفته. عليَّ أن أكون على بعض العلم بهذا السر.

ـ ربما! ولكن لا، أكملت. إنها خلافات عائلية لابد أن تتوارى في أغوار القلب. ألم أقل لك ذلك أول أمس؟ أنا لست سعيدة أبدًا. إن سلاسل الذهب هي دائما الأثقل.

عندما تفصح امرأة لشاب عن تعاستها، فإذا ما كان هذا الشاب مرهف الفكر أنيق الملبس، وتحت تصرفه ألف وخمسمئة فرنك، فلابد من أن يفكر على نحو ما تحدث به يوچين، ويغتر بنفسه.

ـ ما الذي ترغبين فيه؟ أجاب، إنك جميلة، شابة، محبوبة، غنية.

ـ لا نتحدث عني، قالت وهي تطوح رأسها بقوة. سنتعشى معًا، منفردين، وسنستمع إلى أعذب موسيقى. هل تراني على ذوقك؟ سألته وهي تنهض مستعرضة ثوبها الكشمير الأبيض ذا الرسومات الفارسية الرائعة الذي يشي بالثراء والأناقة.

ـ أتمنى أن تكوني كلك لي، قال يوچين، أنت فاتنة.

ـ سيكون لك ما هو حزين، قالت وهي تبتسم بمرارة. لا شيء هنا سيسمح لك بغير الشقاء، وبرغم هذه المظاهر، فإنني غارقة في اليأس. همومي تسهدني، ستشوه سحنتي.

ـ أووه! مستحيل، قال الطالب، ولكنني متشوق لمعرفة مثل هذا الألم

الذي لا يمكن للحب المخلص أن يزيله!

ـ آه! إذا ما أسررتُ به إليك، انسربتَ بعيدًا عني، قالت. إنك لا تحبني بعد إلا بالشهامة التي تطبع الرجال؛ لكنك إذا ما أحببتني حقًا، فسيصيبك يأس مرعب. وكما ترى، فلابد لي من التزام الصمت. فمن فضلك، فلنتحدث في موضوع آخر. تعال، أطلعك على غرف البيت.

ـ لا. فلنبق هنا، نطقها يوچين جالسًا على أريكة مواجهة للمدفأة إلى جوار السيدة دو نوسنجن، وقد تناول يدها بثقة. تركتها له، بل ضغطت على يده بحركة من حركات القوة المحتشدة التي تفضح المشاعر المتأججة.

ـ فلتسمعيني، قال لها راستنياك؛ إذا ما كنتِ حزينة، فلتبُوحي لي. فبإمكاني أن أثبت لك أنني أحبك من أجلك. فإما أن تحدثيني وتقولي لي متاعبك ليمكنني إزالتها، حتى لو كان عليَّ أن أقتل ستة رجال، أو أذهب إلى غير رجعة.

ـ حسنًا! صاحت وهي متشبثة بفكرة يائسة تتخبط في رأسها، سوف أضعك على المحك منذ هذه اللحظة، أجل، قالت لنفسها. لم يعد أمامي سوى هذه الوسيلة. ورنت الجرس.

ـ هل عربة السيد جاهزة؟ سألت وصيفتها.

ـ أجل، سيدتي.

ـ سأركبها، وستعطينه عربتي وحصانيَّ، ولا تُعدي العشاء إلا الساعة السابعة.

ـ هيا، تعال، قالت ليوچين، الذي استشعر أنه يحلم وهو في عربة السيد دو نوسنجن بجوار هذه السيدة.

ـ إلى القصر الملكي، أمرت السائق، بالقرب من المسرح الفرنسي.

في الطريق، كان يبدو عليها الاضطراب، ورفضت أن تجيب عن ألف تساؤل من يوچين، الذي لم يكن يعرف سوى التفكير في هذه المقاومة الصامتة، المتماسكة، الخامدة.

ـ وفي لحظة، تهرب مني، فكّر.

حينما توقفت العربة، نظرت البارونة إلى الطالب بسيماء فرضت الصمت على أحاديثه الحمقاء، لأنه كان محتدًّا.

ـ أتحبني كثيرًا؟ سألته.

ـ أجل، أجاب وهو يخفي القلق الذي كان ينتابه.

ـ ألن تظن بي السوء مهما كان ما سأطلبه منك؟

ـ اطمئني!

ـ هل أنت مستعد لطاعتي؟

ـ طاعة عمياء.

ـ هل ذهبت في بعض الأحيان إلى صالات القمار؟ قالت بصوت مرتعد.

ـ إطلاقًا.

ـ آه! الآن أتنفس الصعداء. ستنال السعادة. إليك محفظتي، قالت. خذها إذن! ستجد مئة فرنك، هي كل ما تمتلك هذه المرأة السعيدة للغاية. فلنذهب إلى صالة قمار، لا أعرف لها مكانًا، وإن كنت موقنة أن بعضها موجود في "الباليه روايال". خاطر بالمئة فرنك في لعبة يسمونها "الروليت" واخسرها جميعًا، أو فلتأت لي بستة آلاف فرنك. وسأحكي لك عن أحزاني عندما تعود.

ـ فليأخذني الشيطان، إن كنت أفهم شيئًا مما سأُقدم عليه، لكنني سأطيعك، قال ببهجة متولدة عن هذه الفكرة: "إنها تخاطر بنفسها معي، ولن يكون لها أن ترفض شيئًا لي أبدًا".

أخذ من يدها المحفظة الجميلة، وانطلق إلى رقم تسعة بعد أن دله بائع ملابس على أقرب صالة قمار. صعد، وترك قبعته لمن تناولها منه، وسأل: أين "الروليت". وسط دهشة الرواد، أوصله أحد صبيان الصالة إلى مائدة مستطيلة. بلا أدنى خجل، وهو محط أنظار الجميع، سأل يوچين أين يتوجب وضع الرهان.

ـ إذا وضعت "لويزة" واحدة على أحد هذه الأرقام الستة والثلاثين وكسبت، فستحصل على ست وثلاثين لويزة، قال له عجوز محترم أبيض الشعر.

وضع يوچين المئة فرنك على الرقم الذي يمثل عمره: 21. ندت صيحة دهشة، فيما لم يكن قد عرف بعد. لقد كسب دون أن يدري.

ـ انتشِل نقودك، قال له السيد العجوز. المرؤ لا يكسب بتلك الطريقة مرتين.

تناول المشاط الذي قدمه إليه السيد العجوز والتقط به الثلاثة آلاف وستمئة فرنك، وهو لا يعرف شيئًا عن اللعبة، ووضعها فوق الأحمر. كل من في القاعة يرمقونه بحسد، وهم يرونه مستمرًّا في اللعب. دارت العجلة وكسب أيضًا، وألقى إليه المحاسب ثلاثة آلاف وستمئة فرنك.

ـ معك الآن سبعة آلاف ومئتا فرنك هي ملكك، وشوشه السيد العجوز. إذا صدقتني، فستذهب إلى حال سبيلك. والأحمر مر ثماني مرات. فإن كنت رحيمًا، تبينت رأيي الجيد، وتعاطفت مع بؤس والٍ

قديمٍ لنابليون في أمس الحاجة الآن.

منح راستنياك، مذهولاً، عشر "لويزات" للرجل ذي الشعر الأبيض ونزل بالسبعة آلاف فرنك، دون أن يدري أي شيء عن القمار، وإن كان ثملاً بالسعادة.

ـ آه، هكذا! يا لهذا الذي توصلينني إليه الآن! قال وهو يُري السبعة آلاف فرنك للسيدة دو نوسنجن، وقد أغلقت بوابة العربة. واحتضنته دلفين بجنون، وقبلته بقوة خاليةٍ من العاطفة.

ـ لقد أنقذتني! وانهمرت دموع الفرح من عينيها على الخدين.

ـ سأحكي لك كل شيء يا صديقي. ستكون صديقي، أليس كذلك؟ إنك تراني غنية، موسرة، لا ينقصني شيء، أو أبدو كأنما لا ينقصني شيء! حسنًا! فلتعرف أن السيد دو نوسنجن لا يتركني أتصرف في فلس واحد: هو الذي يدفع مصاريف البيت وعربتي ومقاصيري؛ ويخصص لشراء ملابسي مبلغًا غيرَ كافٍ؛ وأحال حياتي إلى بؤس سري، عن عمد. وتمنعني كبريائي من مناشدته أن يزيد. وسأكون آخر مخلوقة يمكن أن تشتري نقوده بالثمن الذي يريده! فكيف لي ـ أنا الغنية ذات المَهر المقدر بسبعة آلاف فرنك ـ أن أدع نفسي أتسوله؟ هو الكبرياء، والسخط. نكون صغارًا سليمي الطوية عنما نستهل حياتنا الزوجية! والكلمة التي أطلب بها نقودًا من زوجي تحرق شفتي إذا ما نطقتها، فلم أكن لأجرؤ أبدًا، كنت أستنفد مدخراتي، وما كان يعطيه لي أبي المسكين؛ ثم استدنت. فالزواج ـ بالنسبة لي ـ هو أكبر خدعة مريعة، ولا أستطيع أن أحدثك عنه: يكفيك أن تعرف أنني كنت سألقي بنفسي من النافذة، إذا ما تحتم أن أعيش مع "نوسنجن" بطريقة مغايرة لما نحن عليه الآن، إذ لكل منا

حجرة نومه المستقلة. وعندما توجب أن أطلعه على مَهر الزوجة الشابة وحليها ورفاهيتها (فلم يكن والدنا البائس ليحرمنا من شيء) عانيت الأمرين، لكنني في النهاية وجدت الشجاعة لأخبره. أليس من حقي أن يكون لي مالي الخاص؟

استشاط "نوسنجن" غضبًا، وادعى أنني سأدمره، يا للفظاعة! لكم تمنيت لو هويت في باطن الأرض مئة قدم. وعندما استولى على مَهري، دفع لي؛ لكنه اشترط لي فيما بعد مبلغًا تافها لنفقاتي الشخصية قبلتُ به لأنال السلام. منذئذٍ، أردت التجاوب مع احترام الذات الذي أبداه تجاهي رجل تعرفه أنت، قالت. فإن كان قد خانني، فلن أكون عادلة إذا ما سلبته نبالة شخصيته. وإن كان أخيرًا قد هجرني هجرًا مهينًا! على الرجل ألا يهجر أبدًا امرأة ألقى فوقها- في لحظة ضيق- كومةً من الذهب. عليه أن يحبها أبدًا. وأنت، أيتها الروح الجميلة، ذات الواحد والعشرين ربيعًا، أيها الشاب النقي، تسألني كيف لامرأةٍ أن تقبل الذهب من رجل؟ يا إلهي! أليس من البديهي أن نقتسم كل شيء مع المخلوق الذي ندين له بسعادتنا؟ عندما نتبادل عطاء كل شيء، فهل يقلقنا منح أو منع شيء صغير من هذا الكم الهائل؟ المال لا تكون له قيمة إلا في اللحظة التي تزول فيها العاطفة. ألم نرتبط مدى الحياة؟ مَن منا- مع كل هذا الحب- يتوقع الانفصال؟ وإذا ما قررنا أن يكون الحب أبديًا فكيف نفكر في مصالح متمايزة. أنت تعلم أنني تعذبت اليوم، عندما رفض "نوسنجن" أن يعطيني ستة آلاف فرنك، هو الذي يدفع كل شهر مثلها لعشيقته، فتاة الأوبرا! وددت لو قتلت نفسي. ومرت برأسي كل الأفكار المجنونة. مرت عليَّ أوقات حسدت فيها حال الخادمة وحال

وصيفتي. هل أذهب لأبي؟ جنون! فأنا وأختي سبق أن ذبحناه: يا لأبي المسكين! لو عرض نفسه للبيع ليوفر لي الستة آلاف ما اشتراه أحد. كنت سأحبطه عبثًا. وانتشلتني أنت من العار والموت، كنت ثملةً بالألم. آه! يا سيدي أنا مدينة لك بهذا التوضيح: لقد كنتُ خرقاء تمامًا معك. وعندما تركتني، ورحت تخفت عن ناظري، كنت أريد الهروب على قدميَّ.. أين؟ لا أدري. تلك هي حياة نصف نساء باريس: رفاهٌ خارجي، وهموم قاسية في الروح. وأنا أعلم أن هناك كائنات بائسة أعظم تعاسةً مني. ومع ذلك، فثمة نسوة يضطررن إلى جعل موورديهم يزيفون الفواتير لمصلحتهن. وأخريات مجبرات على سرقة أزواجهن: بعض الرجال يعتقدن أن "الكشميرات" ذات المئة "لويزة" تساوي مئة فرنك، والآخرون يظنون أن "الكشميرات" ذات الخمسمئة فرنك تساوي مئة لويزة. وتجد سيدات بائسات يصوِّمن أطفالهن، ويقتصدن لشراء فستان. أما أنا، فنقية من هذه المغالطات البغيضة. ذلك هو كربي الأخير. وإذا ما كان ثمة نساء يبعن أنفسهن لأزواجهن ليحكمنهم، فأنا على الأقل حرة! بإمكاني أن أجعل "نوسنجن" يغمرني بالذهب، لكنني أفضل أن أسكب دموعي ورأسي منحنية على قلب رجل يمكنني أن أقدره. آه! هذا المساء لن يكون لـ"مارساي" الحق في أن ينظر نحوي كامرأة اشتراها. وأخفت وجهها في راحتيها كيلا يرى يوجين دموعها، لكنه كشف عن وجهها ليتأمله. كانت مهيبة هكذا!ـ وخلط المال بالعاطفة، أليس أمرًا مرعبًا؟ إنك لن تستطيع أبدًا أن تحبني، قالت.

هذا المزيج من العواطف النبيلة الذي يجعل النساء عظيمات، ومن الأخطاء التي يرغمهن على اقترافها النظام الإجتماعي كان يشوش

يوجين، الذي كان يتحدث بكلمات لطيفة مواسيًا ومعجبًا بهذه المرأة الفاتنة، التي أفلتت منها صرخات الألم بحذر وبسذاجة: إنك لن تُشهر هذا السيف في وجهي، عدني بذلك!

ـ آه! سيدتي. لست أنا الذي أفعل ذلك.

أمسكت يده ووضعتها على قلبها، بحركة مفعمة باللطف والعرفان بالجميل.

ـ بفضلك، صرت حرة ومبتهجة. كنت أعيش معتصرةً بقبضة من حديد. والآن أود العيش ببساطة دون أن أنفق شيئًا. سوف تجدني جميلة في عينك، يا صديقي، أليس كذلك؟ خذ هذا لك، قالت وهي تكتفي بأخذ الست ورقات البنكنوت. أنا مدينةٌ لكِ في ضميري بألف ريال؛ فأنا أعتبر نفسي بنسبة واحد إلى اثنين معك.

انكمش يوجين على ذاته كعذراء. لكن البارونة قالت له: سأعتبرك عدوي إن لم تكن شريكًا لي. فأخذ النقود. ـ سيكون هذا رصيدًا في زمن الضنك! قال.

ـ تلك هي الكلمة التي لم أكن أريد سماعها، صاحت شاحبة الوجه. عليك أن تقسم لي ـ إن كنت تريد الارتباط بي بطريقة أو بأخرى ـ أنك لن تعود إلى القمار أبدًا. يا إلهي! أأنا أفسدك! لكنت أموت إذن من الألم.

كانا قد وصلا. كان التناقض الصارخ بين هذا البؤس وذاك الثراء الباذخ يدوِّخ الطالب، الذي راحت تدوي في أذنيه وسوساتُ ڤوتران.

ـ ابق هنا، قالت البارونة وهي تدلف إلى حجرتها، وتشير إلى أريكة تتسع لشخصين قُرب المدفأة. سأكتب خطابًا في غاية الصعوبة. انصحني!

ـ لا تكتبي، قال لها يوجين، ضعي الأوراق المالية في مظروف،

وعليه العنوان، وأرسليه مع وصيفتك.

ـ أنت شاب حبُّوب، قالت. آه! يا سيدي، إنك رفيع التربية! سامق سموق آل دو بوزيان، قالت وهي تبتسم.

ـ هي فاتنة، قال لنفسه يوچين، الذي كان يُغرم بها أكثر فأكثر. تطلع في الحجرة التي كانت تفوح بأناقة شهوانية لحظية ثرية.

ـ أهذا رأيك؟ وهي ترن الجرس لوصيفتها.

ـ تيريز، أوصلي هذا بنفسك إلى السيد "دو مارساي"، وسلميه له بنفسك. وإن لم تجديه، فأعيدي لي الخطاب.

لم تغادر تيريز بدون أن تلقي نظرة خبيثة على يوچين. كان العشاء قد أُعد. أعطى راستنياك ذراعه إلى السيدة دو نوسنجن التي أوصلته إلى صالة طعام شهية، حيث رأى فخامة المائدة التي راقته لدى ابنة عمه.

ـ في أيام العروض الإيطالية، قالت، تعال لنتعشى سويًا، ثم تأخذني إلى هناك.

ـ سأعتاد على هذه الحياة الناعمة، إذا ما كان لها أن تدوم؛ لكنني مجرد طالب مسكين، ثروته في اجتهاده.

ـ سيحدث، قالت وهي تضحك. كما ترى، فكل شيء يتحسن؛ لم أكن أتوقع أن أكون في يوم من الأيام سعيدة هكذا.

من طبائع النساء إثبات المستحيل بالممكن، وهدم الواقع بالحدس. عندما دخلت السيدة دو نوسنجن وراستنياك مقصورتهما في "البوفون"، كانت تحمل سيماء الرضا التي كانت تجعلها جميلة، بما يسمح بانفلات وشايات صغيرة تقف النساء إزاءها بلا حيلة، وكثيرًا ما تدفع إلى تصديق النمائم التي تم اختراعها من باب المتعة. ومَن يعرفون باريس، لا

يصدقون أبدًا أيًا مما يُقال فيها، ولا يتحدثون عما يجري فيها. أخذ يوچين يد البارونة، وراح الاثنان يتحدثان وأحدهما يضغط على يد الآخر بحيويةٍ ما، وهما متواصلان مع المشاعر التي تفيض بها الموسيقى عليهما. وكانت تلك الأمسية- بالنسبة لهما- مفعمة بالنشوة. خرجا معًا. أرادت السيدة دو نوسنجن أن توصل يوچين حتى "البون نيف" وهو يماحكها طوال الطريق، آملاً في قبلة حارة من اللواتي أجزلتهن له في "الباليه روايال". ولامها يوچين على تناقضها.

- تلك، قالت، كانت عرفانًا بإخلاص مأمول؛ أما الآن، فستكون وعدًا.

- ولا تريدين أن تعطيني أية واحدة، من باب الكفران؟ غضب. وندت عنها إيماءات نفاد الصبر، التي تخلب لب العاشق، فمدت له يدها ليقبلها، فتناولها على مضض جعلها سعيدة.

- إلى الحفل الراقص، يوم الاثنين القادم! قالت.

لدى عودته سيرًا على الأقدام، على ضوء القمر، تناوبته الأفكار اللافحة. كان- في نفس الوقت- سعيدًا وحزينًا: سعيدًا بمغامرة يعطيه حل عقدتها المحتمل واحدة من أجمل وألطف نساء باريس كموضوع لرغباته؛ وحزين برؤية مشاريعه الخاصة بالثروة تنقلب رأسًا على عقب، وكان آنذاك يختبر واقع أفكاره المشوشة التي عايشها البارحة. الفشل دائمًا يتهم قدراتنا على الطموح. وكلما ازداد تمتع يوچين بالحياة الباريسية قلَّت رغبته في أن يبقى في الظل معدمًا. كان يتحسس ورقة الألف فرنك في جيبه، مختلقًا ألف حجة لاستبقائها ملكًا له. في النهاية، وصل إلى شارع "نيڤ-سانت-جانڤياڤ". وإذ أصبح أعلى السلم، لمح ضوءًا. لقد أبقى

الأب جوريو بابَ غرفته مفتوحًا، وشمعتَه مضاءة، حتى لا ينسى الطالب *أن يحكي له ابنته*، وفقًا لتعبيره. ولم يخف عنه يوچين شيئًا.

- ولكن، صاح الأب جوريو في يأس حاد بسبب الغيرة، هي تظن أنني أفلست! ما يزال لديَّ ألف وثلاثمئة جنيه إيرادًا. يا إلهي! المسكينة الصغيرة! لماذا لم تقصدني؟ إذن، لبعتُ مدخراتي، وأضفت إلى ثمنها من رأسمالي، وجعلت من كل ذلك راتبًا لها مدى الحياة. لماذا لم تفوضني في حل مشكلتها، يا جاري الطيب؟ كيف طاوعك قلبك لتذهب وتقامر بالمئة فرنك البائسة؟ إنه ما يسحق قلبي. هؤلاء هم الأصهار. أوه! لو أستطيع لقطعتُ رقابهم. يا إلهي! بكت، ابنتي بكت؟

- ورأسها على صدريتي، قال يوچين.

- أوه! أعطني إياها، قال الأب جوريو. كيف! لأنها تشربت دموع ابنتي، غاليتي دلفين، التي لم تدمع لها عين وهي طفلة! آه! سأشتري لك غيرها. لا تلبسها بعد الآن. دعها لي. طبقًا للقانون، فلها أن تتمتع بأموالها. آه! من الغد سأبحث عن "درڤيل" المحامي، وسأجعله يوظف أموالها باسمها. إنني أعرف القوانين، فأنا ذئب قديم، وسأستعيد أسناني!

- خذ، أيها الأب، هذه ألف فرنك أرادت تركها لي مما ربحناه. احتفظ لها بها، في الصدرية.

نظر جوريو في وجه يوچين، ومد يده إليه ليأخذ يده، وعليها سقطت دمعة.

- ستنجح في حياتك، قال له العجوز. فالله عادل. هل تعلم؟ وأنا أعرف النزاهة، ويمكنني إذن أن أؤكد لك أن أمثالك من الرجال قليل. فهل تريد إذن أن تكون ابني الغالي؟ اذهب ونم! بإمكانك النوم، فأنت لم

تصبح بعد أبًا. ابنتي بكت، أعلم هذا، أنا الذي كنت هنا ألتهم الطعام كالعبيط، وابنتي تتعذب؛ أنا، أنا الذي كنت أبيع الآب والابن والروح القدس كيلا تذرف عيونهما دمعة واحدة، هما الاثنتين.

ـ أعاهدك، قال يوچين وهو يرقد، أعتقد أنني سأكون رجلاً شريفًا طيلة حياتي. فثمة ملذات في اتباع إرشادات الضمير. ربما لا يوجد غير المؤمنين بالله من يفعلون الخير في الخفاء، وكان يوچين يؤمن بالله.

في اليوم التالي، في ساعة الحفل، قصد راستنياك منزل السيدة دو بوزيان التي اصطحبته لتعرفه بالدوقة "دو كاريليانو". تلقى أكبر احتفاء من الماريشالة أمام السيدة دو نوسنجن. وكانت دلفين متجملة بنيةِ إعجاب الجميع، لتعجب يوچين أكثر، فيما كانت تنتظر منه بفارغ الصبر نظرة عين، معتقدة أنها تخفي نفاد صبرها. ومن يَعرف سبرَ عواطف النساء فإن هذه اللحظة مفعمةٌ بالملذات. فمَن الذي لم يشأ أن يدعها تنتظر طويلاً رأيه، وأخفى بدلال متعته، باحثًا عن الاعتراف بالحب في قلقها، مستمتعًا بالخوف الذي يمكنه تبديده بابتسامة؟

أثناء ذلك الحفل، راح الطالب يقيس فجأةً قوةَ موقفه، وتوصل إلى أن له شأنًا في العالم الباريسي، باعتباره ابن عم معترف به للسيدة دو بوزيان. وغزوه للسيدة البارونة دو نوسنجن الذي قام به بالفعل، كان يجعله في مأمن، ويجعله محط نظرات حسد كان يرمقه بها جميع الشبان، فإذا به يتذوق لذائذ الغرور والتعالي. ولدى مروره من صالون لآخر، عابرًا المجموعات، سمع مَن يمتدح سعادته. وكانت النساء يتنبأن له بكل نجاح. ولأن دلفين كانت تخشى فقدانه، وعدته بأنها لن ترفض في المساء

القبلة التي حجبتها عنه الليلة قبل البارحة. خلال الحفل، تلقى راستنياك دعوات عديدة. فقد قدمته ابنة عمه إلى سيدات طموحات للأناقة، ولديهن منازل مهيئة تمامًا؛ فوجد نفسه وقد انقذف إلى ذلك العالم الرائع والعظيم من باريس. وكان لهذه الليلة- بالنسبة له- سحر بداية متألقة، وعليه أن يتذكرها حتى في أيام شيخوخته، كما تتذكر شابة حفلاً حققت فيه الانتصار.

في اليوم التالي، على مائدة الغداء، حكى نجاحاته للأب جوريو، على مسمع من الموجودين في البنسيون، فأخذ ڤوتران في الابتسام بطريقة شيطانية.

- وهل تعتقد، صاح رجل المنطق الشرس، أن فتى العصر يمكن أن يقطن شارع "نيف-سانت-جانفياڤ" في دار ڤوكيه؟ هو بنسيون محترم تأكيدًا بكل المقاييس، لكنه محروم من الموضة. إنه فاخر، جميل في وفرته، وفخور بأنه مقر مؤقت لـ راستنياك؛ لكنه في النهاية يقع في شارع "نيف-سانت-جانفياڤ" ويجهل الترف، لأنه محض "بطرياركالوراما"*. صديقي الشاب، قال ڤوتران وقد اتخذ سمتًا أبويًا ساخرًا، إذا كنت تود أن تكون شخصيةً مرموقة في باريس، فاعلم أنه يلزمك ثلاثة أحصنة و"تلبوري"* للصباح، وسيارة "كوبيه" للمساء، بإجمالي تسعة آلاف فرنك للنقل. ولن تكون جديرًا بمصيرك هذا إذا لم تنفق ثلاثة آلاف فرنك لدى الترزي، وستمئة فرنك لدي بائع العطور، ومئة ريال لدى بائع الأحذية، ومثلها

* patriarchalorama : الكلمة مستمدة من patriarche، بمعنى "أب" أو "رب عائلة"؛ وليس لها معنًى محدد؛ ربما كانت تلاعبًا بالألفاظ! (المحرر).

* تلبوري tilbury: مركبة خفيفة ذات عجلتين، منسوبةً إلى صانعها.

لدى بائع القبعات. أما المغسلة، فتكلفك ألف فرنك. والشبان على الموضة لا يمكنهم إعفاء أنفسهم من أن يكونوا أسخياء فيما يخص الملابس الداخلية والبياضات: ألا يكون هذا شغلنا الشاغل في معظم الأحيان؟ والحب والكنيسة يرغبان في مفارش جميلة على مذابحهما. وصلنا إلى أربعة عشر ألفًا. ولن أحدثك عما ستخسره في القمار في باريس، في الوقت الحالي؛ ومن المستحيل أن يقل مصروف الجيب عن ألف فرنك. سبق لي أن عشت هذه الحياة، وأعرف النفقات. أضف إلى هذه الضرورات الأساسية ثلاثمئة "لويزة" لإطعام الكلاب وألفًا لمبيتها. هيًا، يا طفلي! إما أن يكون معك خمسة وعشرون ألفًا في السنة، أو تهوي في الوحل فيسخر الناس منك، وينتهي مستقبلك ونجاحك وعشيقتك. لقد نسيت الخادم والسائس! فهل كريستوف هو من سيحمل رسائل غرامك؟ هل ستكتبها على الورق العادي لديك؟ سيكون في ذلك انتحارك. ثق في عجوز محنك عركته الأيام! قال بصورة صوتية متصاعدة. أو أن تحكم على نفسك بالنفي في سقيفة فاضلة، وتتزوج هناك بالعمل، أو تتخذ طريقًا آخر. وغمز ڤوتران بعينه جهة الآنسة تايفيه، مُذكرًا ومختزلاً- في تلك النظرة- البراهين المغوية التي سبق أن بذرها في قلب الطالب لإفساده.

مرت أيام عديدة عاشها راستنياك في أقصى حالات التشوش. كان يتعشى أغلب أيامه لدى السيدة "دو نوسنجن" التي كان يرافقها في العالم الباريسي. وكان يعود في الثالثة أو الرابعة فجرًا، وينهض في الظهيرة، يغتسل ويذهب- إذا ما كان الجو صحوًا- للتنزه في الغابة بصحبة دلفين، مبددًا وقته هكذا بلا حساب، تواقًا إلى خبرات وإغراءات الترف،

بالحمية التي تتلهف بها نخلةٌ أنثى إلى غبار اللقاح. كان يقامر بالكثير، فيخسر أو يكسب كثيرًا، وانتهى إلى أن اعتاد حياة الإفراط التي يحياها شبان باريس. ومع أول مكاسبه، أرسل إلى أمه وأختيه ألفًا وخمسمئة فرنك مصحوبة بهدايا جميلة. ورغم أنه أعرب عن رغبته في ترك دار ڤوكيه، إلا أنه كان ما يزال مقيمًا بها في أواخر يناير، ولا يدري كيف سيتركها.

يخضع الشبان جميعهم تقريبًا لقانون لا يمكن تفسيره على ما يبدو، ولكن السبب يكمن في عمرهم نفسه، وفي نمط الاندفاع الطائش الذي ينقضون به على التهام الملذات. وسواء كانوا أغنياء أم فقراء، فليس لديهم أبدًا المال الذي يوفر لهم ضرورات الحياة. فيما يجدونه دائمًا من أجل أهوائهم. يسرفون في اقتناء كل ما هو بالأجل، ويبخلون إذا ما كان الدفع فوريًا، ويبدون كأنما يثأرون مما ليس لديهم، فيما يبددون كل ما يمكن أن يكون لهم. هكذا، كي نطرح القضية بدقة، يعتني الطالب كل العناية بقبعته بأكثر من عنايته بثيابه. والربح الهائل يجعل الترزي يؤجل بالضرورة أخذ الثمن، بينما الربح الضئيل يجعل من بائع القبعات أحد الكائنات الأكثر شراسة من بين أولئك الذين يُضطر لمساومتهم. وإذا ما كان أحد الشبان جالسًا في شرفة مسرح، يعرض لنظارات الجميلات صدريته الرائعة، فمن المشكوك فيه أن يكون في قدمه جورب! فما يزال بائع الملابس سوسة تنخر في كيس نقوده. هكذا كان حال راستنياك. خالي الجيب إذا ما تعلق الأمر بالسيدة ڤوكيه، ممتلئُ الجيب دائمًا أبدًا لدواعي التباهي، وأحواله المالية تصاب بنكسات أو نجاحات مجنونة بلا توافق مع مصروفاته الطبيعية. وحتى يترك البنسيون العفن المقزز، حيث

كانت طموحاته تستخزي بين الحين والحين، كان عليه أن يؤخر شهرًا من الأجرة لمضيفته، ويشتري أثاثا لشقته، شقة الغندرة. كان ذلك دائمًا هو المستحيل. فإذا ما كان راستنياك- كي يدبر المال اللازم للقمار- قد عرف كيف يشتري من الجواهرجي ساعات وسلاسل ذهبية، باهظة الثمن، أيام ثرائه، ليحملها إلى "موندي بيتيه" صديق شبابه، الغامض الكئيب، فقد كان يجد نفسه بلا موهبة أو جرأة عندما يكون عليه أن يدفع مقابل غدائه وإقامته، أو يشتري أدوات لا غنى عنها لاستخدامات الحياة الأنيقة. والضرورة السوقية لديون الاحتياجات المشبعة لم تعد تلهمه. وشأن أغلبية مَن عرفوا هذه الحياة المخاطرة، كان ينتظر حتى آخر لحظة ليسدد الديون المقدسة في نظر البورجوازي، كما كان يفعل "ميرابو"* الذي لم يكن ليدفع ثمن خبزه إلا عندما كان يظهر في شكل سَنَد مالي عجيب.

وفي هذه الحقبة تقريبًا، كان راستنياك قد فقد أمواله وأصبح مدينًا. وكان الطالب قد بدأ في فهم أن من المستحيل أن يواصل هذه الحياة، إلا إذا كانت له مصادر دخل محددة. لكنه- وهو يتأوه تحت الأضرار اللاذعة لموقفه العارض- كان يشعر بعدم القدرة على التخلي عن الملذات المفرطة لهذه الحياة، وكان يرغب في ديمومتها بأي ثمن. والمصادفات التي اتكأ عليها في تكوين ثروته صارت أوهامًا، فيما تنامت العقبات الحقيقية. وإذ ولج إلى أسرار السيد والسيدة دو نوسنجن أدرك أنه لكي يتحول الحب إلى آلة تُدر أموالاً، فعليه أن يشرب كل عار، ويتخلى عن الأفكار النبيلة التي تغفر أخطاء الشباب. تلك الحياة المتألقة ظاهريًا تعيث فيها ديدان

---

* هناك أكثر من "ميرابو" في التاريخ الفرنسي؛ ولا ندري أيهم المقصود؛ (المحرر).

الندم، ومسراتها الهاربة ثمنها الباهظ هو العذابات المقيمة، فكان يدور فيها، شأن "الشارد" لـ"دو لابرير"*، صانعًا منها سريرًا في وحل هاوية، لكنه كالشارد، لم يلوث بعدُ سوى ملابسه.

- لقد قتلنا الموظف الصيني، إذن! قال له بيانشون ذات يوم، وهما يغادران المائدة.

- لم نقتله بعد، لكنه يحتضر!

أخذ طالب الطب تلك الكلمة كمزحة، لكنها لم تكن كذلك. أما يوچين، الذي كان يتعشى في البنسيون لأول مرة منذ وقت طويل، فقد بدا مشغول الفكر خلال الطعام. وبدلاً من أن يغادر صالة الطعام لتناول الحلوى، بقي بها جالسًا بالقرب من الآنسة تايفيه، وبين الفينة والفينة راح يرمقها بنظرات ذات مغزى. كان بعض النزلاء ما يزالون على المائدة يتناولون الجوز، وآخرون يتمشون لاستكمال مناقشات كانوا قد بدءوا فيها. وككل الأمسيات، يمضي كلٌّ إلى نزوته حسب درجة المنفعة أو الاهتمام التي اكتسبها في النقاش، أو حسب وطأة الهضم، كبيرة كانت أم صغيرة.

في الشتاء، يندر أن تُخلَى صالة الطعام نهائيًّا قبل الساعة الثامنة، الوقت الذي تبقى فيه السيداتُ الأربع ينتقمن من الصمت الذي فرضه عليهن جنسهن خلال ذلك الاجتماع الذكوري. وبقي ڤوتران في صالة الطعام مأخوذًا بالقلق الذي كان يوچين واقعًا في براثنه، رغم أنه كان يهم بالخروج مسرعًا، وهو الذي كان جالسًا بطريقة تجعل يوچين لا يلاحظ وجوده، فظنه قد غادر بالفعل. ثم، بدلاً من أن يصحب أولئك

---

* دو لابرير Jean de) La Bruyère): كاتب فرنسي (1643-1696)؛ (المحرر).

النزلاء المنصرفين، بقي بطريقة مستترة في الصالون. كان قد قرأ أغوار الطالب واستشعر أعراضًا دامغة. كان راستنياك- في الحقيقة- في وضع محير يمر به الكثيرون من الشبان. وسواء كانت محبة أم متدللة، فقد مرت السيدة دو نوسنجن راستنياك بكل عذابات عاطفة حقيقية، مبديةً له مصادر الدبلوماسية الأنثوية المستخدمة في باريس. وبعد أن جازفت أمام الجميع بتقريب ابن عم السيدة دو بوزيان منها، كانت تتردد في منحه فعليًا الحقوق التي يظن أنه يتمتع بها. ومنذ شهر، وهي تهيج مشاعر يوچين حتى اعتصرت قلبه. وإذا ما كان الطالب- في اللحظات الأولى من علاقته بها- يظن نفسه الأقوى، إذا بالسيدة دو نوسنجن تصبح في مركز القوة، بمساعدة ذلك الترويض الذي تلاعب لدى يوچين بجميع المشاعر- الجيدة أو الرديئة- لرجلينِ أو ثلاثةِ يكمنان داخل شاب من باريس. فهل كان ذلك مقصودًا؟ لا؛ فالنساءُ دائمًا على صواب، حتى في أخطائهن الكبرى، لأنهن يخضعن لعاطفة طبيعية. وربما كانت دلفين- بعد أن تركت نفسها فجأةً لهذا الشاب، ليصبح ذا سلطان عليها، وأبدت له الكثير من المودة- كانت تخضع لشعور بالكرامة، كان يجعلها تفي أو تتراجع عن التزامها، أو تستمتع بتأجيلها. فمن الطبيعي تمامًا لباريسية أن تتردد- في اللحظة ذاتها التي تجتاحها العاطفة- في السقوط، وأن تمحص القلب الذي ستُسلم له مستقبلها! وقد تعرضت آمال السيدة دو نوسنجن للخيانة ذات مرة أولى، وكان لإخلاصها لشاب معجب بذاته أن يساءُ فهمه. وبإمكانها بالتالي الاحتراس. وربما كانت قد لاحظت- في طريقة يوچين- أن نجاحَه السريع كان يجعله مغرورًا، كنوع من سوء التقدير سببته غرابة موقفهما. كانت ترغب بالتأكيد في أن تبدو ذات هيبة

لرجل في نفس عمره، وأن تبدو عظيمة إزاءه، بعد أن ظلت زمنًا صغيرة في نظر ذلك الذي هجرها. لم تكن تريد ليوچين أن يظنها مغناجة سهلة المنال، تحديدًا لأنه كان يعرف انتماءها لآل "دو مارساي". وأخيرًا، وبعد الرضوخ للذة المخزية لمسخ حقيقي، زنديق شاب، كانت تشعر بحلاوة السير في المناطق المزهرة من الحب، وكان فاتنًا لها بالتأكيد أن تعجب فيه بكل الجوانب، وأن تصغي طويلا إلى غمغماته، وأن تستسلم طويلاً لدغدغات النسائم الطاهرة. كان الحب الحقيقي يدفع الثمن للسيء. وهذا الاتجاه المعاكس سيكون- لسوء الحظ- متكررًا، بقدر ما لن يعرف الرجال كم زهرة تقصفها- في نفس امرأة شابة- الضربات الأولى للخديعة. وأيًا ما كانت أسبابها، فقد كانت دلفين تتلاعب براستنياك، وتستمتع بالتلاعب به، لأنها تعرف بالتأكيد أنها محبوبة، وواثقة من إيقاف هموم حبيبها، باتباعها الرغبات الملكية الأولية للمرأة. أما يوچين، فلم يُرد لمعركته الأولى أن تنتهي بالهزيمة. ويواصل مطاردته، كصياد لا يقبل إلا أن يقتل الحجل، في احتفاليته الأولى بـ"سان-هوبرت". كان قلقُه، واعتزازُه بنفسه المهانُ، وإحباطاتُه الحقيقية أو الزائفة، يزيد من تعلقه أكثر فأكثر بهذه المرأة. كانت باريس تعطيه السيدة دو نوسنجن التي لم يكن يتقدم بجوارها بأكثر مما كان في أول يوم رآها فيه. ولأنه يجهل أن تغنج المرأة يمنح أحيانًا من الفوائد بأكثر مما يعطي الحب من المتعة، فقد كان يهوي في نوبات غضب أحمق. وإذا كان الموسم الذي تنكر فيه المرأة على نفسها الحب، يقدم لراستنياك حصاد البواكير، فقد بدت له تلك البواكير باهظة الثمن بقدر ما هي خضراء ولاذعة وشهية. وفي بعض الأحيان، عندما لا يكون في جيبه فلس، ويشعر بألا مستقبل له، كان

يفكر- رغم صوت ضميره- في الفرص التي تجلب له الثروة، التي أوضح له ڤوتران أنها ستواتيه بالزواج من الآنسة تايفيه. والواقع أنه كان آنذاك في اللحظة التي كان فيها بؤسه عالي الصوت، بحيث خضع تقريبًا- بلا قصد- إلى ألاعيب "أبي الهول" المرعب، بالنظرات التي كان دائمًا مخلوب اللب بها.

في اللحظة التي كان پواريه والسيدة ميشونو يصعدان إلى غرفتيهما، ظن راستنياك نفسه وحيدًا بين السيدة ڤوكيه والسيدة كوتور، التي كانت مشغولة بعمل أكمام تريكو من الصوف، وهي تنعس قُرب الموقد، فنظر إلى الآنسة تايفيه بطريقة بالغة الرقة، جعلتها تغض بصرها.

ـ ألديك ما يكربك، سيد يوچين؟ قالت له بعد دقيقة صمت.

ـ وأي رجل ليس لديه ما يكربه! ردَّ راستنياك. فإذا كنا واثقين- نحن الشبان- من أن نكون محبوبين، بإخلاص يكافئنا عن التضحيات التي نكون دائمًا مستعدين للقيام بها، فلن يكون هناك ما يكربنا!

ألقت الآنسة تايفيه عليه- لدى الإجابة- نظرة لم تكن ملتبسة.

ـ وأنت، يا آنسة، أنت واثقة من قلبك اليوم، ولكن أتضمنين أنك لن تتغيري؟

شردت ابتسامة على شفتي الفتاة الفقيرة، كشعاع انبجس من روحها فأضاء وجهها، حتى إن يوچين فزع لأنه استثار مثل هذا التفجير الحي لمشاعرها.

ـ ماذا! إذا كنت غدًا غنية وسعيدة، وإذا ما هبطت عليك ثروة هائلة من الغيوم، فهل ستظلين تحبين الشاب الفقير الذي كان يروقك وقت الضيق؟

أومأت برأسها إيماءة جميلة!

ـ شاب شديد الفقر؟

أومأت إيماءة أخرى!

ـ يا لها من حماقات تتفوهان بها إذن هنا! صاحت السيدة ڤوكيه.

ـ دعينا، رد يوچين، نحن متفاهمان.

ـ سيكون ثمة وعد إذن الآن بالزواج بين السيد الفارس يوچين دو راستنياك والآنسة "ڤكتورين تايفيه"، قال ڤوتران بصوته الأجش، وهو يظهر فجأةً على باب صالة الطعام.

ـ آه! لقد أخفتنا، صاحت السيدة كوتور والسيدة ڤوكيه معًا.

ـ كان يمكن أن أسيء الاختيار، قال يوچين ضاحكًا، وقد جعلته نبرة صوت ڤوتران يحس بأقسى إحساس في حياته.

ـ لا داع للمزاح السخيف، يا سادة. صاحت السيدة كوتور، هيا يا ابنتي، نصعد إلى حجرتنا!

رافقتهما السيدة ڤوكيه بهدف توفير الشمعة ونار التدفئة، بقضاء السهرة معهما. وجد يوچين نفسه وحيدًا وجهًا لوجه مع ڤوتران.

ـ كنت أعلم أنك واصل، قال له ذلك الرجل برباطة جأش وبرود أعصاب. لكن اسمعني، فلديَّ لباقتي، أنا الآخر. عليك ألا تقرر شيئًا الآن، فلستَ في وضعك العادي. عليك ديون. ولا أريد أن يكون ذلك بفعل الانفعال أو اليأس، بل العقل هو ما يدفعك للمجيء إليّ. ربما تكون بحاجة إلى بضعة آلاف ريال. خذ، أتريدها؟ وسحب هذا الشيطان من جيبه حافظة نقوده، سحب منها ثلاثة أوراق نقدية أبهرت بصر الطالب. كان يوچين في ظروف باهظة القسوة. كان مدينًا للماركيز

"داجودا" و"الكونت دو تراي" بمئة لويزة خسرها بناءً على كلمة شرف. ولم يكن يمتلكها، ولم يكن ليجرؤ على الذهاب للسهر لدى السيدة دو روستو حيث كان مدعواً. كانت تلك إحدى السهرات العائلية، حيث يتناولون الحلوى الصغيرة، ويرتشفون الشاي، ولكن أيضًا يخسر المرء فيها ستة آلاف فرنك في القمار، خصوصًا لعبة "الويست".

ـ سيدي، قال له يوجين وهو يخفي بألم وصعوبة رعشة تشنجية، بعد ما بحت لي به، لابد أن تفهم أن من المستحيل عليَّ أن يكون لك عندي أية التزامات.

ـ حسنًا! كنت ستؤلمني لو قلت لي شيئًا مغايرًا، رد المغوي المجرِّب. أنت شاب جميل، لطيف، فخور كالأسد، رقيق كفتاة. وكنت ستكون ضحية جميلة للشيطان. أحب هذه السمة في الشبان. فعليك بفكرتين أو ثلاث من البراعة الرفيعة، وسترى العالم كما هو كائن. فلتمثل بعض المشاهد الصغيرة للفضيلة، حيث يُشبع الإنسان الأسمى كل نزواته وسط التصفيق الهائل من حمقى ردهة المسرح. وبعد أيام قلائل، ستكون تابعًا لنا. آه! لو رغبت أن تتتلمذ على يدي، إذن لأوصلتك إلى كل شيء. فلا تكاد تخطر ببالك رغبة إلا وتحققت في التو واللحظة، مهما كانت عصية: الشرف، والثراء، والنساء. ستستحيل لك الحضارة كلها نوعًا من الرحيق. ستكون ابننا المفضل، الولد المدلل، وسنتفانى جميعًا من أجلك مسرورين بذلك. سنذلل كل العقبات التي تعترضك. وإذا كنت متكتمًا على وساوس ما، فلابد أنك تعتبرني إذن أثيمًا. حسنًا، فثمة رجل بنزاهتك، السيد "دو تورين"، كان يتعامل ـ دون أن يظن نفسه مشبوهًا ـ مع قطاع الطرق والأشرار. وأنت لا تريد أن تكون مدينًا لي بشيء. هه؟

لا بأس! الأمر سواء. أجاب ڤوتران تاركًا ابتسامة تفلت من شفتيه، خذ هذه الوريقات واكتب عليها ـ قال وهو يسحب أحد الطوابع ـ هنا، بالعرض: ***أقر بمبلغ ثلاثة آلاف وخمسمئة فرنك على أن أعيده خلال عام***، ووقِّعْ عليه وأرِّخْ! الفائدة أكبر من أية وساوس، وبإمكانك أن تنعتني بيهودي، وتنظر لي على ألاّ جميل عليك لي. أسمح لك بأن تحتقرني اليوم، واثقًا من أنك ستحبني فيما بعد. ستجد فيَّ تلك المهاوي الشاسعة، تلك الأحاسيس الجياشة، مما يسميها البلهاء رذائل: لكنك لن تجد فيَّ أبدًا جُبنًا ولا خسة. وأخيرًا، فأنا لست بيدقًا ولا مجنونًا، لكني رخٌّ، يا صديقي.

ـ أي رجل أنت، إذن؟ صاح يوچين، إنك لم تخلق إلا من أجل تعذيبي.

ـ أبدًا، أنا رجل طيب، كل همي أن أنقذك من الوحل لبقية حياتك، حتى لو تلطختُ أنا. فهل تسألني عن سبب هذا الإخلاص؟ حسنًا! سأوشوشك في أذنك ذات يوم. لقد أدهشتك في البداية حين أطلعتك على صلصلة النظام الاجتماعي، وعرَّفتك نظام اللعبة، لكن هلعك الأوَّلي سيضمحل، كحال الجندي المجند في ميدان المعركة، وستعتاد على فكرة اعتبار الرجال كالجنود المصرِّين على الموت في سبيل أولئك المنصَّبين عليهم ملوكًا. الزمن غير الزمن. قديمًا كان يقال للشجيع: "إليك مئة ريال واقتل لي السيد فلان! ويتعشون في هدوء بعد أن أزاحوا شخصًا ما، لأدنى سبب. اليوم أقترح عليك أن أهبك ثروة رائعة مقابل حركة برأسك لن تكلفك شيئًا، ومع ذلك تتردد. إنه الزمن الرخو.

وقَّعَ يوچين الكمبيالة، وأخذ المال.

ـ حسنًا! فلنتكلم بعقل، قال ڤوتران، أود الرحيل من هنا خلال بضعة أشهر إلى أمريكا، وسأزرع الطباق هناك. سأرسل لك سجائر الصداقة. فإذا ما غدوتُ غنيًّا ساعدتك. ولأنني بلا أبناء (حالة محتملة، ولست فضوليًّا لأعيد زراعة نفسي هنا بواسطة العُقلة) حسنًا! سأورثك ثروتي. أليست هذه الصداقة الرجولية؟ لكنني أحبك. ولديَّ من العاطفة ما يجعلني أخلص من أجل الآخر. لقد فعلت ذلك من قبل. فانظر، يا صغيري، فأنا أحيا في فلَك أسمى مما يعيش فيه الآخرون. وأعتبر الأفعال وسائل، ولا أرى سوى الغاية. فما هو الرجل، بالنسبة لي؟ هذا! وضرب بظفر إبهامه تحت إحدى أسنانه، الرجل إما أن يكون كل شيء أو لا شيء. بل هو أقل من اللاشيء إذا ما كان اسمه پواريه: يمكن أن يُسحق كبقة، تافه، عفن. إنما الرجل إله إذا ما كان على شاكلتك: لا آلةً مغطاة ببشرة، وإنما مسرح تموج فيه أجمل العواطف، وأنا لا أحيا إلا بالعواطف. والعاطفة، أليست العالم كامنًا في فكرة؟ انظر إلى الأب جوريو: إن ابنتيه بالنسبة إليه هما كل الكون، هما الخيط الذي به يتحرك في الخليقة. حسنًا! بالنسبة لي، أنا الذي تعمقت في الحياة، ليس ثمة سوى شعور واحد حقيقي، هو صداقة الرجل للرجل. "بيير" و"جاڤييه" تلك عاطفتي. أحفظ "**إنقاذ ڤينيسيا**"* عن ظهر قلب. ألم تر كثيرًا من الناس الأشداء يقولون "هيا ندفن جثة!" فيذهبون دون أن ينطقوا بكلمة أو يتشدقوا بالأخلاق. أنا فعلت ذلك. لا أتحدث على هذا النحو لأيٍّ كان. لكن لك أنت، الإنسان الأسمى، فيمكن أن يقال لك كل شيء،

---

* Venise sauvée: عمل مسرحي للبريطاني توماس أوتواي (1682)، شهد إقبالاً هائلاً، امتد ـ على المسارح الأوروبية ـ حتى القرن التاسع عشر.

ويمكنك أن تفهم كل شيء. لا ترتبك طويلاً في المستنقعات، حيث ينمو العشب القبيح الذي يحيط بنا هنا. حسنًا! إليك أقول: إنكما ستتزوجان. فليطلق كل منا سهمه! سهمي من الحديد، ولن يتثلم أبدًا. هه! هه!

غادر ڤوتران دون أن ينتظر الإجابة السلبية من الطالب، ليتركه على راحته. كان يبدو أنه يعرف سر تلك المقاومات الواهية، والمعارك التي يتباهى بها الرجال أمام بعضهم البعض، والتي تخدمهم في تبرئة أنفسهم من فِعالهم التي تستحق اللوم.

ـ فليفعل ما يشاء، فلن أتزوج الآنسة تايفيه أبدًا، فكر يوچين.

وبعد أن تحمل وعكة الحُمَّى الداخلية التي سببتها له فكرة عهد مع ذلك الرجل الذي يُسبب له الذعر، رغم أنه يكبر في عينيه بكلبية آرائه ذاتها، وأيضًا بتلك الجرأة التي ينتقد بها المجتمع، ارتدى راستنياك ثيابه، وطلب عربة أجرة، وتوجه إلى السيدة دو روستو. فمنذ بضعة أيام وهذه المرأة تضاعف من عنايتها به كشاب، وكل خطوة من خطواته إنما كانت توغلاً في قلب المجتمع الراقي، ليتراءى لها أنْ سيكون له بلا شك شأن خطيرٌ ذات يوم. دفع للسيدين دو تراي وداجودا أموالهما، ولعب في "الويست" شطرًا من الليل، فاستعاد ما كان خسره. وكمؤمن بالخرافة، كغالبية الناس ممن عليهم أن يشقوا طريقهم، القدريين على نحوٍ ما، أراد أن يرى في سعادته تلك مكافأة سماوية على تمسكه بالطريق القويم. صباحَ اليوم التالي، سارع يسأل ڤوتران عما إذا كانت الكمبيالة ما تزال في جيبه. ولما أجيب بالإيجاب، أعطاه الثلاثة آلاف فرنك، وعلى وجهه فرحٌ غير مفتعل.

ـ كل شيء يسير على ما يرام، قال ڤوتران.

ـ لكني لست شريكك، قال يوچين.

ـ أعـرف، أعـرف، قاطعـه ڤـوتران. إنـك الآن تتـصرف بـصبيانية. وتوقفك التفاهات على عتبة الباب!

الفصـــل الثَّـالث

خَـــادِع المـوت

بعد يـومين، شـوهد پواريه والآنـسة ميشونو يجلسان على دِكة تحت الـشمس، في ممشًى منعـزل في حديقـة النباتـات، ويتحادثـان مـع الـسيد الذي كان يبدو مثيرًا لتوجسات طالب الطب.

ـ آنـستي، قـال الـسيد جونـديرو، لا أدري مـن أيـن تواتيـك هـذه الهواجس؟ فصاحب المعالي هو وزير الأمن العام في كل عموم المملكة.

ـ آه! صاحب المعالي هو وزير الأمن العام في كل عموم المملكة، كرر پواريه الكلام.

ـ أجل! صاحب المعالي يهتم تمامًا بهذا الشأن، قال جونديرو.

مَن الـذي لم يـستغرب أن يواصـل پواريه، كموظـف سـابق صـاحب أخـلاق برجوازيَّـة بـلا شـك، بـرغم خلـوهِ مـن الأفكـار، الإصـغاء لـسيد مزعـوم مـن شـارع بوفـون، بعـد أن نطـق بكلمـة الأمـن، ليـسمح بـذلك

برؤية وجه عميل شارع "جيروزاليم" عبر قناع الرجل الشريف؟ ومع ذلك، فلا شيء يبدو غير طبيعي. أدرك الجميع جيدًا النوع الخصوصي الذي ينتمي إليه پواريه، ضمن العائلة الكبرى من البلهاء، بعد رصد قام به بعض المراقبين، لكنه لم يُنشر حتى الآن. ثمة أمة من الكتبة، كامنة في الميزانية، بين الدرجة الأولى من خط العرض- بأجر ألف ومئتي فرنك، كنوع من إدارة جروينلاند- والدرجة الثالثة، كمنطقة أكثر اعتدالاً، حيث تتراوح الأجور بين ثلاثة إلى ستة آلاف، حيث يتوطن البقشيش ويزدهر رغم صعوبات الثقافة. وأحد الملامح المميزة التي تكشف تمامًا ضيق الأفق الواهي لهذا الموظف هو الاحترام اللا واعي، الميكانيكي، الغريزي، لشيخ الأمناء هذا بكل وزارة، المعروف لدى الموظف بتوقيع غير مقروء وتحت اسم "**صاحب السمو معالي الوزير**". أربع كلمات وكأنها المعادل لـ"*كلاب بوندو خليفة بغداد*" الذي يمثل- في نظر الشعب المقهور- السلطة المقدسة، بلا جدوى. وكـ"البابا" بالنسبة للمسيحيين، فإن معاليه إداريًا ذو عصمة في عين الموظف؛ والألق الذي يعكسه يتواصل مع أفعاله وأقواله وما يقال باسمه؛ يغطي بوشاحه كل شيء، ويصدِّق على الأحداث التي يأمر بها؛ واسمه السامي، الذي يؤكد نقاء نواياه، وقدسية مشيئته، يُستخدم جواز مرور للأفكار الأقل قبولاً. وما لم يكن ليفعله هذا الجمع البائس لمصلحته، سيهرولون لإنجازه ما إن يسمعوا كلمة "معاليه". ولدى المكاتب الطاعة السلبية، كما في الجيش نفسه؛ والنظام الذي يخنق الضمير يمحق الإنسان، وينتهي- مع الوقت- بتحويله إلى مسمار قلاووظ أو لولب في الماكينة الحكومية. وفيما رأى السيد جونديرو- الذي كان يبدو عليمًا بالبشر- في پواريه، على الفور،

أحد هؤلاء البيروقراطيين البلهاء، وأخرج إلهًا من ماكينة*، تلك الكلمة الطلسمية "معاليه" في اللحظة التي كان عليه فيها ـ وهو يكشف مصادر طاقته ـ أن يبهر پواريه، الذي كان يبدو له كميشونو في حالة مذكرة، فيما كانت ميشونو تبدو پواريه في شكل أنثى.

ـ في اللحظة التي كان فيها معاليه، بنفسه، معالي الـ! آه! هذا مغاير تمامًا! قال پواريه.

ـ أنتِ تسمعين رأي السيد الذي تبدين واثقة فيه، قال السيد المزعوم مخاطبًا الآنسة ميشونو. حسنًا! فمعاليه على يقين كامل الآن بأن ڤوتران المزعوم، القاطن بدار ڤوكيه، محكومٌ عليه بالأشغال الشاقة، وهارب من سجن "طولون"، حيث يُلقب بـ"خادع الموت".

ـ آه! خادع الموت! قال پواريه، إنه جدُّ سعيدٍ باستحقاقه ذلك اللقب.

ـ أجل، قال العميل. هذا الاسم المستعار يرجع إلى حُسن حظه بألا يفقد حياته خلال العمليات بالغة الجرأة التي قام بها. فهو رجل خطير، أترى؟ لديه صفات تجعله فوق العادي. بل إن إدانته كانت أمرًا منحه شرفًا بلا حدود.

ـ إذن فهو رجل شريف، قال پواريه.

ـ بطريقته، لقد ارتضى أن يحمل على عاتقه وزر جريمة ارتكبها غيره، تزوير قام به شاب وسيم كان يحبه كثيرًا، إيطالي، مقامر إلى حدٍّ ما، التحق منذئذٍ بالخدمة العسكرية، حتى اعتدل تمامًا في سلوكه.

ـ ولكن، إذا ما كان صاحب السمو وزير الأمن العام متأكدًا من أن

---

* وردت في الأصل باللاتينية deus ex machine؛ (المحرر).

السيد ڤوتران هو ذاته "خادع الموت"، فلماذا إذن سيحتاجني؟ قالت الآنسة ميشونو.

ـ آه! نعم، قال پواريه، في الحقيقة، بما أن الوزيرـ كما شرفتنا بإخبارناـ متأكد وواثق..

ـ التأكد ليس الكلمة الصحيحة؛ فقط نحن نشك. ستفهم المسألة. فـ"جاك لولان"ـ الملقب بـ"خادع الموت"ـ حصل على ثقة نزلاء ثلاثة سجون، فاختاروه عميلا وبنكيًا لهم. وهو يجني كثيرًا من المال لاشتغاله بهذه الأعمال التي تتطلب بالضرورة رجلا ذا "علامة".

ـ آه! هل تفهمين في التورية، يا آنستي؟ سألها پواريه. فالسيد يسميه "رجلا ذا علامة"، لأنه تم وصمه أو وسمه.

ـ ڤوتران الزائف، قال العميل مستكملاً، يستلم أموال المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فيوظفها لهم، ويحفظها لهم، ويضعها تحت تصرف مَن يهرب منهم من السجن، أو تحت تصرف أهلهم حين تكون ثمة وصية، أو عشيقاتهم إذا ما أطلق عليه النار من أجلهن.

ـ عشيقاتهم؟ تقصد زوجاتهم؟ أشار پواريه.

ـ لا، يا سيدي، الهارب لا يكون له عمومًا سوى زوجات غير شرعيات، ممن نطلق عليهن "الخليلات".

ـ يعيشون إذن معاشرة غير شرعية؟

ـ بالتبعية.

ـ حسنًا! قال پواريه، تلك فظائع يتوجب على معاليه ألا يتسامح فيها. وبما أن لك شرف رؤية معاليه، فالدور عليكـ أنت الذي يبدو أن لك أفكارًا متعمقة في البشرـ بأن تلفت نظر معاليه إلى السلوك اللا

أخلاقي لهؤلاء الناس الذين يقدمون مثالا بالغ السوء لبقية أفراد المجتمع.

ـ ولكن، يا سيدي، الحكومة لا تضعهم هناك لتجعل منهم مثالاً لكل الفضائل.

ـ حقًّا، ومع ذلك، يا سيدي، اسمح لي...

ـ ولكن، دعنا نقل إذن يا سيدي، يا صديقي العزيز، قالت الآنسة ميشونو.

ـ أنتِ تفهمين، يا آنسة، استأنف جونديرو. قد تكون للحكومة مصلحة كبيرة في أن تضع يدها على أموال غير شرعية كثيرة، بلا حصر كما يقال. أما "خادع الموت"، فيحتفظ بمبالغ محترمة، لا فقط من زملائه المحكوم عليهم، ولكن أيضًا من جماعة العشرة آلاف.

ـ عشرة آلاف لص! صاح پواريه مرتعبًا.

ـ لا. الحقيقة هي أن جماعة العشرة آلاف مجموعة من علية اللصوص، أناس يعملون على نطاق واسع، ولا يدخلون في عملية يجنون منها أقل من عشرة آلاف فرنك. هذه الجماعة تتكون من كل المتميزين من بين مَن يذهبون مباشرةً إلى محكمة الجنايات. إنهم عليمون بالقانون، ولا يخاطرون أبدًا بأن يُنفذ فيهم إعدام، إذا ما ألقي القبض عليهم. و"كولان" هو رجلهم الموثوق فيه ومستشارهم. وبمساعدة هذه الموارد الضخمة، تمكن هذا الرجل من إنشاء بوليس خاص به، وعلاقات واسعة يلفها غموض لا يمكن اختراقه. وعلى الرغم من أننا ـ منذ عام ـ نحيطه بالعيون إلا أننا لم نتمكن من ضبطه متلبسًا. خزانته ومواهبه دائمًا في خدمة الرذيلة وتمويل الجريمة، والحفاظ على جيش من الأشرار هم في حالة حرب دائمة مع المجتمع. والإمساك بـ"خادع الموت"

والاستيلاء على خزانته، سيقطع الشر من جذوره. هذه الحملة صارت أيضًا مسألة دولة وسياسة عليا، تستوجب تكريم أولئك الذين يتعاونون على إنجاحها. أنت نفسك، سيدي، يمكن أن تصبح من جديد موظفًا في الإدارة، سكرتيرًا لمأمور البوليس، وظائف لن تمسَّ معاشك التقاعدي.

ـ ولكن، لماذا، قالت الآنسة ميشونو، لا يأخذ "خادع الموت" الخزانة معه ويهرب.

ـ آه! قال العميل، أينما يهرب، فسيكون وراءه رجلٌ مكلفٌ بقتله لو كان قد سرق نزلاء السجن. ثم إن الخزانة لا يمكن أن تنخلع بسهولة كسهولة خطف آنسة من بيت كريم. وفضلاً عن ذلك، ف"كولان" رجلٌ جسورٌ لا يقوم بفعلٍ كهذا. فهو يتصور أنه سيلوث شرفه.

ـ معك حق يا سيدي، قال پواريه، فسيلوث شرفه تمامًا.

ـ كل هذا لا يبرر لنا عدم إمساككم به مباشرة، قالت الآنسة ميشونو.

ـ حسنًا! يا آنسة، سأقول... ولكن، وشوشها، امنعي السيد من مقاطعتي، وإلا فلن ننتهي أبدًا. ذلك العجوز، يجب أن يحصل على ثروة طائلة لينصت. "خادع الموت"ـ حين جاء إلى هناـ اتخذ هيئة رجل شريف ووضع قناع شخص برجوازي طيب في باريس، وسكن في بنسيون بلا شكل. إنه نبيه، ذلك هو! ونحن لن نأخذه أبدًا على حين غرة. إذن، فالسيد "ڤوتران" رجل له اعتباره، ويفعل أشياء معتبرة.

ـ طبعًا، قال پواريه في نفسه.

ـ وإذا ما أخطأنا في الإمساك بڤوتران الحقيقي، فإن الوزير لا يريد أن يحمل على عاتقه تجارة باريس ولا الرأي العام. والسيد قائد الشرطة في

وضعية حرجة، وله أعداء. فإذا ما وقع ثمة خطأ، فسينتهز مَن يريدون فرصة النباح والصراخ الليبرالي للإطاحة به. وعلينا هنا أن نمضي قُدُمًا مثلما حدث في قضية "كونيار"، الكونت المزعوم في "سانت هيلين"؛ فلو كان بالفعل كونت "سانت هيلين" فلن نفلت سالمين. يجب دائمًا التحقق.

ـ أجل، ولكنكم إذن تحتاجون إلى امرأة بارعة الجمال، قالت الآنسة ميشونو بحيوية.

ـ خادع الموت لا يسمح لامرأة بالاقتراب منه، قال العميل. وسأبوح لك بسر، إنه لا يحبهن.

ـ لكنني لا أرى ما الذي يمكن أن أفيد به إذن مثل هذا التحقيق، على افتراض أن أقوم به مقابل ألفي فرنك.

ـ لا دور أسهل منه، قال الشخص المجهول. سأعطيك قارورةً بها جرعة من محلول يسبب نزيفًا في المخ، لا خطر منه على الإطلاق، ويحاكي السكتة الدماغية. هذا المخدر يمكن أيضًا أن يضاف إلى الخمر أو القهوة. وبلا تأخير، عليك وضعه على السرير وخلع ملابسه لتعرفي أنه لم يمت. وعليكِ ـ حين تكونين وحدك معه ـ أن تصفعيه على كتفه. باااف! وستظهر لكِ الحروف!

ـ ذلك شيء بسيط تمامًا! قال پواريه.

ـ حسنًا، هل توافقين؟ قال جونديرو للفتاة العانس.

ـ ولكن، يا سيدي العزيز، قالت الآنسة ميشونو، في حالة ما لم تكن ثمة حروف، فهل سأحصل على الألفي فرنك؟

ـ لا.

ـ فماذا ستكون المكافأة، إذن؟

ـ خمسمئة فرنك.

ـ إنه فعل شيءٍ ما من هذا القبيل بمقابل صغير. الشر هو الشر في الضمير، ولابد من تهدئة ضميري يا سيدي.

ـ إنني أؤكد لك، قال پواريه، أن الآنسة مفعمة بالضمير، فضلاً عن أنها شخص لطيفٌ للغاية، وبالغة الذكاء.

ـ حسنًا، استأنفت الآنسة ميشونو، أعطني ثلاثة آلاف إذا ما كان هو "خادع الموت"، وإلا فلا تعطني شيئًا على الإطلاق.

ـ اتفقنا، قال جونديرو، بشرط أن تنجزي الأمر غدًا.

ـ مهلاً، سيدي العزيز؛ فأنا أحتاج استشارة مرشدي الديني.

ـ ماكرة! قال العميل وهو ينهض واقفًا. إلى الغد، إذن. وإذا ما كنتِ بحاجة ماسة للحديث معي، فتعالي إلى شارع "سانت آن"، في طرف فناء "سانت شابيل". ليس هناك سوى باب واحد أسفل القبة. واسألي عن السيد جونديرو.

صكت الكلمة الشهيرة "خادع الموت" أذنَيْ بيانشون، وهو عائد من محاضرة كوڤييه، وسمع بعدها كلمة "اتفقنا" ينطقها قائد شرطة الأمن، الشهير.

ـ لماذا لا تنتهين منها، ويكون لكِ دخل سنوي ثلاثة آلاف فرنك، سأل پواريه الآنسة ميشونو.

ـ لماذا؟ قالت، لابد أن نفكر في الأمر. فإذا ما كان السيد ڤوتران هو "خادع الموت" حقًا، فربما يكون من مصلحتنا أكثر أن نرتب الأمر معه. ومع ذلك، فإن طلبنا منه مالاً، فسينبهه ذلك، ويشد الرحال ***مجانًا***. وستكون تلك *فرقعة* بغيضة.

ـ وعندما سيتم تنبيهه، قال پواريه، ألم يقل لنا ذلك السيد إنه مراقب؟ ولكنكِ ستخسرين كل شيء.

ـ فضلاً عن ذلك، فكرت الآنسة ميشونو، فأنا لا أحب ذلك الرجل! إنه لا يعرف الحديث معي عن أشياء تروقني.

ـ ولكن، واصل پواريه، أنت تفعلين الأفضل. وكما قال ذلك السيد الذي يبدو لي جيدًا جدًا، فضلاً عن أنه مبرر تمامًا، فذلك العمل طاعة للقانون لتخليص المجتمع من مجرم، أيًا ما كان شجاعًا. فمَن شرب سيشرب. وإذا ما قام بنزوة قتلنا جميعًا؟ لكن، اللعنة! فسنكون مذنبين بجرائم القتل هذه، بغض النظر عن أننا سنكون في طليعة الضحايا.

ولم يسمح قلق الآنسة ميشونو لها بالإصغاء للجُمل المتساقطة واحدة تلو الأخرى من فم پواريه، كقطرات ماء تتساقط من صنبور ماء غير محكم الإغلاق. وما إن بدأ هذا العجوز سلسلة عباراته، ولم توقفه الآنسة ميشونو، حتى راح يواصل حديثه على غرار آلة متصاعدة. فبعد أن يبدأ موضوعًا، إذا به يفتح قوسين ليدخل في مواضيع متناقضة، دون الوصول إلى نتيجة. وعند الوصول إلى دار ڤوكيه كان قد اندس في متتالية من المقاطع والاقتباسات الانتقالية التي أدت به إلى أن يحكي شهادته في قضية السيد "راجيللو" والسيدة "موران"، حيث كان شاهد نفي. ولدى دخولهما، كان يوچين دو راستنياك منهمكًا في حديث حميمي مع الآنسة تايفيه باهتمام هائم تمامًا، حتى إن الاثنين لم ينتبها لمرور النزيلين القديمين عندما اجتازا صالة الطعام.

ـ كان على ذلك أن ينتهي كذلك، قالت الآنسة ميشونو لپواريه. فمنذ ثمانية أيام، وهما يمزقان الروح بعيونهما.

ـ أجل، أجابها، ولذلك تمت إدانتهما.

ـ إدانة من؟

ـ السيدة موران.

ـ أحدثك عن الآنسة ڤيكتورين، قالت ميشونو وهي تدلف إلى حجرة پواريه دون أن يحس بها، وأنت تحدثني عن السيدة موران، ما هذه المرأة؟

ـ فبأي شيء هي مذنبةٌ، إذن، الآنسة ڤيكتورين؟ سألها پواريه.

ـ مذنبة لحبها يوچين دو راستنياك، وتندفع للأمام دون أن تدري إلى أين سيقودها ذلك، تلك البريئة المسكينة.

خلال الصباح، كان يوچين قد تردى في هوة اليأس، بفعل السيدة دو نوسنجن. فاستسلم في قرارة نفسه تمامًا إلى ڤوتران، بلا رغبة في تقصي دوافع الصداقة التي تربطه بهذا الرجل غير العادي، ولا مستقبل الشراكة معه. كان الأمر يتطلب معجزة لانتشاله من الهوة التي يضع قدميه فيها منذ ساعة، فيما يتبادل مع الآنسة تايفيه أرق الوعود. كانت ڤكتورين تظن أنها تسمع صوت أحد الملائكة، وأن السماوات كانت تنفتح لها، وتبدو "دار ڤوكيه" بألوان خيالية كتلك التي يتفنن فيها مهندسو الديكور على واجهات المسارح: كانت تحب. أو كانت تظن ذلك على الأقل! وأين الفتاة التي لا تظن ما ظنته هي، وهي ترى راستنياك، وتسمعه طوال ساعة، مخفيةً عن كل أعين مَن بالدار. وفي كفاحه ضد ضميره، مدركًا أن ما يفعله خطأ، بل وأنه يريد فعل الخطأ، قائلاً في نفسه إنه سيكفر عن هذه الخطيئة العارضة بإسعاده امرأة، كان قد تجمل بيأسه، ويشرق بكل نيران الجحيم التي حواها قلبه. ولحسن

حظه، وقعت المعجزة: دخل ڤوتران مبتهجًا، وقرأ في روح الشابين أنهما تزوجا بتدبير عبقريته الجهنمية، لكنه أزعجهما فجأةً حين غنى صوته الأجش المتهكم:

إن فتاتي لساحرة

في بساطتها...

انصرفت ڤكتورين، وهي تضم في حناياها من السعادة بقدر ما عرفته من شقاء طوال حياتها. فتاة بائسة! ضغطةُ يدٍ، حمرةٌ على الخد من شَعر راستنياك، كلمةٌ مهموسةٌ في أذنها فأحست بحرارة شفتي الطالب، واحتضان قوامها بذراع مرتجفة، وقبلةٌ على عنقها كانت خطوبة عاطفتها؛ بل إن مجاورتها لسيلڤي السمينة، والتهديد بالدخول لصالة الطعام المشعة هذه، جعلها أكثر توقدًا، وحيوية، وجاذبية من أمثلة الإخلاص الجميلة التي نقرأها في أشهر قصص الحب. تلك القوائم المنتقاة وفقًا للتعبير الجميل لأجدادنا، كانت تبدو جرائم بالنسبة لفتاة ورعةٍ تحرص على الاعتراف كل أسبوعين! في هذه الساعة، كانت قد أغدقت من كنوز الروح بأكثر مما ستفعل لاحقًا، وهي غنية وسعيدة؛ حتى وهي تمنح نفسها كلها.

ـ قُضي الأمر، قال ڤوتران ليوچين. الغندوران نبشا الأرض. وتم كل شيء على ما يرام. مسألة فكر. حمامتنا أهانت صقري. فإلى اللقاء غدًا، عند اندحار "كلينانكور". في الثامنة والنصف، ترث الآنسة تايفيه حب والدها وثروته، وهي هناك وادعة تغمس الخبز المدهون بالزبد في قهوتها. أليس مضحكًا أن يُقال هذا؟ وتايفيه الأصغر هذا بارعٌ في استخدام السيف، واثق كل الثقة من مقدرته؛ لكنه سيتزف بضربة من

اختراعي، بطريقتي في رفع السيف وغمز جبهته به. سأريكها ذات يوم، نظرًا لفائدتها القصوى.

أصغى راستنياك بسيماء غبية، ولم يستطع أن يرد بكلمة. في تلك اللحظة، وصل الأب جوريو، وبيانشون، وبعض النزلاء الآخرين.

ـ هكذا كما كنت أريدك تمامًا، قال له ڤوتران، أنت تعرف ما تفعل. حسنًا، يا نسري الصغير! سوف تقود الرجال! أنت قوي، رَبعة، أشعر؛ لك خالص تقديري.

أراد أن يتناول يده. لكن راستنياك سحبها، وارتمى على أحد المقاعد شاحب الوجه، تهيأ له أنه يرى بركة من الدماء أمامه.

ـ آه! ما تزال لدينا بعض الملاءات ملطخةً بالفضيلة، قال ڤوتران بصوت خفيض. يمتلك والد "أورليان" ثلاثة ملايين، أنا أعرف ثروته. والمهر سيعيدك أبيض كفستان زفاف، حتى في نظرك أنت نفسك.

لم يتردد راستنياك أكثر من ذلك. قرر أن يذهب ـ خلال الأمسية ـ إلى الأب، تايفيه وابنه. في تلك اللحظة، إذ غادره ڤوتران، همس الأب جوريو في أذنه: أنت حزين، يا بنيَّ! لسوف أبهجك. تعال! وأشعل صانع الشعرية العجوز أحد مصابيحه، فتبعه يوچين مشتعلاً بالفضول.

ـ فلندخل عندك، قال الرجل الطيب الذي طلب من سيلڤي مفتاح حجرة الطالب. لقد اعتقدتَ في الصباح أنها لم تعد تحبك. هه؟ قال، وأنها صرفتك عنوةً، وانصرفت غاضبًا يائسًا! هراء! لقد كانت تنتظرني. هل تفهمني؟ كان علينا الذهاب لإنهاء ترتيب شقة بمثابة جوهرة، ستنتقل إليها أنت بعد ثلاثة أيام. فلا تبعني! فهو تود أن تقدم لك مفاجأة؛ لكني لم أستطع أن أخفي عنك السر. تقع الشقة في شارع

أرتيوس، على بُعد خطوتين من شارع سانت-لازار. ستكون هناك مثل أمير. اشترينا لك أثاثًا يليق بعروس. منذ شهر ونحن نقوم بأعمال رائعة، دون أن نطلعك على شيء. لقد رفع محاميَّ الدعوى، وستحصل ابنتي على ستة وثلاثين ألف فرنك سنويًّا، فوائد مهرها، وسأعمل على توظيف الثمانمئة ألف فرنك في أعمال آمنة علنية.

صامتًا، كان راستنياك يتمشى، جيئةً وذهابًا، ذراعاه معقودتان، في غرفته البائسة الفوضوية. ترصد الأب جوريو لحظة كان فيها الطالب يعطي ظهره له، فوضع على المدفأة صندوقًا من جلد الماعز، أحمر اللون، مطبوعًا عليه بالذهب شعار "آل راستنياك".

- ابني العزيز، قال الرجل الطيب البائس، لقد غرقتُ في كل ذلك حتى رقبتي. لكن- كما ترى- فما يزال داخلي الكثير من الأنانية؛ وأنا مهتم بتغييرك للحي. فلا ترفضني، هه! إذا ما طلبت منك طلبًا.

- ما هو؟

- أعلى شقتك، في الخامس، هناك حجرة ملحقة بها، سأقيم فيها، أليس ذلك ممكنًا؟ لقد أصبحتُ عجوزًا، وأنا بعيدٌ للغاية عن ابنتيَّ. ولن أضايقك. سأكون هناك فحسب. وستحدثني عن ابنتي كل مساء. وذلك لن يتضاد معك، قُل! وعندما تعود من الخارج، سأكون في سريري، سأسمعك، وسأقول لنفسي: لقد زار ابنتي الصغيرة دلفين. اصطحبها إلى الحفل، وهي سعيدة به. وإذا ما داهمني المرض، فسيكون بلسمًا يرطب قلبي أن أسمعك قادمًا، أو تُحرك شيئًا، أو ذاهبًا. سيكون الكثير من ابنتي فيك! ليس لديَّ سوى خطوة لأكون في الشانزليزيه، حيث تذهب ابنتاي كل يوم، سأراهما دائمًا، بينما أصل الآن متأخرًا جدًّا في بعض الأحيان.

وربما ستأتي هي إليك! سأسمعها، سأراها في ألوهيتها في الصباح، وهي تتهادى، تذهب برقة كقطة صغيرة. لقد رجعت منذ شهرين كما كانت، فتاة شابة، مبتهجة، لطيفة. روحها في طور النقاهة، وهي مدينةٌ لك بسعادتها. أوه! سأفعل المستحيل من أجلكما. قالت لي عند عودتها: "بابا! أنا في غاية السعادة". وعندما كانتا تقولان لي بإجلال "أبي" كانتا تجمدانني من البرد، أما إذا قالتا "بابا"، فوقتها كان يبدو لي أنني أراهما ما تزالان طفلتين، وتهيلان على الذكريات. أنا أبوهما، وأعتقد أنهما لا تنتسبان لغيري. وجففَ الرجل الطيب عينيه، كان يبكي. ـ منذ وقت طويل لم أسمع هذه الجملة، منذ وقت طويل لم تعطني ذراعَها. أوه! نعم، ها قد مرت عشرةُ أعوام كاملة لم أمش مع إحداهما جنبًا إلى جنب. أليس جميلاً أن أحتكَّ بثوبها، أن أخطو على خطوتها، أن أشاطرها حرارة جسمها؟ وأخيرًا، فقد اصطحبت دلفين هذا الصباح إلى كل الأماكن. دخلت معها "البوتيكات". وأعدتها أيضًا إلى بيتها. أوه! دعني أكنْ بالقرب منك. أحيانًا ستحتاج إلى شخصٍ ما ليخدمك، ستجدني أمامك. أوه! لو يموت هذا الألزاسي الفحل، لو يتمكن النقرس من الوصول إلى معدته، فستكون ابنتي المسكينة سعيدة! ستصبح أنت صهري، ستكون زوجها على رؤوس الأشهاد. آه! كم هي شقية بأنها لا تعرف ملذات هذا العالم؛ ولذا أغفر لها كل شيء. ولابد أن الإله الطيب يساند الآباء الذين يحبون من كل قلبهم. وهي تحبك كثيرًا!

قال هذا، وهز رأسه بعد فترة توقف: ونحن ذاهبان، كانت تتحدث معي عنك: "أليس كذلك يا أبي؟ إنه طيب! وله قلب طيب! هل يحدثك عني؟" باااه! قالت لي أمثال ذلك من شارع "أرتوا" حتى ممر "بانوراما"،

مجلدات! وأخيرًا، سكبت قلبها في قلبي. خلال هذا الصباح الرائع لم أكن عجوزًا أبدًا، ولم يزد وزني عن أوقية. أخبرتها أنك أعدت لي الألف فرنك. أوه! ترقرقت عينا الغالية بالدموع. ما هذا الذي فوق مدفأتك؟ قال في النهاية الأب جوريو الذي كان يموت من نفاد الصبر، وهو يرى راستنياك بلا حراك.

ذاهلاً، كان يوچين يحملق في جاره بسيماء بليدة. كانت المبارزة- التي أعلنها ڤوتران في اليوم التالي- تتناقض بعنف مع تحقيق آماله العزيزة، إلى حد أنه كان يستشعر كل أحاسيس الكابوس. استدار نحو المدفأة، فلاحظَ وجود العلبة الصغيرة المربعة، فتحها، فوجد بداخلها ورقة كانت تغلف ساعة "دو بريجيت". على الورقة مكتوب: "أريدك أن تفكّر فيَّ طول الوقت **لأنني**..

دلفين

كانت هذه الكلمة الأخيرة تُلمح غالبًا إلى مشهدٍ ما حدث بينهما. تأثر يوچين. كان الشعار منقوشًا داخليًا في ذهب العلبة. كم كانت هذه التحفة تتوافق مع أهوائه زمنًا طويلاً، السلسلة، المفتاح، الأسلوب، الرسومات. بدا الأب جوريو مشرقًا. لا شك أنه كان قد وعد ابنته بأن ينقل إليها أدنى علائم الدهشة التي ستسببها هديتها على يوچين، لأنه الطرف الثالث بين العاطفتين الشابتين، ولم يكن يبدو أنه أقل سعادة. كان يحب بالفعل راستنياك، لابنته ولنفسه أيضًا.

- فلتذهب إليها هذا المساء، فهي في انتظارك. فالألزاسي، الضخم البليد، سيتعشى لدى راقصته. ها! ها! لقد كان أحمق عندما أفحمَهُ محاميَّ. ألا يدَّعي أنه أحب ابنتي حب العبادة؟ سأقتله إذا ما مسها بسوء.

إن فكرة معرفة دلفين بـ... (تنهد) تحفزني إلى ارتكاب جريمة قتل؛ لكنها لن تكون جريمة قتل؛ فله رأس عجل على جسد خنزير. سوف تأخذني معك. أليس كذلك؟

ـ نعم، يا أبي الطيب جوريو، فأنت تعلم جيدًا أنني أحبك.

ـ أرى ذلك! وأنك لا تخجل مني. دعني أعانقك. وأخذه في حضنه. ـ فلتجعلها سعيدة، عدني بذلك! ستذهب هذا المساء، أليس كذلك؟

ـ أوه! نعم! لابد من الخروج لبعض الشؤون التي لا تحتمل التأجيل.

ـ هل بإمكاني أن أعينك في شيء؟

ـ الواقع، نعم! فخلال ذهابي إلى السيدة دو نوسنجن فلتذهب إلى السيد تايفيه الأب، قل له أن يعطيني ساعة من وقته هذا المساء، لأحدثه فيها عن موضوع في غاية الأهمية.

ـ الأمر صحيحٌ، إذن، أيها الشاب، قال الأب جوريو وقد تغيرت سحنته؛ أصحيح أنك تستملح ابنته، كما قال هؤلاء المعاتيه تحتنا؟ يا أعاصير الله! إنكَ لا تدري نتيجة ضربة كهذه على ابنة جوريو. فإذا ما خنتنا، فإن اللكمة ستكون ساحقة. أوه! لكن هذا غير ممكن!

ـ أقسم لك أنني لا أحب سوى امرأة واحدة في العالم، قال الطالب، ولم أتأكد من ذلك إلا منذ وقت قليل.

ـ آه! يا للسعادة! قال جوريو.

ـ لكن، أكمل يوچين، ابن تايفيه سيخرج غدًا، سمعت أنه سيُقتل.

ـ ولكن، ما شأنك أنت بذلك؟ قال جوريو.

ـ لكن ينبغي تنبيهه لمنع ابنه من الخروج... صاح يوچين.

تلك اللحظة، قاطعه صوت ڤوتران، الذي كان على عتبة بابه يغني:

"أووه ريشـار، أووه يا مليـكي!

العالم يهجـرك!

برووم! برووم! برووم! برووم! برووم!

لقد طوفتُ طويـلاً في الآفـاق

ورأونـي...

ترا لا، لا، لا، لا...

ـ سادتي، صاح كريستوف، الحساء في انتظاركم، والجميع على المائدة.

ـ تعال، قال ڤوتران، تناول معي قنينةً من خمري، خمر "بوردو".

ـ هل أعجبتك الساعة؟ سأل جوريو، إن ذوقها رائع، هه!

نزل ڤوتران والأب جوريو وراستنياك معًا، وجلسوا ـ حسب ترتيب دخولهم ـ متجاورين إلى المائدة. أبدى يوچين أكبر برود تجاه ڤوتران خلال العشاء، رغم أن ڤوتران ـ المحبب في عيون ڤوكيه ـ كان في أقصى لماحيته. كان متوقد البديهة، وعرف كيف يبهج النزلاء جميعًا. هذه الثقة، وهذا الدم البارد هو ما كان يُفزع يوچين.

ـ على أي عشب مشيت اليوم؟ سألته السيدة ڤوكيه، إنك مبتهج كطائر الشرشور.

ـ أكون مبتهجًا عندما أقوم بأعمال جيدة.

ـ أعمال؟ قال يوچين.

ـ أجل. خلصتُ دفعة من البضائع التي آمل الحصول من ورائها على عمولة جيدة. آنسة ميشونو، قال ملاحظًا أن الفتاة العجوز كانت تتفحصه. هل يوجد في ملامحي ما لا يروق لك، حتى تنظري إليَّ بعين

*أمريكية**؟ فلتقولي! وسأغيره ليروق لك. پواريه، لن يغضبنا ذلك، أليس كذلك؟ قال وهو يرمق الموظف العجوز.

ـ الرحمة! تستحق أن تصبح موديلا لرسم "هرقل هازلاً"، قال الرسام الشاب لڤوتران.

ـ سيحدث، أقسم! إذا ما قامت الآنسة ميشونو باتخاذ وضع "ڤينوس بير لاشيز"، رد ڤوتران.

ـ وپواريه؟ قال بيانشون.

ـ آه! پواريه يصوَّر كما پواريه. سيكون رب الحدائق! صاح ڤوتران، فاسمه مأخوذ من الكمثرى**.

ـ مهلاً! قال بيانشون. ستكون إذن في منطقة وسطى بين الكمثرى والجبنة!

ـ تلك كلها ترهات، قالت السيدة ڤوكيه، ومن الأفضل أن تناولونا شيئًا من خمر "بوردو" التي ألمح قنينتها. فستوفر لنا البهجة، فضلاً عن أنها مفيدة للمعدة.

ـ سادتي! قال ڤوتران. السيدة الرئيسة ترجو منا النظام. والسيدة كوتور والآنسة ڤكتورين لن تستاءا من أحاديثكم المازحة؛ لكن عليكم احترام براءة الأب جوريو. أقترح عليكم قنينة من خمر "بوردو" الذي جعله اسم "لافيت" شهيرًا بصورة مضاعفة، إذا ما قيل بلا إيحاءات سياسية. هيا، أيها الصيني- قال وهو يرمق كريستوف الذي لم يحرك ساكنًا. كريستوف! كيف لم تسمع اسمك؟ أيها الصيني، أحضر الشراب!

---

* أي: نظرات حادة؛ (المحرر).

** الكمثرى- بالفرنسية- poire، قريبة الشبه تمامًا باسم پواريه Poiret؛ (المحرر).

ـ ها هو، يا سيدي، قال كريستوف وهو يقدم القنينة.

بعد ملء قدحي يوچين والأب جوريو، صب منه بعض القطرات في كأسه وتذوقها، فيما كان جاراه يشربان. وفجأة كشر وجهه.

ـ اللعنة! اللعنة! تشمم السدادة. خذ هذه لك، يا كريستوف، واذهب لتأت لنا منها، هناك، جهة اليمين. أتعرف؟ نحن ستة عشر، فأنزل لنا ثماني قنينات!

ـ بما أنكم ستدفعون، قال الرسام، فأنا أدفع مئة كستناءة!

ـ أووه! أوه!

ـ بوووووووه!

ـ بررررر!

راح كلٌّ منهم يلقي بتعجباته التي تنطلق كسهام نارية.

ـ هيا، يا سيدة ڤوكيه، زجاجتا شامبانيا، صاح ڤوتران.

ـ عجبًا! ماذا قلت؟ لماذا لا تطلب البنسيون كله؟ زجاجتا شامبانيا! إن ثمنهما اثنا عشر فرنكا! أنا لا أربحها، لا! لكن إذا ما أراد السيد يوچين دفع ثمنهما، فسأساهم أنا بثمار الكشمشة.

ـ كشمشتها التي تسهل البطن كأنها المن! همس طالب الطب.

ـ عليك بالصمت، يا بيانشون، صاح راستنياك. لا أريد سماع الحديث عن المن إلا إذا كان القلب... أجل! هيا إلى الشامبانيا، فأنا أدفع ثمنها، أضاف الطالب.

ـ سيلڤي، نادت السيدة ڤوكيه، قدمي البسكويت والحلوى الصغير.

ـ حلواكِ الصغيرة كبيرة جدًّا!، قال ڤوتران، لها لحية! أما البسكويت فقومي بتقديمه.

في لحظة، دارت خمرُ "بوردو" وانتعش النزلاء، وتضاعف السرور. انطلقت ضحكات ضارية يتخللها تقليد أصوات حيوانات مختلفة. وما إن فكر موظف المتحف بإصدار مواء أشبه بمواء القط الذي يطلب أنثاه، حتى انطلقت ثمانية أصواتٍ متزامنة تصيح: أسنُّ السكاكين!ـ حبوب للعصافييير!ـ المتعة يا سيدات! متعتكن يا سيداااات!ـ ألحمُ الصيني المشرووووخ!ـ إلى القارب، إلى القارب! عصًا لضرب النساء والملابس!ـ ملابس قديمة، شارات قديمة، قبعات قديمة للبيييع!ـ هيا إلى الكرييز، هيا إلى اللذااذة!ـ لكن قصب السبق كان لبيانشون على النبرة الأنفية التي صاح بها: أبيع مظلات المطر! في بعض اللحظات، كان ثمة هرج يكسر الرأس، وأحاديث متهافتة، أوبرا حقيقية كان يقودها ڤوتران كقائد للأوركسترا، مراقبًا يوجين والأب جوريو، اللذين كانا يبدوان في حالة سُكر بالفعل. كان الاثنان يتأملان ـ وقد أسندا رأسيهما إلى ظهر الكرسي ـ هذه الفوضى غير المعتادة بوقار، وهما يحتسيان القليل؛ كانا منشغلين بما يتوجب عليهما فعله في السهرة، فإذا بهما غير قادرين على النهوض.

أما ڤوتران، الذي كان يتابع تغيرات وجهيهما، وهو يرمقهما بنظراته من الجنب، فقد انتهز اللحظة التي كانت فيها عيونهما تتذبذب كأنها تريد الإغماض، ليميل على أذن راستنياك ويقول له: يا صغيري، لست تمتلك من الحيلة ما يؤهلك لأن تصارع "بابا ڤوتران" الذي يحبك كثيرًا، فلا يتركك ترتكب الحماقات. إنني إذا ما قررت أمرًا ما، فالإله الطيب وحده هو من يمكنه أن يمنعني عنه. آه! أنت تود إخطار تايفيه الأب، فترتكب أخطاء تليق بتلميذٍ صغير! الفرن مشتعل، والعجين

مختمر، والخبز دخل النار، وغدًا سنجعل الفتات ينقذف خارج أدمغتنا، ونحن نقضمه؛ أم نوقف الخَبز؟... لا، لا، بل سينضج. وإذا ما جابهتنا بعض الندامات الصغيرة، فسيزيحها الهضم. وفيما سنكون نائمين نومنا القصير العابر، فسيفتح لك الكولونيل الكونت "فرانشسيني" السبيل إلى تركة ميشيل تايفيه بحد سيفه. وعندها سترث ڤكتورين- بدلاً من أخيها- خمسة عشر ألف فرنك إيرادًا سنويًا. وقد حصلت مؤخرًا على معلومات تفيد أن تركة الأم تصل إلى أكثر من ثلاثمئة ألف...

أعطاه يوجين أذنيه، وإن لم يتمكن من الرد عليه، كأنما كان لسانه ملتصقًا بغراء في فمه، ووقع فريسة نعاس لا يُقهر؛ فلم يعد يرى المائدة ولا وجوه الضيوف إلا عبر ضباب مضيء! بعد قليل انقشعت الضوضاء وانصرف النزلاء واحدًا في ذيل الآخر. لم يعد هناك سوى السيدة ڤوكيه، والسيدة كوتور، والآنسة ڤكتورين، وڤوتران، والأب جوريو، ولمح راستنياك- كما في حلم- السيدة ڤوكيه منشغلةً بجمع القنينات، لتفرغ منها البقايا لصُنع قنينات ممتلئة.

- آه! أهم مجانين، أهم صغار يافعون! قالت الأرملة.

وكانت تلك آخر جملة وعاها ذهن يوجين.

- ليس سوى السيد ڤوتران مَن يصنع هذه المهازل، قالت سيلڤي. هيا، فكريستوف يشخر كالدوامة!

- إلى اللقاء، يا ماما، قال ڤوتران. أنا ذاهب إلى "البولڤار" لأستمتع بـ"م. مارتي" في "الجبل المتوحش"، وهي مسرحية هائلة مأخوذة من "سوليتير". فإذا ما أردت، سآخذك أنت وهاتين السيدتين.

- أشكرك، قالت السيدة كوتور.

ـ كيف، يا جارتي، صاح ڤوتران، ترفضين مسرحية مقتبسة عن "سوليتير" المستمدة من "أتالا" لـ"شاتوبريان" التي نحب كثيرًا أن نقرأها، والتي استمطرت دموعنا- الصيف الماضي- مثل "ماجدولين تحت ظلال الزيزفون" وهي- في النهاية- عمل أخلاقي يمكن أن يوسع من ثقافة الآنسة؟

ـ ممنوع علينا الذهاب إلى المسرح، أجابت ڤكتورين.

ـ انظرا! لقد دخلا في النعاس! قال ڤوتران وهو يهز- بطريقة كوميدية- رأس كل من الأب جوريو ويوچين.

وعندما وضعوا رأس الطالب على الكرسي ليستريح في نومته، لثم جبينه بحرارة، وهو يغني:

ناموا يا أحبائي الأعزاء

من أجلكما سأسهر أبدًا

ـ أخشى أن يكون مريضًا، قالت ڤكتورين.

ـ إذن ظلي بجواره واعتني به، قال ڤوتران، فذلك- وهمس في أذنها- واجبكِ كامرأةٍ خدوم. إن هذا الشاب يحبك حبَّ العبادة، وستكونين عروسته كما أتنبأ لكِ. وفي النهاية- صاح بصوتٍ جهوري- ***يعيشان في التبات والنبات ويخلفان الصبيان والبنات***. هكذا تنتهي كل قصص الحب. هيًّا، يا ماما- قال مستديرًا نحو السيدة ڤوكيه- ضعي قبعتك، وفستانك الجميل ذا الزهور، ووشاح الكونتيسة. سوف آتي لك بعربة حنطور. وغادر وهو يغني:

يا شمس، يا شمس، أيتها الشمس المقدسة

أنتِ مَن تُنضجِين القَرع...

ـ يا إلهي! انظري، يا سيدة كوتور، فهذا الرجل يجعلني أعيش سعيدةً حتى ولو على السقف. هيا- قالت وهي تلتفت نحو صانع الشعرية العجوز، ها هو الأب جوريو يغطُّ غطيطًا. إن هذا العجوز الشحيح لم يفكر ذات مرة في أن يأخذني معه إلى الخارج، لكنه سيقع على الأرض، يا إلهي! مِن غير اللائق أن يفقد رجل في مثل سنه الرشد! قالت. إننا لا نخسر ما ليس لدينا، يا سيلڤي، أصعديه إذن إلى غرفته!

أمسكت سيلڤي الرجل الطيب من تحت إبطيه، وسندته حتى غرفته، وألقته بملابسه على سريره كما تُلقى صُرة.

ـ يا للفتى البائس! قالت السيدة كوتور، وهي تزيح شعر يوچين الذي سقط على عينيه، إنه يشبه فتاة شابة ولا يعرف ما هو الإفراط!

ـ آه! يمكنني القول إنني منذ واحد وثلاثين عامًا من عمر البنسيون- قالت السيدة ڤوكيه- مرَّ شبان بلا عدد بين يديَّ- كما يُقال- لكنني لم أرَ أحدًا بهذا اللطف وهذا التميز كالسيد يوچين. جميلٌ حتى وهو نائم. خذي رأسه على كتفك، يا سيدة كوتور. ياااه! سقطت على كتف الآنسة ڤكتورين: للصغار ربٌّ يحميهم. بعد قليل، سيفلق دماغه في رأس الكرسي. بالنسبة إليهما، فهما ثنائي رائع.

ـ اصمتي إذن، يا جارتي، صاحت السيدة كوتور، فأنتِ تتحدثين عن أشياء..

ـ يااااه! هو لا يسمع، قالت السيدة ڤوكيه. هيًّا، يا سيلڤي، تعالي، ألبسيني ثيابي. سألبس صدريتي الكبيرة.

ـ آه حسنًا! صدريتك الكبيرة، بعد أن تناولتِ عشاءكِ، يا سيدتي، قالت سيلڤي. لا، فلتبحثي عن أحد غيري ليغلقه لك، فلن أكون

قاتلتك! إنك ترتكبين ما يودي بحياتك.

ـ سيان عندي، لكني أريد إسعاد السيد ڤوتران.

ـ إنك تحبين إذن ورثتك كثيرًا!

ـ هيا، يا سيلڤي، لا حُجج! قالت الأرملة وهي تشق طريقها.

ـ في عمرها هذا! قالت الطاهية لڤكتورين مشيرة لسيدتها.

ظلت السيدة كوتور في صالة الطعام، وحدها مع الفتاة التي نام على كتفها يوچين. كان شخير كريستوف يتردد في الدار الصامتة، ويتناقض مع النوم اللطيف ليوچين، الذي كان غافيًا بوداعة طفل. مسرورةً بقيامها بأحد الأفعال الخيرية، التي ستتناثر فيها مشاعر الأنثى، وتجعلها تحس بقلبها يخفق ـ بلا إثم ـ على قلبه، كان في وجه ڤكتورين شيءٌ ما من أمومة تفخر بها. وعبر الألف فكرة التي تعتمل في قلبها، كانت تبزغ دفقة شهوة يذكيها تبادل حرارة صافية يانعة.

ـ فتاتي المسكينة العزيزة! قالت السيدة كوتور وهي تهز يدها.

كانت السيدة العجوز تعشق هذا الوجه الطيب المعذَّب، الذي تتنزل عليه هالة من السعادة. وكانت ڤكتورين شبيهة بأحد تلك الرسوم الساذجة من العصر الوسيط، التي يهمل الفنان فيها جميع الإضافات، حيث يحتفظ بسحر الريشة الوادعة المختالة للوجه الشاحب، الذي يبدو كأن السماء تنعكس عليه بدرجات الذهبي.

ـ مع أنه لم يشرب سوى كأسين، يا أمي! قالت ڤكتورين وهي تمرر أصابعها في شعر يوچين.

ـ لو كان سكيرًا، يا ابنتي، لعبَّ الخمر كغيره. فسُكره دليل على براءته.

ترددت في سكون الليل جلبة عربةٍ قادمة.

ـ أمي، قالت الشابة، إنه السيد ڤوتران. خذي إذن السيد يوچين. لا أود أن يراني هذ الرجل في حالتي هذه؛ فله تعبيرات توسخ الروح، ونظرات للمرأة مريبة كأنما يعريها من ثيابها.

ـ لا تقولي ذلك، سيدة كوتور، أنتِ مخطئة! فالسيد ڤوتران رجل شهم، إلى حدٍّ ما من نوع المرحوم كوتور، خشن، إلا أنه طيب. شكِسٌ لكنه خيِّر.

في تلك اللحظة، دخل ڤوتران بنعومة تامة، وتطلع إلى اللوحة التي كوَّنها الشابان اللذان يبدو ضوء المصباح كأنما يداعبهما.

ـ حسنًا! قال عاقدًا ذراعيه، هذا أحد المشاهد التي لابد أنها أوحت بصفحات رائعة لذلك الرائع "برنادان دو سان-بيير" مؤلف "بول وڤرجيني". الشباب جميل بنفسه، يا سيدة كوتور. فنم، يا صغيري البائس، قال وهو يتأمل يوچين، فالخير أحيانًا يأتي خلال النوم، يا سيدتي، يستأنف حديثه للأرملة، إن ما يربطني بهذا الشاب، ويؤثر في نفسي، هو جمال روحه المتناغم مع صفاء وجهه. انظري! أليس هذا وجه طفل مجنح يستند إلى كتف ملاك؟ إنه لجدير بأن يُحَب! ولو كنتُ امرأة لكنت أموت (لا، أليست حماقة؟) لكنت أحيا من أجله. إني إذ أعجب بهما هكذا، يا سيدتي، قال بصوت خفيض منحنيًا على أذن الأرملة، لا أستطيع منع نفسي من التفكير في أن الله قد أبدعهما ليكون الواحد منهما للآخر. إن للعناية الإلهية مسالكها الخفية، تسبر غور القلب والحقو، صاح بصوت عال. عندما أراكما متحدين، يا طفليَّ، متحدين بنفس النقاء، وبكل المشاعر الإنسانية، أؤكد لنفسي أن من المستحيل أن تنفصلا

في المستقبل أبدًا. فالله عادل. ولكن- قال للشابة- يبدو أنني أرى فيكِ خيوط رفاهية. هل تعطينني يدك، يا آنسة ڤكتورين؟ فأنا أفهم في قراءة الكف، وكثيرًا ما تنبأت بالمستقبل. هيا، لا تخافي. آه! ماذا ألمح؟ شهادة رجل شريف، عما قريب ستكونين إحدى أغني الوريثات في باريس، وستسعدين كثيرًا الرجل الذي يحبك. سيدعوكِ والدك لتكوني بجانبه. وستتزوجين رجلاً مرموقًا، شابًّا، وسيمًا، يحبك حب العبادة.

في تلك اللحظة، قطعت الخطوات الثقيلة للأرملة المغناجة النازلة تنبؤات ڤوتران.

- ها هي ماما ڤوكيه، جميلة مثل نجم، محزومة كجزرة. أتخنقيننا لتصبحي رشيقة؟ قال لها وهو يضع يده على أعلى الصدرية، الجزء الأمامي مشدودٌ جيدًا، يا ماما. لكننا إن بكينا، فسيحدث انفجار؛ لكني سأجمع البقايا بعنايةِ عالم آثار.

- إنه ملمٌّ بالغزليات الفرنسية، ذلك الرجل! قالت الأرملة، وهي منحنية على أذن السيدة كوتور.

- وداعًا، يا أولادي، أكمل وقد استدار نحو يوچين وڤكتورين، أبارك حبكما، قال وهو يمرر يده على رأسيهما. صدقيني، يا آنسة، إن أمنيات إنسان صادق أمرٌ جديرٌ بالاعتبار، فلابد أن تحمل السعادة، فالله ينصت إليها.

- وداعًا، صديقتي الغالية، قالت السيدة ڤوكيه لنزيلة بنسيونها، أترين- أضافت بصوت خفيض- أن للسيد ڤوتران نوايا خاصة تجاهي؟

- هييه!

- آهٍ! يا أمي الغالية. قالت ڤكتورين وهي تتنهد- وتنظر في كفيها وقد

صارت المرأتان وحدهما ـ لو كان هذا السيد ڤوتران الطيب ينطق بالحق!

ـ لا يلزم إلا شيء واحد لذلك، ردت السيدة العجوز، أن يسقط شريكُك عن حصانه!

ـ آهٍ! يا أمي.

ـ يا إلهي! ربما نرتكب خطيئة بتمنينا الشر لعدونا، قالت الأرملة. حسنًا! سأصبر عليه. في الحقيقة، سأحضر لهُ ـ عن طيب خاطر ـ أزهارًا أضعها على مقبرته. يا لقلبه الأسود! لم يجد في نفسه الشجاعة لصالح أمه، التي استولى على ما يخصك من ميراثها بكل الأحاييل. كانت لابنة عمومتي ثروة طائلة. ولسوء حظك، فلم يُذكر شيء في العقد عن نصيبك منها.

ـ ستكون سعادتي باهظة جدًّا على كاهلي إذا كان ثمنها حياة إنسان، قالت ڤكتورين. وإذا كانت سعادتي مرهونةً باختفاء أخي، فإنني أفضل البقاء على ما أنا عليه الآن وإلى الأبد.

ـ يا إلهي! كما قال هذا السيد الطيب ڤوتران، الذي ترينه مفعمًا بالإيمان، أكملت السيدة كوتور، والذي يسرني أن أراه غير جاحد كالآخرين الذين يتحدثون عن الله بقدر من الاحترام أقل مما يولونه للشيطان. حسنًا! فمن يمكنه معرفة بأي سُبل يطيب للعناية الإلهية أن تقودنا؟

بمساعدة من سيلڤي، قامت المرأتان بحمل يوچين إلى حجرته، ومددتاه على سريره، وقامت الطاهية بفك ثيابه ليكون أكثر راحة. أما ڤكتورين، فقبل خروجها من الحجرة، وعندما أعطتها راعيتها ظهرها، قامت بطبع قبلة على جبين يوچين بكل السعادة التي يمكن أن تأتي بها

لذة مسروقة. نظرت في حجرته، والتقطت- تقريبًا وفي لمحة واحدة- ألفَ هناء وبهجة من ذلك النهار، وصنعت منها لوحة ستتأملها طويلاً، ونامت كأسعد مخلوقة في طول باريس وعرضها.

إن الاحتفالية التي سقى ڤوتران خلالها كلاً من يوچين والأب جوريو الخمر ممزوجةً بالمخدر، كانت وبالاً على الساقي. نسي بيانشون- وهو في منتصف النشوة- أن يسأل الآنسة ميشونو عن "خادع الموت". فلو كان قد نطق باسمه، لكان قد أيقظ بالتأكيد حذر ڤوتران، أو- لنعطيه اسمه الحقيقي- جاك كولان، أحد مشاهير السجن. ثم إن لقب "ڤينوس الأب لاشيز" جعل الآنسة ميشونو تصمم على أن تسلم إلى العدالة المحكومَ عليه بالأشغال، في لحظة كانت تفكر فيها- واثقة من سخاء كولان- ما إذا كان من الأفضل أن تنبهه، وتدفعه إلى الهروب في الليل. خرجت ميشونو مصحوبة بپواريه يقصدان كبير رجال البوليس الشهير، بشارع سانت-آن الصغير، معتقدين أنه موظف كبير يدعى جونديرو. استقبلهما مدير البوليس القضائي بترحاب. ثم، بعد محادثة تم فيها تحديد كل شيء، طلبت الآنسة ميشونو الجرعة التي ستعين على التحقق من العلامة. حدست الآنسة ميشونو- من الحالة المغتبطة التي يبدو عليها الرجل الكبير ساكن شارع سانت-آن الصغير، وهو يبحث عن قارورة في درج مكتبه- أن في عملية القبض ما هو أكثر أهمية من مجرد توقيف شخص بسيط محكوم عليه بالأشغال الشاقة. ومن فرط ما اعتصرت ذهنها، تشككت في أن البوليس كان يأمل- بعد بعض الاعترافات التي قدمها خونة السجن- في وضع يده، في الوقت المناسب، على مبالغ طائلة. وعندما عبرت عن تخميناتها لذلك الثعلب، لمعت على شفتيه

ابتسامة، وأراد أن يزيل شبهات الفتاة العجوز.

ـ أنتِ تخطئين، أجاب. كولان هو *السوربون* الأشد خطورة، الذي لم يوجد له مثيل بين اللصوص. هذا كل شيء. والخبثاء يعرفونه تمامًا؛ هو رايتهم، ودعامتهم و"بونابارتهم" في النهاية؛ وجميعهم يحبونه. وهو لن يترك لنا *ترونش* أبدًا في "ميدان جريف".

ولأن الآنسة ميشونو لم تفهم، راح جونديرو يشرح لها الكلمتين العاميتين اللتين استخدمهما. فكلمتا "سوربون" و"ترونش" مصطلحان من لغة اللصوص، تُشعران بضرورة النظر إلى الرأس الإنسانية في شكلين. فـ"السوربون" هي رأس الإنسان الحي، تفكيره، وتدبيره. أما "الترونش" فكلمة احتقار تستهدف التعبير عن تفاهة الرأس بعد أن تُقطع.

ـ كولان يتلاعب بنا، أكمل. وعندما نلتقي برجال من هؤلاء يشبهون قضبان فولاذ مسقي على الطريقة الإنجليزية، فإننا نملك وسيلتنا لقتلهم، إذا ما أبدوا ـ أثناء القبض عليهم ـ أدنى مقاومة. ونحن ندرس بضع طرق لقتل كولان صباح الغد. وبذا، نتحاشى القضية، ونفقات المخبرين، والتغذية، وهذا يريح المجتمع. المرافعات، استدعاء الشهود، حوالاتهم، وتنفيذ الحكم؛ فكل ما ينبغي القيام به شرعًيا وقانونيًا ـ للتخلص من أمثال هؤلاء المشاغبين ـ يكلف أكثر من آلاف الريالات التي ستحصلين عليها. وثمة اقتصاد في الوقت. فطعنة جيدة بالسونكي في كرش "خادع الموت" ستمنع عنا مئة جريمة، ونتحاشى فساد خمسين تابعًا سيلتزمون التعقل تمامًا في محيط محاكم الجنح. ذلك هو البوليس المتقن. ووفقًا لهؤلاء المحبين للبشرية الحقيقيين، فالأفضل توقع الجرائم.

ـ هذا لخدمة البلد، قال پواريه.

ـ حسنًا! أجاب الشرطي الكبير. لقد قلت أشياء معقولة هذه الليلة. نعم، بالتأكيد، نحن نخدم البلد. والعالم من وجهة نظرنا غيرُ عادل. إننا نؤدي لمجتمعنا خدمات كبيرة جدًّا في الخفاء. وأخيرًا، فعلى الإنسان السامي أن يرتفع فوق الأهواء، وعلى المسيحي أن يتكيف مع التعاسات التي يجرها عليه فعله للخيرات، حين لا يتبع الأفكار السائدة. باريس هي باريس. أترون؟ هذه الكلمة تفسر حياتي. يشرفني أن أحييكِ يا آنسة. سأكون غدًا مع رجالي في حديقة "روا". فأرسلي كريستوف إلى شارع بوفون، إلى السيد جونديرو، في المنزل الذي قابلتني فيه من قبل. سيدي، أنا خادمك. إذا ما سرقوا منك يومًا أي شيء، فأبلغني، فأعيده لك، فأنا تحت أمرك.

ـ أجل! قال پواريه إلى الآنسة ميشو، ثمة حمقى تجعلهم كلمة بوليس ينقلبون رأسًا على عقب. هذا السيد لطيف جدًّا، وما يطلبه منك سهل مثل "صباح الخير".

كان على اليوم التالي أن يحتل مكانة متميزة بين الأيام الأكثر استثنائية في تاريخ "دار ڤوكيه". أما قبل، فكان الحدث الأبرز في تلك الحياة الوديعة هو الظهور الخاطف للكونتيسة الزائفة لمبرمسنيل. لكن كل ذلك سيبهت لونه إزاء أحداث ذلك اليوم العظيم، والذي سيظل أبدًا مثار تساؤل في حوارات السيدة ڤوكيه. في البداية، نام جوريو ويوچين دو راستنياك حتى الحادية عشرة. والسيدة ڤوكيه ـ التي كانت قد رجعت من مسرح "لا جيتيه" في منتصف الليل ـ بقيت في فراشها حتى العاشرة

والنصف. والنوم الطويل لكريستوف- بفعل خمر ڤوتران- أدى إلى تأخير الخدمات في البنسيون. ولم تصدر عن پواريه ولا الآنسة ميشونو أية شكوى بخصوص تأخير موعد الفطور. أما بالنسبة لڤكتورين والسيدة كوتور، فقد نامتا حتى الضحى. غادر ڤوتران البنسيون قبل الساعة الثامنة، وعاد في الوقت الذي يُقدم الإفطار فيه. لم يحتج أحد بكلمة إذن، عندما راحت سيلڤي وكريستوف- في نحو الحادية عشرة والربع- يدقان أبواب الحجرات صائحين: "المائدة في انتظاركم". وفي غياب سيلڤي والخادم، كانت الآنسة ميشونو أول مَن نزل، فسكبت الجرعة في الكأس الفضية الخاصة بڤوتران، والتي كان الزبد المعد للقهوة يغلي بها دونًا عن سواها. راهنت الفتاة العجوز على هذه التقليد الخاص بالبنسيون لتفعل فعلتها. ولم يخل الأمر من بعض الصعوبة ليلتئم شمل النزلاء السبعة. وعندما كان يوچين يترل فاردًا ذراعيه، كآخر النازلين، سلمه الوسيط رسالة من السيدة دو نوسنجن كانت على النحو التالي:

"لا أملك الكبرياء الزائفة ولا الغضب منك، يا صديقي. لقد انتظرتك حتى الثانية بعد منتصف الليل. يا لانتظار المرء إنسانًا يحبه! ومَن عرف هذا العذاب لا يفرضه على إنسان. أعلم تمامًا أنك تحب للمرة الأولى في حياتك. فما الذي جرى إذن؟ لقد استبد بي القلق. ولو لم أكن حريصة على عدم فضح أسرار قلبي، لأتيتك لأعرف ما جرى لك خيرًا كان أم شرًّا. لكن الخروج في مثل تلك الساعة، سيرًا على الأقدام أو في سيارة، ألا يكون في ذلك ضياعي؟ أحسستُ بالتعاسة لكوني امرأة. طمئني عليك. فسر لي عدم مجيئك، بعد ما حدثك به أبي. سأغضب لكني

سأسامحك. أأنت مريض؟ ولماذا تقطن بعيدًا هكذا؟ كلمة، من فضلك. نلتقي قريبًا، أليس كذلك؟ ستكفيني كلمة واحدة إذا ما كنت مشغولاً. قل: "موافق" أو "أعاني". أما إذا كنت مريضًا تمامًا، فسيأتي أبي ويخبرني. فما الذي حدث، إذن؟..."

ـ ماذا حدث؟ صاح يوچين مندفعًا إلى صالة الطعام، وهو يطوي الخطاب دون أن يكمله. كم الساعة الآن؟

ـ الحادية عشرة والنصف، قال ڤوتران وهو يقلّب السكر في قهوته.

ألقى المحكوم عليه بالأشغال الشاقة، الهارب، على يوچين، نظرةً فاتنة بصورة باردة، من تلك النظرات التي ترسلها أعين المنومين مغناطيسيًّا، والتي ـ كما يُقال ـ تهدئ المجانين المرعبين في المصحات العقلية. ارتعد يوچين في كل أعضائه. من الشارع، جاءت جلبة عربة حنطور، وظهر حاجب من حُجَّاب السيد تايفيه، تعرفت عليه السيدة كوتور، ودخل فجأةً بسيماء مذعورة.

ـ آنستي، صاح، السيد والدك ينتظرك. حدث حادثٌ جَلَل. السيد فردريك خاض مبارزة تلقى فيها ضربة سيف في جبينه، والأطباء يائسون من شفائه؛ ولديكِ بالكاد وقت لتوديعه، فهو فاقد الوعي.

ـ يا للشاب المسكين! صاح ڤوتران. لماذا يجازف بحياته في المبارزة رغم امتلاكه ثلاثين ألف جنيه دخلاً سنويًّا؟ بالتأكيد، لا يعرف الشاب كيف يتصرف.

ـ سيدي، صاح به يوچين.

ـ حسنًا! ما بك، أيها الطفل الكبير، قال ڤوتران، وهو يُجهز بهدوء على فنجان قهوته، عملية كانت الآنسة ميشونو تتابعها بعين بالغة

الانتباه، فلم تتأثر بهذا الحدث الاستثنائي الذي أذهل الجميع. ألا توجد مبارزات كل صباح في جميع أرجاء باريس؟

ـ سآتي معك، يا ڤكتورين، قالت السيدة كوتور.

وطارت المرأتان، بلا وشاح ولا قبعة. وقبل أن تغادرا المكان، ألقت ڤكتورين على يوچين ـ وعيناها دامعتان ـ نظرة قالت: "لم أفكر أبدًا أن سعادتنا ستتسبب لي في الدموع".

ـ حسنًا! إذن فأنت نبي يا سيد ڤوتران؟ قالت السيدة ڤوكيه.

ـ أنا كل شيء، قال جاك كولان.

ـ إن هذا لمن أعجب الأعاجيب! واصلت السيدة ڤوكيه، وهي تتفوه بمتتالية من العبارات التي لا معنى لها عن هذا الحدث. يأخذنا الموت دون استشارتنا. والشبان يذهبون غالبًا قبل الشيوخ. سعيداتٌ نحن معشر النساء لأننا لا نخوض مبارزات؛ لكن لنا أمراضنا التي لا تصيب الرجال. فنحن نحمل ويدوم ألم الأم طويلاً! يا لحظ الآنسة ڤكتورين! أصبح والدها مجبرًا على أن يتبناها!

ـ هذا حق، قال ڤوتران وهو يتطلع إلى يوچين. بالأمس لم يكن معها فلس واحد، فإذا بها هذا الصباح تمتلك الملايين.

ـ قل لي، إذن، يا سيد يوچين، صاحت السيدة ڤوكيه، لقد وضعت يدك على الموضع الصحيح!

وأمام تلك الاستجوابات، نظر الأب جوريو إلى الطالب، ولفت نظره إلى الرسالة المطبقة.

ـ إنك لم تكمل قراءتها! فما معنى ذلك؟ هل ستكون مثل الآخرين؟

ـ سيدتي! لن أتزوج أبدًا من الآنسة ڤكتورين، قال يوچين متجهًا إلى

السيدة ڤوكيه، وقد تملك الرعب والتقزز مشاعره حتى أدهش الجميع.

أمسك الأب جوريو يد الطالب، وضمها، وتمنى لو قبلها!

ـ أوه! أوه! للإيطاليين كلمة جيدة، قال ڤوتران، "سيحدث مع الوقت!"

ـ أنا في انتظار الرد، قال مبعوث السيدة دو نوسنجن لراستنياك.

ـ قل إنني سأجيء.

ذهب الرجل. كان يوچين في حالة عنيفة من الاهتياج لم تسمح له بأن يكون حذرًا.

ـ ما العمل؟ قال بصوت عال محدثًا نفسه، لا دليل ولا إثبات!

بدأ ڤوتران يبتسم. في هذه اللحظة بدأت الجرعة التي امتصتها المعدة تفعل مفعولها. مع ذلك، كان المحكوم عليه بالأشغال الشاقة قويًا لدرجة أنه تمكن من النهوض، حدق في وجه راستنياك، وقال بصوت أجوف: "أيها الشاب، قد يأتينا الخير ونحن نغط في نومنا".

وسقط متصلبًا.

ـ إنها العدالة الربانية، إذن! قال يوچين.

ـ حسنًا! ما الذي جرى لهذا البائس العزيز، السيد ڤوتران؟

ـ سكتة دماغية، صاحت الآنسة ميشونو.

ـ هيا، يا سيلڤي، يا ابنتي، فلتذهبي لاستدعاء الطبيب، قالت الأرملة. آه، يا سيد راستنياك! اجرِ بسرعة إلى السيد بيانشون، فسيلڤي لن تستطيع استدعاء طبيبنا السيد جرمبل.

ركض راستنياك هاربًا، سعيدًا بمبرر مغادرة ذلك المأوى المرعب.

ـ كريستوف، هيا، اجرِ إلى الصيدلي، واطلب علاجًا للسكتة

الدماغية. خرج كريستوف.

ـ ولكن، يا أب جوريو، فلتساعدنا على نقله إلى أعلى، إلى غرفته.

وتم نقل ڤوتران عبر السلّم، ووُضع على سريره.

ـ لن أفيدكم بشيء. أنا ذاهب إلى ابنتي، قال السيد جوريو.

ـ أيها الأناني العجوز! صاحت السيدة ڤوكيه. اذهب مع تمنياتي لك بأن تموت مثل كلب!

ـ هاتوا لنا إذن بعض الإثير، قالت الآنسة ميشونو، التي- بمساعدة پواريه- قامت بخلع ملابس ڤوتران. ونزلت السيدة ڤوكيه تاركة الآنسة ميشونو تدير ساحة المعركة.

ـ هيا، انزع عنه هذا القميص، وأدره بسرعة! كن فالحًا في شيء، وجنبني رؤية عورته، قالت لپواريه، أنت غارق في ذهولك!

أُدير ڤوتران، ووجهت الآنسة ميشونو إلى كتفه صفعة قوية، وظهر الحرفان القاتلان أبيضين وسط مساحة حمراء.

ـ ها أنت بحذقك تكسبين منحة الثلاثة آلاف فرنك، صاح پواريه، وهو يوقف ڤوتران لتلبسه الآنسة ميشونو قميصه. أووف! إنه ثقيل، قال وهو يمدده من جديد.

ـ اصمت! هل يوجد هنا صندوق؟ قالت الفتاة العجوز بحيوية تامة وعيناها تكادان تثقبان الجدران، حتى إنها كانت تتفحص بشراهة أصغر قطعة أثاث في الحجرة. ـ لو بإمكاننا فتح درج هذا المكتب بأية حجة.

ـ سيكون هذا العمل طائشًا، أجاب پواريه.

ـ لا، فالمال المسروق ملك للجميع ولا يخص شخصًا بعينه، ولكن الوقت ليس في صالحنا، أجابت. أسمع السيدة ڤوكيه قادمة.

ـ إليكما الإثير! قالت السيدة ڤوكيه. هذا اليوم يُضرب به المثل في أحداثه! يا إلهي! هذا الرجل لا يمكن أن يكون مريضًا، إنه أبيضُ كدجاجة!

ـ كدجاجة؟ كرر پواريه كلامها.

ـ قلبه يدق بانتظام، قالت الأرملة، وقد وضعت يدها على قلبه.

ـ بانتظام، قال پواريه مندهشًا!

ـ إنه في حالة جيدة جدًّا.

ـ أتجدينه هكذا؟ سألها پواريه.

ـ سيدتي! يبدو كأنه نائم. ذهبت سيلڤي لتأتي بالطبيب. وها هوـ يا آنسة ميشونوـ يستنشق الإثير. باااه! إنه تقلص عضلي. لكن نبضه جيد. إنه قوي كرجل تركي. انظري إذن يا آنسة، أية لبدة شعر فوق معدته؛ سيعيش مئة سنة، هذا الرجل! حتى "باروكته" ملصوقة، فشعره زائف، يعود إلى كونه أحمر. يُقال إن الأحمر إما أن يكون جيدًا تمامًا، أو سيئًا تمامًا. سيكون هو جيدًا، أليس كذلك؟

ـ جيدٌ للشنق!

ـ تريد أن تقول كعنق امرأة جميلة، صاحت الآنسة ميشونو بحيوية. هيا، غادرنا يا سيد پواريه. ولك علينا أن نعتني بك ونمرضك عندما تمرض. وفضلاً عن ذلك، فيمكنـ لأنك طيبـ أن تتنزه بعيدًا عنا، أضافت. أنا والسيدة ڤوكيه سنعتني جيدًا بهذا السيد ڤوتران الغالي!

غادر پواريه المكان بلطف، وبلا غمغمة، ككلب ركله سيده. وكان راستنياك قد غادر البنسيون ليتمشى، ويتنسم الهواء؛ فقد كان يختنق. وقعت الجريمة في وقتها المحدد، وكان قد أراد منعها الليلة السابقة. فما

الذي حدث؟ وماذا كان بالامكان أن يفعل؟ كان يرتعد لكونه شريكًا فيها. وكان دم ڤوتران البارد ما يزال يروعه.

ـ وإذا مات ڤوتران دون أن يتكلم؟ فكر راستنياك. كان ذاهبًا باتجاه مماشي "اللكسمبورج" كأنه ملاحق بسرب من الكلاب، وكان يبدو له أنه يسمع النباح.

ـ حسنًا! صاح بيانشون، هل قرأت *الدليل*؟

كانت *الدليل* جريدة يومية راديكالية يديرها السيد تيسو، وكانت تصدر-خصيصًا للأرياف- بعد ساعات من ظهور الصحف الصباحية، كطبعة تأتي فيها أحداث اليوم، مما يهيء لها السبق يومًا كاملا تقريبًا على جرائد الصباح.

ـ بها حكاية مدوية، كما صرح المتحدث باسم مستشفى "كوشان". فقد تبارز تايفيه الإبن مع الكونت "فرانشيسيني" - من الحرس القديم- الذي أصابه إصابتين في جبينه. وها هي ڤكتورين الصغيرة تغدو واحدة من أغنى غنيات باريس. هه! لو كنا نعرف ذلك! ما الأربعون والثلاثون سوى الموت! أحقًا تنظر إليك ڤكتورين بعين الرضى؟

ـ اسكت، يا بيانشون! لن أتزوجها إطلاقًا! أنا أحب امرأة في غاية العذوبة، وهي تحبني، وأنا...

ـ إنك تقول لي ذلك وكأني أجبرك على ألا تخلص لها. أرني إذن أية امرأة تساوي التضحية بأموال تايفيه؟

ـ جميع الأبالسة يلاحقونني! صاح راستنياك.

ـ أجننت؟ أعطني يدك لأجس نبضك، قال بيانشون، أنت محموم.

ـ اذهب إذن إلى الأم ڤوكيه، قال له يوچين، ستجد الأثيم المجرم

ڤوتران وقد سقط كأنما مات.

ـ آه! قال بيانشون الذي ترك راستنياك وحيدًا، إنك تؤكد لي شكوكًا عليَّ أن أتثبت منها.

كانت النزهة الطويلة التي يقوم بها طالب الحقوق رصينة. كانت- على نحوٍ ما- جولة في ضميره. فإذا ما تحير، إذا ما استقصى ذاته، إذا ما تردد، فإن نزاهته- على الأقل- قد خرجت من هذه المعمعمة المريرة المرعبة وقد صلُب عودها، كقضيب حديد يتأبَّى على كل المحاولات. تذكر الأسرار التي باح له بها الأب جوريو الليلة الماضية، تذكر الشقة المختارة له بالقرب من دلفين، بشارع "أرتوا". استعاد الرسالة، وأعاد قراءتها، وقبلها. — "إن هذا الحب هو فرصتي الأخيرة، قال لنفسه، لقد عاني هذا العجوز البائس من كل قلبه. لا يذكر شيئًا عن همومه، لكن من الذي لا يحدس بها! حسنًا! سأرعاه كوالد، وأقدم له ألف بهجة. وإذا ما أحبتني، فستأتي عندي كثيرًا لتقضي نهارها بالقرب منه. وهذه الكونتيسة العظيمة دو روستو سافلة، فتجعل من والدها بوابًا لها"!

عزيزتي دولفين! هي الأفضل للرجل الطيب المسكين، الجديرة بأن تُحَب. آه! سأكون سعيدًا هذا المساء! أخرج الساعة، أُعجب بها. ـ كل شيء يؤكد نجاحي! عندما نحب بعضنا البعض دائمًا، يمكن أن نتعاون، ويصلني مثلُ هذا. ثم إنني سوف أصل، بالتأكيد، ويمكنني رد الهدية بمئة ضعف. وليس في هذه العلاقة جريمة، لا شيء أبدًا مما يقطب حاجبَ الفضيلة الأشد تزمتًا. كم من الشرفاء المحترمين يتوافقون على مثل تلك العلاقات! نحن لا نخدع أحدًا؛ ولا يشين المرء إلا الكذب. الكذب، أليس هو التخاذل؟ لقد انفصلت دلفين عن زوجها منذ زمن. ثم إنني

قلت له، لذلك الألزاسي، بلساني، أن يتنازل لي عن امرأة ليس بإمكانه أن يسعدها.

سيستغرق صراع راستنياك زمنًا طويلا. ومع أن النصر يتوجب أن يحالف فضائل الشباب، فقد رجع- بفضول لا يقهر- بعد الساعة الرابعة والنصف، مع بشائر الظلام، إلى البنسيون، الذي كان قد قرر أن يغادره إلى الأبد. كان يودُّ أن يعرف ما إذا كان ڤوتران قد مات. بعد أن واتته فكرة إعطائه مُقيئًا، قام بيانشون بحمل قيئهِ إلى مستشفاه ليتم تحليله كيميائيًّا. وإذ رأى إصرار الآنسة ميشونو على التخلص من القيء، تدعمت شكوكه. وفضلاً عن ذلك، فقد أفاق ڤوتران بسرعة، بحيث كان من المستحيل ألا يتشكك بيانشون بأن مؤامرة قد دبرت ضد المداعب المرح في البنسيون. وساعة وصول راستنياك، كان ڤوتران واقفًا لدى الموقد في صالة الطعام. كان النزلاء- فيما عدا الأب جوريو- مجتمعين أبكرَ من المعتاد، مشدودين لخبر مبارزة "دو تايفيه" الإبن، وفضولهم لمعرفة تفاصيل الواقعة، وتأثيرها على ڤكتورين، وراحوا يتحدثون في شأنها. وإذ دخل يوچين، التقت عيناه بعيني الرزين ڤوتران، الذي نفذت نظرته من قبل في قلبه، وحركت فيه بقوة بعض الأوتار الشريرة، فارتعدت فرائصه.

- حسنًا! يا طفلي العزيز، قال له المحكوم بالأشغال الشاقة الهارب، فالموت سيخطئ معي زمنًا طويلاً. وأنا، طبقًا لهؤلاء النسوة، خرجتُ منتصرًا من نزيف في المخ يمكن أن يقتل بقرة.

- بإمكانك أن تقول ثورًا هائلاً، صاحت الأرملة ڤوكيه.

- فهل يغضبك إذن أن تراني على قيد الحياة؟ همس ڤوتران في أذن

راستنياك الذي ظن أنه يخمن أفكاره، فلابد أن تكون قويًا بشيطانية.

- آه! في الواقع، قال بيانشون، كانت الآنسة ميشونو تتحدث أول أمس عن سيد يُدعى "خادع الموت"؛ واللقب ينطبق عليك تمامًا الآن.

كان لتلك الكلمة وقعُها الصاعق على ڤوتران: امتقع وجهه وترنح، وسقطت نظرته المغناطيسية كشعاع شمس على الآنسة ميشونو، التي كسرت لها تلك الدفقة من الإرادة ساقيها! تركت الفتاة العجوز نفسها ترتمي على أحد المقاعد. اندفع پواريه بهمةٍ ليحجز بينها وبين ڤوتران، مدركًا أنها في خطر؛ لأن وجه المحكوم بالأشغال الشاقة كان بالغ الدلالة، بعد أن أسقط قناع الحِلم الذي كان يتخفى تحته سمتُه الحقيقي. ولأن النزلاء لم يفقهوا شيئًا بعد من هذه الدراما، فقد بقوا في ذهولهم. في تلك اللحظة، سُمعت خطى العديد من الرجال، وصوت طلقات نارية من قبل الجنود المتواجدين في الشارع. وفي اللحظة التي كان فيها ڤوتران يبحث بصورة آلية عن مخرج ، بالنظر إلى النوافذ والجدران، ظهر أربعة رجال على باب الصالون. أولهم رئيس المباحث، والثلاثة الآخرون ضباط أمن.

- باسم القانون والملك، قال أحد الضباط، وقد امتزج خطابه بغمغمات الدهشة.

ران السكون على صالة الطعام، وأفسح النزلاء الطريق ليمر الرجال الثلاثة، وأيديهم في جيوبهم الجانبية، يمسكون بمسدساتهم المشحونة. كان شرطيان ممن يتابعان العملاء يحتلان باب الصالون، واثنان آخران ظهرا في الباب الموصل إلى السلم. كانت الأقدام وبنادق جنودٍ كثيرين ترن على الجانب المبلط بالحصباء بامتداد واجهة البنسيون. وكان كل أمل في

الهرب موصدًا على "خادع الموت"، الذي كانت الأنظار قد توقفت عليه بصورة لا تُقاوَم. اتجه القائد نحوه مباشرة، وبدأ بلطمه لطمة بالغة العنف، أطارت الباروكة، وأعادت إلى رأس كولان كل بشاعتها. كانت هذه الرأس وذلك الوجه ـ محفوفين بشعر أحمر قرميدي وقصير كان يمنحه سمةً مريعة من القوة الممزوجة بالحُمرة ـ يتناغمان مع النصف العلوي من جسده، يضيئهما ذكاء، كأن نيران الجحيم هي التي توقد توهجه. جميعهم فهموا فوتران تمامًا، ماضيه، وحاضره، ومستقبله، وأفكاره الشرسة، وعقيدة متعته الطيبة، المهابة التي كانت تضفي عليه رواقيةً لأفكاره، لأفعاله، لعقيدة التنظيم الصالح لكل شيء. صعد دمه إلى رأسه، ولمعت عيناه كعيني قط متوحش. وثب من مكانه بحركة استمدها من طاقة وحشية، هدَر فانتزع صرخات الرعب من جميع النزلاء. إزاء هذه اللفتة الأسديَّة، واستغلالاً للهدوء السائد، سحب رجال الشرطة مسدساتهم. أدرك كولان الخطر المحدق به لدى رؤية فوهات الأسلحة تلتمع، فقدم البرهان على أعلى درجات القوة الإنسانية. منظر مرعبٌ ومهيب! كانت سحنته تمثل ظاهرة لا يمكن مقارنتها إلا بمرجل مثقل بذلك البخار الداخن الذي يكلل قمم الجبال، وينحلُّ إلى قطرة ماء باردة في طرفةِ عين. قطرة الماء التي برَّدَت غضبه كانت انعكاسًا سريعًا كالبرق. شرع في الابتسام، ونظر إلى "باروكته".

ـ لا أراك اليوم مجاملاً كما عهدتك! قال لرئيس المباحث. ثم مد يديه لرجال الأمن وهو يومئ برأسه مناديًا: سادتي رجال الأمن، ضعوا الأصفاد أوالكلابشات. وأعتبر الحاضرين شهودًا بأني لم أقم بأية مقاومة.

سرت غمغماتُ إعجاب، بالسرعة التي كانت تندفق بها الحمم

والنيران من ذلك البركان البشري، فيتردد صداها في أرجاء الصالة.

ـ إنها خدعةٌ لك، أيها السيد المغوار! أكمل المحكوم بالأشغال الشاقة وهو يرمق مدير الشرطة القضائية، الشهير.

ـ هيا، اخلع ثيابك، قال له رجلُ الشارع الصغيرِ "سانت-آن" بسيماء مفعمة بالاحتقار.

ـ لماذا؟ سأله كولان، فهناك سيدات. أنا لا أنكر شيئًا، وأستسلم.

صمت برهة، ونظر إلى الحضور كخطيب قال كلامًا غير متوقع.

ـ اكتب، يا "بابا لا شابيل"، قال مخاطبًا عجوزًا صغير الحجم، أبيض الشعر، كان يجلس إلى طرف منضدة، بعد أن أخرج من حافظة أوراقه محضرَ التوقيف: " أعترف أني "جاك كولان" الملقب بـ"خادع الموت" المحكوم عليه بالأشغال الشاقة عشرين عامًا، وسأثبت أني لم أسرق لقبي. وإذا ما قمت بمجرد رفع يدي ـ قال لنزلاء البنسيون ـ فإن هؤلاء الوشاة الثلاثة سيصبون كل خموري على الموقد المنزلي للسيدة ڤوكيه. فهؤلاء البهاليل توافقوا على أن ينصبوا لي فخًّا.

تضايقت السيدة ڤوكيه لدى سماعها هذه الأقوال. ـ يا إلهي! يكاد يركبني المرض، أنا التي ذهبت معه إلى مسرح "لا جيتيه"، قالت لسيلڤي.

ـ لنتفلسف قليلاً، يا ماما، واصل كولان. فهل من سوء الطالع أن تكوني قد ذهبتِ إلى مقصورتي في "اللا جيتيه" أمس؟ صاح ڤوتران. هل أنتِ أفضل منا؟ إننا نحمل على عاتقنا فضائح أقل مما تحملون في قلوبكم، أيها الأعضاء المرتخون في مجتمع مصاب بالغنغرينة: إن أفضل من فيكم لا يصمد أمامي. توقفت نظرته على راستنياك، فألقى عليه ابتسامة حنونًا كانت تتناقض مع تعبيرات وجهه الصارمة. ـ اتفاقنا

ساري المفعول دائمًا، يا ملاكي، في حال موافقتك؛ تعرف ذلك. وغنى:

حبيبتي فانشيت فاتنـة

في بساطتها

ـ لا تـزعج نفـسك، أكمـل، فأنـا أعـرف كيـف أقـوم بالتحـصيل. فالخشية المفرطة مني تمنعهم من غشي، أنا!

بهذه السلوكيات واللغة، بانتقالاته المفاجئة من المبهج إلى المرعب؛ بعظمتـه المريعـة، بألفتـه، بدونيتـه، كانـت جميعهـا ماثلـةً فجـأةً في هـذا الاستجواب ومن هذا الرجل، الذي لم يعد رجلاً بل نمط أُمَّة منحلة، شـعبٍ متـوحش ومنطقـي، جلـف وسـلس. في دقيقـة، أصـبح كـولان قصيدة جهنمية تسبح فيها كل المشاعر الإنسانية، عدا شعور واحد، هو النـدم. كانـت نظرتـه نظـرة رئـيس ملائكـة سـاقط لا يريـد سـوى الحـرب. أخفض راستنياك عينه متقبلاً هذه القرابة الإجرامية، كتكفير عن أفكاره الرديئة.

ـ مَـن الـذي خـانني؟ قـال كـولان، وهـو يمـر بنظرتـه المرعبـة علـى الموجودين. ثبَّتها على الآنسة ميشونو: أنت، قال، أيتها الحصالة القديمة! أصـبتِني بسكتة دماغية زائفة، أيتها الفضولية! بكلمتين، يمكنني فصل رأسـك عـن جسدك خلال ثمانية أيام. إنني أسامحك، لأني مسيحي. ثم إنك لستِ مَن باعني. لكن مَن؟ آه! آه! إنكم تنبشون في الأعلى! صاح وقد سمع ضباط البوليس القضائي يفتحون دواليبه، ويستولون على أشيائه، أتخرجون العصافير من أعشاشها؟ لقد طارت بالأمس. ولن تعرفوا شيئًا! أوراق تجارتي هنا! قال وهو يضرب على جبينه. عرفتُ الآن مَن باعني. ربما ليس سوى الوغد "خيط الحرير"، أليس كذلك، أيها

الأب قائد الحملة؟ قال إلى رئيس البوليس. إن هذا يتوافق تمامًا مع تواجد أوراقنا البنكية في الغرفة العلوية. لم يتبق منها شيء، يا صغار الوشاة. أما "خيط الحرير"، فسوف **يُدفَن** خلال خمسة عشر يومًا، حتى وإن أحطتموه بكل قوى الحراسة لديكم. ماذا دفعتم من مال لهذه الـ "ميشونيت"؟ قال لرجال البوليس، بضعة آلاف من الريالات؟ أنا أساوي أكثر من هذا بكثير، يا "نينو" المنخور، يا "بمبادور" في الهلاهيل، يا "ڤينوس" مقبرة "بير لاشيز". لو قمتِ بإخطاري، لوهبتك ستة آلاف فرنك. آه! لكن ذلك لم يخطر لك على بال، أيتها البائعة العجوز للَّحم البشري، وإلا فالأفضلية كانت لي. نعم، كان لي أن أدفعهم لأتحاشى رحلة تزعجني وتفقدني نقودًا. قال ذلك وهم يضعون الكلابشات في يديه. هؤلاء الناس يستمتعون بأن يجرجروني زمنًا طويلاً ليفرضوا عليَّ *البطالة*. فلو أرسلوني مباشرةً إلى السجن، لعدت سريعًا إلى أشغالي، رغم متسكعينا الصغار على رصيف أورفيڤر. هناك، سيفعلون المستحيل لتهريب زعيمهم، "خادع الموت" الطيب! فهل فيكم من هو غني مثلي بعشرة آلاف أخ مستعدين لعمل أي شيءٍ يطلبه؟ سألهم مفتخرًا. الخير موجود هنا، وضرب على قلبه؛ وطيلة حياتي لم أخُن أحدًا! أما أنتِ، يا حصالة، فانظري إليهم- قال وهو متجه إلى الفتاة العجوز- ها هم يرمقونني بهلع، أما أنت فتُغثين قلوبهم من الاشمئزاز. خُذي نصيبك. توقف لحظات ريثما يتأمل النزلاء. - أأنتم حيوانات، أنتم الآخرين؟ ألم يسبق لكم رؤية محكوم عليه بالأشغال الشاقة؟ محكوم من جبلَّة كولان، الماثل أمامكم، في شخص رجل أقل جبنًا ممن عداه؟ ويحتج على خيبات الأمل العميقة للعقد الاجتماعي، كما قال "جان-جاك روسو" الذي

أفتخرُ بأني أحد تلامذته. وفي النهاية، فأنا وحدي في مواجهة الحكومة بكل محاكمها الهائلة، ودركها، وميزانيتها، وهأنذا كفء لهم.

ـ اللعنة! قال الرسام، لقد رسم لوحته بطريقة بالغة الجمال.

ـ قُل لي، يا جناب الجلاد، يا مدير الأرملة! (اسم مفعم بالشاعرية المرعبة يطلقه المدانون على المقصلة)، أضاف وهو يستدير إلى قائد بوليس الأمن، كن ولدًا طيبًا، وقل لنا ما إذا كان "خيط الحرير" هو مَن باعني! فلا أريد أن يدفع مقابل شخص آخر، وهذا ينافي العدل.

في تلك اللحظة، كان الرجال الذين قاموا بفتح كل شيء وجرد كل شيء ـ لدى ڤوتران ـ قد عادوا، وتحدثوا بصوت خفيض مع قائد الحملة. وانتهى المحضر.

ـ سيأخذونني الآن، يا سادتي، قال كولان مخاطبًا النزلاء. لقد كنتم جميعًا في غاية اللطف معي أثناء إقامتي هنا، وأحمل العرفان لكم. أودعكم. وأستأذن في أن أبعث إليكم ثمر التين من "البروڤانس". تحرك بضع خطوات، واستدار لينظر إلى راستنياك. وداعًا، يا يوچين، نطقها بحنان وحزن يتناقضان واللهجة الحادة لخطابه، لو كنتَ منزعجًا، فقد تركتُ لك صديقًا مخلصًا! وبرغم قيوده، تمكن من أن يقلد حركات مدرب المبارزة، ويصيح: واحد، اثنان! واطعن. وفي حالة الشقاء، فلتذهب إلى هناك. كرجل ونقود، كل شيء تحت أمرك.

قام هذا الرجل، الفريد في نوعه، بوضع الكثير من الهزليات في كلماته الأخيرة، كيلا تكون مفهومة سوى من اثنين: هو وراستنياك. وحين تم إخلاء المنزل من الدرك، من الجنود، من عملاء الشرطة، نظرت سيلڤي ـ التي كانت تدعك صدغي سيدتها بالخل ـ إلى النزلاء

المذهولين.

ـ حسنًا! قالت. لقد كان رغم ذلك رجلاً طيب القلب!

أوقفت تلك الجملة السحرَ الذي ألقى على الجميع غزارة وتنوعًا من المشاعر استثارها ذلك المشهد. في تلك اللحظة، وبعد أن تفحص النزلاء بعضهم البعض، رأوا جميعًا ـ في آن ـ الآنسة ميشونو مرتعدة، جافة، وباردة كالمومياء، متقوقعة بالقرب من الموقد، خافضة العينين، كأنها تخشى من أن يكون ظل "الأباجورة" ليس مخيمًا بما يكفي ليخفي تعبيرات نظراتهم. وهذا الوجه ـ الذي كان منفرًا لهم منذ أمد بعيد ـ اتضح على حين فجأة. كان ثمة غمغمة تنم ـ بوحدة صوتها الكاملة ـ عن تقزز جماعي تتردد خفية. سمعتها الآنسة ميشونو، ولم تتحرك. أما بيانشون، فكان الأول الذي مال على جاره:

ـ سأرحل إذا ما استمرت هذه الفتاة في تناول العشاء معنا، قال بصوت خفيض.

في طرفة عين، حبذ الجميع ـ عدا پواريه ـ اقتراح طالب الطب، الذي تقوَّى بالدعم العام، فتقدم باتجاه النزيل العجوز.

ـ أنت المرتبط أكثر من غيرك بالآنسة ميشونو، قال له، فتحدث إليها وأفهمها أن عليها ترك البنسيون في التو واللحظة.

ـ في التو واللحظة؟ كرر القول پواريه مندهشًا.

ثم اقترب من الآنسة العجوز، وهمس في أذنها ببضع كلمات.

ـ لكنني دفعت القسط، وأنا هنا بنقودي، كما هو حال الجميع، قالت وهي ترشق النزلاء بنظرات الأفاعي.

ـ لا تقلقي! سنشترك معًا لنرجعه إليكِ، قال راستنياك.

ـ هذا السيد يدعم كولان، قالت وهي تلقي على الطالب نظرة سامة مستفهمة، وليس من الصعب علينا أن ندرك السبب!

لدى سماع هذه الكلمة، انتفض يوچين كأنما لينقض على الفتاة العانس ويخنقها.

هذه النظرة التي تنطوي على الغدر، كانت ترمي بضوء مرعب في روحها.

ـ دعها، إذن. صاح النزلاء.

شبك راستنياك ذراعيه، وظل صامتًا.

ـ فلننتهِ من الآنسة يهوذا، قال الرسام مخاطبًا السيدة ڤوكيه. سيدتي، إن لم تطردي هذه "الميشونو"، فسنترك جميعًا كوخك، وسنقول في كل مكان إنه لا ينزل فيه سوى الجواسيس والمحكوم عليهم بالأشغال. أما إذا طردتِها، فسنصمت جميعًا عما جرى، لأنه ـ في نهاية المطاف ـ يمكن أن يحدث في أرقى المجتمعات، إلى أن يتم وسم المحكوم عليهم في جباههم، بحيث لا يمكنهم التخفي في سمت برجوازية باريس، ويجعلوا من أنفسهم مهرجين بلهاء، كما هم جميعًا في حقيقتهم.

لدى سماعها هذا الخطاب، استعادت السيدة ڤوكيه صحتها بأعجوبة ونهضت، وذراعاها معقودتان، وعيناها مفتوحتان، صافيتان، خاليتان من الدموع:

ولكنك، يا سيدي العزيز، أتريد بكلامك هذا إخلاء البنسيون؟ ها هو السيد ڤوتران.. أوه! يا إلهي، قالت وقد قاطعت نفسها، ليس بإمكاني منع نفسي من أن ألقبه باسم عائلته كرجل شريف! تلك شقة قد فرغت ـ تواصل ـ وأنتم تريدون إخلاء شقتين أخريين، في وقت من

الموسم استقر كل شخص فيه في مكان.

ـ أيها السادة! تناولوا قبعاتكم، وهيا، لنتناول عشاءنا في ميدان السربون، لدى "فليكوتو"، قال بيانشون.

وفي لمحة خاطفة، حسبت السيدة ڤوكيه الحسبة، واختارت ما هو أكثر فائدة لها، فاتجهت صوب الآنسة ميشونو.

ـ هيا، يا صغيرتي العزيزة الجميلة، أنت لا ترضين الخراب لمنشأتي، أليس كذلك؟ فها أنت ترين ما وصل إليه الكلام مع هؤلاء السادة؛ فاصعدي إلى غرفتك هذه الليلة.

ـ أبدًا، أبدًا، صاح النزلاء. فلتخرج الآن!

ـ لكنها لم تتناول عشاءها، تلك الآنسة البائسة، قال پواريه بإشفاق.

ـ فلتذهب وتأكل أينما شاءت، صاحت أصوات عديدة.

ـ فلتخرج، الجاسوسة!

ـ فلتخرج، الجاسوسة!

ـ سادتي، صاح پواريه، الذي ارتقى فجأةً إلى قمة الشجاعة التي يمنحها الحب لفحول الضأن. احترموا كونها أنثى!

ـ الجواسيس لا جنس لهم، قال الرسام.

ـ الجنسراما الشهيرة.*

ـ فلتخرج من البابراما.

ـ سادتي، هذا غيرُ لائق. فإذا ما طردنا أحدًا، فلابد أن يكون وفقًا لنظام. وإذا ما كنا دفعنا فعلينا أن نبقى، قال پواريه وهو يضع قبعته، ويجلس على كرسي مجاور للآنسة ميشونو، التي كانت السيدة ڤوكيه

---

* تلاعب لفظي يتجاوب مع ما سبق؛ (المحرر).

تسدي النصح لها.

ـ أيها الشرير، قال الرسام بنغمة كوميدية، أيها الشرير الصغير، اذهب! هيا! إذا لم تنصرفوا أنتم، انصرفنا نحن، قال بيانشون.

وتحرك النزلاء مجتمعين إلى الصالون.

ـ آنسة! ماذا تريدين، بعد ذلك؟ صاحت السيدة ڤوكيه. لقد انخرب بيتي، ولا يمكنك البقاء، فقد يقومون بأعمال عنيفة.

نهضت الآنسة ميشونو.

ستذهب!ـ لن تذهب! ـ ستذهب! ـ لن تذهب. تلك الكلمات قيلت بالتناوب، وعدائية الاحتمالات التي كانت قد بدأت تضغط عليها، اضطرت الآنسة ميشونو إلى المغادرة، بعد أن همست ببعض اشتراطات إلى السيدة ڤوكيه.

ـ أنا ذاهبة إلى السيدة بينو، قالت مهددة.

ـ اذهبي إلى حيث تشائين، قالت السيدة ڤوكيه، التي رأت في اختيار ذهابها إلى بنسيون منافس إهانة قاسية لها. اذهبي إلى "البينو" واكرعي خمرًا تُرَقِّص الماعز، وأطباقًا مجلوبةً من أحط الأماكن.

وقف النزلاء صفين في أعمق صمت ممكن. نظر پواريه بحنان إلى الآنسة ميشونو، وتبدى متيبسًا مترددًا، لا يدري ما إذا كان عليه أن يتبعها، أم يبقى، إلى حد أن النزلاءـ في سعادتهم بمغادرة الآنسة ميشونوـ انفجروا في الضحك، عند رؤيته.

ـ زي، زي، زي، وأنت يا پواريه. صاح الرسام، هيلا هوب! هيلا هوب! راح موظف المتحف يتغنىـ بصورة كوميديةـ بافتتاحية قصيد رومانسي شهير:

مسافرًا إلى سـوريا،

كان الفتى الجميل "دو نوا"...

ـ هيا، إذن، فأنت من الرغبة في *الخيانة*، *الرغبة غير المشروعة*، قال بيانشون.

ـ كل إنسان يتبع ما يخصه، مترجمة بتصرف عن ڤرجيل، قال پواريه.

أومأت الآنسة ميشونو لپواريه بأن تأخذ ذراعه، فلم يستطع مقاومة النداء، وأعطاها ذراعه. دوى التصفيق، وانفجرت القهقهات. ـ براڤو پواريه! العجوز پواريه! إله الحرب پواريه! الشجاع پواريه!

في تلك اللحظة، دخل أحد الوسطاء، وسلم رسالة إلى السيدة ڤوكيه التي أسلمت جسدها إلى أقرب كرسي بعد قراءتها لها.

ـ لم يبق إلا أن تلتهم النار منزلي، فالصاعقة وقعت عليه. "تايفيه الابن" مات الساعة الثالثة. وأنا أعاقَب الآن لأني تمنيت الخير للمرأتين، على حساب الفتى المسكين. وها هما السيدة كوتور وڤكتورين تطلبان مني مستحقاتهما، وستذهبان للإقامة لدى والد الشابة. لقد وعد السيد تايفيه ابنته بالإبقاء على السيدة كوتور كرفيقة لها. أربع شقق خالية الآن، خمس نزلاء على الأقل! جلست، وبدت على وشك البكاء. لقد تلبسني الشقاء، صاحت.

تردد في الشارع فجأةً صوت عربة تتوقف.

ـ مصائب أخرى تنقذف علينا، قالت سيلڤي.

ظهر الأب جوريو فجأةً، ووجهه ملتمع ومتورد بالسعادة، بما يدفع إلى الاعتقاد بتجدد حياته.

ـ جوريو في عربة حنطور! صاح النزلاء، إذن فنهاية العالم وشيكة.

اتجه الرجل الطيب مباشرةً إلى يوچين، الذي كان يقف في ركن متفكرًا، وأخذ بذراعه. تعال، قال بسيماء فرحة.

ـ ألا تدري إذن ما جرى؟ قال له يوچين. ڤوتران كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة، وقبضوا عليه، وتايفيه الابن مات.

ـ حسنًا! وما دخل هذا بنا؟ قال الأب جوريو، سأتعشى مع ابنتي لديك! أتفهمني؟ هي بانتظارك، تعال. وجذب راستنياك من ذراعه بقوة، فلم يملك سوى الانقياد له، منجذبًا إليه كما لو كان عشيقته!

ـ هيا، للعشاء! صاح الرسام.

وفي لحظة، سحب كل منهم كرسيًّا، وجلسوا إلى المائدة.

ـ على سبيل المثال، قالت سيلڤي السمينة، ليس هناك اليوم سوى الشر! فالفاصوليا بلحم الخروف التي أعددتها جفَّ ماؤها. أف! ستأكلونها محترقة، وأمركم إلى الله.

ولم تجد السيدة ڤوكيه الشجاعة لتنطق بكلمة وهي ترى حول مائدتها عشرة أشخاص، بدلاً من ثمانية عشر؛ لكنهم جميعًا حاولوا تعزيتها وإبهاجها. فإذا ما كان "الخارجيون" قد بدأوا بالحديث عن ڤوتران وأحداث ذلك النهار، فإنهم سرعان ما اتخذوا شكلاً ثعبانيا في الحديث، وراحوا يتحدثون عن المبارزات، والحبس، والعدالة، والقوانين التي تتجدد، والسجون. ثم وجدوا أنفسهم على مسافة مئة فرسخ من جاك كولان وڤكتورين وشقيقها. وعلى الرغم من كونهم عشرة، إلا أنهم كانوا يتصايحون كما لو كانوا عشرين؛ ويبدون كأنهم أكثر عددًا من المعتاد، وهو الفارق بين عشاء اليوم وعشاء الأمس. واللامبالاة المعتادة في هذا العالم الأناني، والتي يتوجب- في اليوم التالي- أن تجد في الأحداث

اليومية الباريسية فريسةً أخرى للالتهام، تستعيد الصدارة، وهدأت السيدة ڤوكيه- هي نفسها- بالأمل الذي بثه صوت سيلڤي السمينة.

وكان على ذلك اليوم أن يكون بمثابة رؤيا خارقة بالنسبة ليوچين، الذي- على الرغم من قوة شخصيته، وطيبة عقليته- لم يكن يعرف كيف يمكنه ترتيب أفكاره، حين وجد نفسه في الحنطور إلى جوار الأب جوريو الذي كانت كلماته تنم عن فرح غير عادي، ويتردد صداها في أذن يوچين، بعد انفعالات كثيرة، كالكلمات التي نسمعها في أحلامنا.

- ها نحن قد انتهينا من أحداث هذا النهار. وها نحن الثلاثة سنتعشى معًا، معًا! أتفهم؟ لقد مرت سنواتٌ أربع منذ آخر عشاء لي مع دلفين، دلفيني الصغيرة. وستكون لي طوال سهرة كاملة. نحن هنا في شقتك منذ الصباح. وأنا أشتغل كالأجير، وأكمامي مشمرة. كنت أعاون في حمل الأثاث، آه آه! أنت لا تتصور كم هي لطيفة على المائدة، وقد اهتمت بي: "خذ، يا بابا! كُل إذن مِن هذا. هذا لذيذ!" ثم لا أستطيع أن آكل. أووه! مرَّ وقت طويل دون أن أحس بالسكينة معها، كما سيحدث لي!

- ولكن، قال له يوچين، اليوم انقلب الكون رأسًا على عقب.

- انقلب رأسًا على عقب؟ قال الأب جوريو، بل لم يكن العالم في أي عصر من عصوره طيبًا كما هو الآن. لا أرى إلا وجوهًا مبتهجة في الشوارع، وأناسًا يتصافحون، ويتعانقون؛ أناسًا سعداء كأنهم ذاهبون للعشاء عند بناتهم! وتولم لي عشاءً صغيرًا جيدًا كالذي طلبته أمامي من طاهي المقهى الإنجليزي. ولكن باااه! فمعها يغدو الحنظل لذيذًا كالعسل!

- أعتقد أني عائد إلى الحياة، قال يوچين.

- هيا، فلتذهب أيها السائق، إذن، صاح الأب جوريو، وهو يفتح

الزجاج الأمامي. أسرع، وسأعطيك مئة سنت بقشيشا، إذا ما أوصلتنا في عشر دقائق إلى المكان الذي تعرفه. لدى سماع هذا الوعد، اجتاز الحوذي باريس بسرعة البرق.

- إنه بطيءٌ، ذلك السائق، قال الأب جوريو.

- ولكن، إلى أين تقودنا، إذن؟ سأله يوچين.

- إلى شقتك، قال الأب جوريو.

توقفت العربة في شارع "أرتوا". ترجلَ الرجل الطيب أولاً، ونفح الحوذي عشرة فرنكات بسخاء رجل أرمل، لا يهمه شيء في نوبة متعته.

- هيا، فلنصعد، قال لراستنياك، بعد أن قاده خلال فناء، وصعدا حتى باب شقة في الطابق الثالث، في خلفية عمارة جديدة ذات مظهر جميل. لم يكن الأب جوريو بحاجة لأن يدق الجرس. فتحت لهما الباب تيريزا، وصيفة السيدة دو نوسنجن. وجد يوچين نفسه في شقة شُبان ساحرة، تتكون من حجرة داخلية، وصالون صغير، وحجرة نوم، وغرفة مكتب تطل على الحديقة. في الصالون الصغير- الذي يصمد أثاثه وديكوره أمام المقارنة بأكثر الأشياء جمالا وأناقة- لمح على ضوء الشموع دلفين، التي نهضت من أريكة بجوار المدفأة، وسحبت حاجز المدفأة عليها، وقالت له بنبرة مفعمة بالحنان: لقد كان علينا إذن أن نذهب لنحضرك، أيها السيد الذي لا يفهم شيئًا.

خرجت تيريزا. أخذ الطالبُ دلفين بين ذراعيه، ضمها بقوة، ودموعه تسيل من الفرح. ذلك التناقض الأخير- بين ما كان يشهده خلال النهار، وما شهده من لحظات، حيث أرهق قلبه وأثقل رأسه الكثير من المهيجات- هو ما أثر على حساسيته العصبية.

ـ كنت أعرف تمامًا أنه يحبك، قال الأب جوريو بصوت خفيض لابنته، فيما كان يوچين يتمدد خائرًا على الأريكة، بلا قدرة على الكلام، أو إدراك الطريقة التي تمت بها ضربة الساحر الأخيرة تلك.

ـ ولكن، تعال إذن لترى، قالت له السيدة دو نوسنجن وهي تمسك بيده، وتقوده إلى غرفته، التي يعيد سجادها وأثاثها وأدق تفاصيلها ـ إلى ذاكرته ـ غرفة دلفين، مع الفارق في الأبعاد والمساحة.

ـ ينقصها سرير، قال راستنياك.

ـ أجل، يا سيدي، قالت ووجهها يتورد، وهي تضغط على يده.

نظر إليها يوچين، وفهم، وهو ما يزال شابًّا، كل ما هو مخبوءٌ من حياء حقيقي في قلب امرأة عاشقة.

ـ أنتِ إحدى تلك المخلوقات التي يتوجب على المرء أن يحبها دائمًا، همس في أذنها، أجل. أتجرأ وأبوح لك بذلك بما أننا متفاهمان تمامًا؛ فكلما كان الحب دفاقًا ومخلصًا، توجب أن يكون مخبوءًا، وغامضًا. فلا نعطي سرنا لأحد.

ـ أجل، ولن أكون أنا أي "أحد"، قال الأب جوريو متذمرًا.

ـ أنت تعلم جيدًا *أنك* منا، نحن.

ـ آه! ذلك ما كنت أبغي سماعه. لا تعيراني انتباهًا، هه؟ سأذهب وآتي، كروح طيبة تهيم في كل الأماكن، والتي يعرف المرء أنها موجودة دون أن يراها. آه حسنًا. يا دلفين الصغيرة! دلوعتي! ألم أكن على حق حين أخبرتك بوجود شقة جميلة في شارع "أرتوا"، فلنؤثثها له! ولم تكوني راغبة. آه، إنه أنا مَن أبدع فرحتك هذه، كما أني مبدع وجودك في هذا العالم. على الآباء أن يداوموا العطاء حتى يظلوا سعداء. أن يعطوا دائمًا،

ذلك هو ما يجعل المرء أبًا.

ـ كيف؟ قال يوچين.

ـ أجل، هي لم تكن راغبة، كانت متخوفة من التقولات الحمقاء، كأن ذلك يمكن مقارنته بالسعادة! لكن جميع النساء يحلمن أن يفعلن ما تفعل هي.

كان الأب جوريو يتحدث وحيدًا، حيث كانت السيدة دو نوسنجن قد أخذت راستنياك إلى حجرة المكتب، حيث تردد فيها صوت قبلة، خافتًا. كانت هذه الغرفة متلائمة مع أناقة الشقة، التي لم يكن ينقصها شيء.

ـ هل تصورتَ أمنياتك؟ قالت، وهي عائدة إلى الصالون لتجلس إلى المنضدة.

ـ أجل، قال، ولكن ـ مع الأسف! ـ هذا الترف التام، هذه الأحلام الجميلة المتحققة، كل شاعرية الحياة الشابة الأنيقة، أحس أنها أكثر مما أستحق، ولكني لا أستطيع قبولها منكِ. فأنا ما أزال أفقر من أن...

ـ آه! آه! إنك تقاومني الآن، قالت بسيماء رهيفة من السلطة الهازئة، وقد مطت شفتيها باشمئزاز جميل، كما تفعل النساء عندما يرغبن في الاستهزاء بأحد الوساوس، ليبددنه بصورة أفضل.

كان يوچين قد قام باستجواب نفسه بجدية زائدة خلال ذلك النهار، وجاء القبض على ڤوتران ـ الذي أراه عمق الهاوية التي كان سيهوي فيها ـ ليعزز مشاعره النبيلة، ورهافته، فتخلى عن ذلك الدحض المدغدغ لأفكاره السمحة. استحوذ عليه حزن عميق الأغوار.

ـ كيف؟ قالت السيدة دو نوسنجن، هل ترفض؟ هل تعرف ما يعنيه

رفض كهذا؟ إنك تشك في المستقبل، لا تجسر على أن ترتبط بي. إنك خائف من أن تخون عاطفتي. فإذا كنت تحبني، وإذا كنتُ.. أحبك، فلماذا تنكص أمام واجبات واهيةٍ كهذه؟ ولو كنت تعرف المتعة التي تملكتني وأنا منهمكة في إعداد هذه الشقة، لما ترددتَ، ولطلبت صفحي. كانت لك عندي أموالٌ، وأحسنتُ توظيفها، هذا كل ما في الأمر. تعتقد أنك كبير، وأنت صغير. تطلب أكثر بكثير إن... (آه، قالت وهي تتشبث بنظرة عطف من عين يوجين) وتفتعل مشاكل على تفاهات. إن لم تكن تحبني أبدًا، آه! نعم، فلا تقبل. إن مصيري متوقف على كلمة واحدة. قُلها! لكن، يا أبي، قُل له ما يعيده إلى الصواب، أضافت ملتفتةً إلى والدها، بعد توقف. هل يظن أنني أقل حرصًا منه على شرفنا؟

كان للأب جوريو ابتسامة راسخة كابتسامة المعالج بالترياق، وهو يتابع بعينيه وأذنيه هذه المشاجرة الجميلة.

ـ طفل! ما تزال على عتبة الحياة، أكملت وهي تمسك يد يوجين، تواجه عقبةً لا يعبرها الكثيرون، ويد امرأة تزيحها لك، وتنكص على عقبيك! لكنك ستنجح وتكوِّن ثروة هائلة، فالنجاح مخطوطٌ على جبينك الجميل. ألن تستطيع ساعتها أن تعيد لي ما أقرضه لك اليوم؟ ألم تكن النساء قديمًا يقدمن لفرسانهن الدروع والسيوف والخوذات والزرد والخيل، كي يذهبوا فيقاتلوا باسمهن في مسابقات السلاح؟ حسنًا! يا يوجين، فما أقدمه لك هو بمثابة السلاح في عصرنا، أدوات لا غنى عنها لمن يطمح أن يكون مرموقًا. إنها جميلة، العلِّية التي تقيم فيها، إذا ما ماثلت حجرة بابا. انظر، ألن نتعشى إذن؟ هل تريد أن تحزنني؟ أجبني إذن! قالت وهي تهز يده. يا إلهي، بابا، أقنعه إذن، وإلا فسأخرج، ولن

أراه بعد ذلك أبدًا.

ـ سأقنعك، قال الأب جوريو وهو يخرج من نشوته. يا سيدي العزيز يوچين، إن بإمكانك الاقتراض من اليهود، أليس كذلك؟

ـ إذا اضطررت.

ـ حسنًا، سأخبرك، قال الرجل الطيب وهو يخرج حافظة أوراق جلدية مهترئة. فقد جعلتُ من نفسي يهوديًا، ودفعت كل الفواتير، ها هي. ولستَ مدينًا بأي فلس عما يوجد هنا. والمبلغ ليسَ كبيرًا، لا يزيد عن خمسة آلاف فرنك. وأنا أقرضه لك، فلا ترفضه مني، فلستُ امرأة. وسوف تعطيني سندًا بالمبلغ على قصاصة ورق، وسترد إليّ فيما بعد.

انحدرت الدموع من أعين يوچين ودلفين، في آن واحد، ورمق كل منهما الآخر مندهشًا. مد راستنياك يده إلى يد الرجل الطيب وصافحه.

ـ حسنًا! ما الغريب في الأمر؟ ألستما ابني وابنتي؟ قال جوريو.

ـ ولكن، قل لي يا والدي المسكين- قالت السيدة دو نوسنجن- كيف تمكنتَ من فعل ذلك؟

ـ آه! ها نحن هنا. قال: عندما وعدتك بأن أجعله قريبًا منكِ، ورأيتكِ تشترين أثاثًا كما لو لتجهيز عروس، قلت في نفسي: "إنها ستقع في ورطة مالية". وادعى المحامي أن القضية المرفوعة على زوجك- من أجل استرداد أموالك- ستستغرق أكثر من ستة أشهر. حسنًا. قمتُ ببيع ألف وثلاثمئة وخمسين جنيهًا من إيرادي السنوي، ومن الخمسة عشر ألف فرنك، جاء لي عائدٌ سنوي ألف ومئتا فرنك تستمر مدى الحياة، فدفعت ثمن ما اشتريتماه ببقية رأس المال يا طفليَّ. أنا لي- هنا في الأعلى- حجرة إيجارها خمسون ريالاً في السنة، وبإمكاني أن أعيش كأمير بأربعين فلسًا في

اليوم، ولديَّ الباقي. أنا لا أستهلك شيئًا، ولا يلزمني تقريبًا ثياب. ومنذ أسبوعين، وأنا أضحك خفيةً، وأقول: "هل سيكونان سعيدين؟" آه حسنًا، ألستما سعيدين؟

ـ آه! بابا، بابا! قالت السيدة دو نوسنجن وهي تقفز على أبيها الذي تلقاها على ركبتيه. غمرته بقبلاتها، وداعبت خده بشعرها الأشقر، وسكبت دموعها على وجهه العجوز الفرح المشرق. "أبي الغالي، أنت أب! لا، لا يوجد منك اثنان تحت السماء. كان يوچين يحبك من قبل، فماذا سيكون حبه لكِ الآن!"

ـ ولكن، يا طفليَّ، قال الأب جوريو، الذي لم يشعر ـ منذ عشرة أعوام ـ بقلب ابنته يخفق على قلبه. ولكنك، يا دلفين، تريدين الآن أن أموت من الفرح! إن قلبي المسكين يتشظى. هيا، يا سيد يوچين، نحن الآن متخالصان. طوق العجوز ابنته في عناق شرس، هذياني، وهي تصيح: آه! إنك تؤذيني. ـ أنا أؤذيكِ! قال وقد شحب وجهه، وراح يتطلع إليها بنظرة ألم لا إنسانية.

ولكي نصوِّر جيدًا وجه مسيح الأبوة هذا، سيكون علينا البحث عن التشابهات في اللوحات التي ابتكرها أمراءُ اللون لرسم العاطفة الأليمة لصالح الناس من جانب مخلِّص البشرية. قبَّل الأب جوريو برقة بالغة الخصر الذي كان يمسك به بأصابعه.

ـ لا، لا، لا يمكنني إيذاؤك، قال وهو يسائلها بابتسامة، بل أنتِ التي عذبتني صيحتك؛ إنها غالية جدًّا، همس في أذن ابنته وهو يقبلها فيها باحتراس، لكن لابد من خداعه، وإلا فسيغضب.

كان يوچين مذهولاً أمام الإخلاص الذي لا ينفد لذلك الرجل،

ويتأمله معربًا عن إعجابه الصافي الذي يشكل- في عمر الشباب- عقيدة.
- سأظل على الدوام مدينًا لكل هذا، صاح.
- أوه يا يوچيني! كم جميل قولك هذا! وقبلت دو نوسنجن الطالب في جبينه.
- لقد رفض من أجلك الآنسة تايفيه وملايينها، قال الأب جوريو. أجل، كانت تحبك، الصغيرة، وأخوها ميت، وها هي الآن غنية كقارون.
- أوه! لماذا قلت هذا الكلام؟ قال راستنياك.
- يوچين، همست له دلفين في أذنه. لا أسف لديَّ الآن على هذه الأمسية. آه! سأظل أحبك كثيرًا! وإلى الأبد.
- هذا أجمل يوم عشته منذ زواجكِ، صاح الأب جوريو، فليعذبني الإله الطيب كما يشاء، ولكن ليس بكما. سأقول لنفسي: في فبراير من السنة الحالية، عشتُ لحظات من السعادة لا يعيشها الناس خلال حياة كاملة. انظري لي، يا حبوبتي!- قال لابنته- آه! كم هي جميلة! أليس كذلك؟ قُل لي، إذن، هل قابلت بحياتك نساء لهن ألوانها البديعة وغمازتها الصغيرة؟ لا، لا يمكن. حسنًا، إنه أنا من أنجب هذا الحب على هيئة امرأة. ومع ذلك، فستكون أجمل مما هي عليه الآن ألف مرة لو أنكَ أسعدتها. بإمكاني أن أرضى بالجحيم يا جاري، قال، لو كنت بحاجة إلى مكاني بالفردوس، سأتركه لك. هيا نأكل، نأكل، قال دون أن يعي ما يقول، كل شيء لنا.
- هذا الأب المسكين!
- لو كنتِ تعرفين يا ابنتي، قال وهو ينهض متجهًا إليها، فيأخذ

برأسها، ويقبل مفرق شعرها، كم يمكنك أن تجعليني سعيدًا بأرخص الأثمان! تعالي زوريني بين الحين والحين، سأكون هناك في الأعلى، لن تصعدي سوى خطوة. عديني، قوليها!

ـ أعدك، يا أبي الغالي

ـ أعيديها، مرةً أخرى.

ـ أعدك، يا أبي الغالي.

ـ لو طاوعت نفسي لجعلتك تعيدينها مئة مرة. هيا نتعشى.

مرت السهرة كلها في أفعال صبيانية، ولم يبد الأب جوريو أقل الثلاثة جنونًا. كان يتمرغ تحت قدمي ابنته ليقبلهما، كان ينظر طويلاً في عينيها، ويحك رأسه بفستانها، وفي النهاية، كان يقوم بحركات مجنونة كالتي يفعلها عاشق في ريعان الشباب وفي قمة اللطف.

ـ أرأيت؟ قالت دلفين ليوچين، عندما يكون أبي هنا، فعلينا أن نكون بكليتنا معه. وسيكون ذلك ـ مع ذلك ـ مزعجًا أحيانًا.

لم يستطع يوچين ـ وقد أحس فعلاً مراتٍ عديدة بغمزات غيرة ـ أن يستنكر هذه الكلمة التي تنطوي على بذرة نكران الجميل.

ـ ومتى ستجهز الشقة؟ سأل يوچين وهو يتطلع في الغرفة، هل علينا إذن أن نغادر هذا المساء؟

ـ أجل، ولكن غدًا ستأتي للعشاء معي، قالت بنُعومة. فغدًا يوم من أيام أوبرا الإيطاليين.

ـ سأذهب أنا إلى صالة المسرح، قال الأب جوريو.

منتصف الليل. كانت عربة السيدة دو نوسنجن تنتظر. عاد الأب جوريو والطالب إلى دار ڤوكيه، وهما يتحدثان عن دلفين بحماس متزايد

تمخض عن صراع طريف للتعبيرات بين هاتين العاطفتين المشبوبتين. لم يكن يوچين يستطيع أن يخفى أن حب الأب جوريو لابنته ـ الذي لا تشوبه شائبة مصلحة ـ كان يفوق حبه لها، بديمومته وشموليته. كانت المعشوقة على الدوام نقية جميلة في عين والدها، وكان عشقه يمتد للماضي كما المستقبل. وجدا السيدة ڤوكيه وحيدة في ركن الموقد، بين سيلڤي وكريستوف. تبدت المضيفة العجوز كأنها ماريوس على أنقاض قرطاج. كانت تنتظر النزيلين الوحيدين اللذين تبقيا لها، وتندب حظها هي وسيلڤي. ورغم أن اللورد بايرون قد أبدع في مراثيه لـ"تاس"*، فإنها لم تكن لتصل إلى عمق حقيقة ما تولول له السيدة ڤوكيه.

"لا تجهزي، يا سيلڤي، غدًا صباحًا، سوى ثلاثة فناجين قهوة. هيه! داري مهجورة، ألا يكسر القلبَ ذلك؟ ما الحياة بدون نزلائي؟ لا شيء. ها هو بنسيوني خالٍ من ناسه. الحياة في الناس. ماذا فعلتُ للسماء حتى ترميني بكل هذه الكوارث؟ مخزوننا من الفاصوليا والبطاطس مُعد لعشرين شخصًا. والبوليس يأتي إلى داري! لن نأكل إذن سوى البطاطس! وسوف أستغني عن كريستوف!

كان هذا الرجل القادم من إقليم "الساڤوي" ناعسًا، فهب من رقدته:

ـ سيدتي!

---

* اللورد **بايرون**: جورج جوردون بايرون (1788ـ1824)، شاعر انجليزي، من أهم شعراء الرومانتيكية؛ أما "**تاس**"، فهو "توركواتو تاسُّو" الشاعر اللاتيني، الذي كتب بايرون عنه "مراثي تاس"، باعتباره سلفًا للشعراء الملعونين، حيث مثلت القصيدة تجسيدًا نموذجيًّا للشاعر الغارق في الاكتئاب والجنون؛ (المحرر)

ـ يا للغلام المسكين! إنه مثل كلب الحراسة!

ـ الموسم ميت، والجميع استقروا! فمن أين ستمطر السماء زبائن علينا؟ سأفقد عقلي. والعرافة ميشونو سلبتني پواريه! ماذا كانت تفعل له ليلتصق بها هذا الرجل ويتبعها كأنه جرو؟

ـ آه! سيدتي! قالت سيلڤي وهي تهز رأسها. هؤلاء العوانس يعرفن الألاعيب جيدًا.

ـ وذلك المسكين السيد ڤوتران، الذي جعلوا منه محكومًا عليه بالأشغال الشاقة، واصلت الأرملة، إيه حسنًا! يا سيلڤي، إنه أقوى مني، لا أصدق ذلك بعد. رجلٌ مرحٌ كهذا، يدفع خمسة عشر فرنكا شهريًّا في شرب القهوة بالكحول، بل يدفع دون أن يؤخر فلسًا.

ـ وكان كريمًا! قال كريستوف.

ـ هناك خطأ ما، قالت سيلڤي.

ـ لا، لقد اعترف على نفسه، قالت السيدة ڤوكيه. وأن تحدث عندي كل تلك الأشياء، في حي لا تمر به قطة! يمين امرأة شريفة، إنني أحلم. فقد رأينا الحادث الذي تعرض له لويس السادس عشر، ورأينا سقوط الإمبراطور، ورأيناه يعود ثم يعاود السقوط؛ وكان كل ذلك ضمن نسق الأشياء الممكنة؛ بينما ليس لدينا أي حظ وسط البنسيونات البرجوازية: فيمكن إزاحة ملك، لكن الطعام لا يمكن الاستغناء عنه أبدًا؛ وحينما تقوم امرأة من آل كونفلان بإعداد طعام جيد، فعلى الأقل لا ينبغي أن تحل نهاية العالم.. لكن، والأمر هكذا، فإن نهاية العالم قد حلت.

ـ ولا تنسي أن الآنسة ميشونو ـ التي آذتك هكذا ـ سوف تتلقى، كما يُقال، ألف ريال مكافأة سنويًّا، صاحت سيلڤي.

ـ لا تتحدثي عنها، فهي ليست أكثر من مجرمة، قالت السيدة ڤوكيه. وفضلاً عن ذلك، فإنها ذاهبة إلى "البينو" الأرخص سعرًا. لكنها قادرةٌ على كل شيء؛ لابد أنها قامت بفظائع، قتلت وسرقت في زمنها. كان لابد أن تذهب إلى السجن بدلاً من الرجل المسكين.

في تلك الحظة، دق يوچين والأب جوريو جرس الباب.

ـ آه! ها هما الاثنان المخلصان لنا! قالت الأرملة متنهدة.

وإذا بالاثنين المخلصين، اللذين لا يحملان سوى ذكرى واهية جدًّا لنكبات البنسيون البرجوازي، يعلنان لمضيفتهما ـ بلا مراسيم ـ أنهما سيقيمان في "شوسيه دانتال".

ـ آه! يا سيلڤي، قالت الأرملة. ها هي آخر ورقة رابحة لي. سيديَّ، لقد وجهتما لي الضربة القاتلة! فانغرس النصل في أحشائي. صدري ثقيل! إنه يوم كدَّسَ على رأسي عشرة أعوام إضافية! سيتلبسني الجنون، أقسم! ماذا سأفعل بالفاصوليا؟ آه! فعلاً، لو كنت وحدي هنا لسرحتك من الغد، يا كريستوف. وداعًا، سيديَّ. طابت ليلتكما!

ـ ما الذي جرى لها؟ سأل يوچين سيلڤي.

ـ السيدة ڤوكيه؟ الجميع يرحلون بسبب ما جرى. لقد شوش ذلك ذهنها. أسمعها تنهنهُ بالبكاء. من الأفضل لها أن تبكي قليلاً. فهي المرة الأولى التي تخلو فيها عيناها من الدموع، منذ أن التحقتُ بخدمتها.

في اليوم التالي، استردت السيدة ڤوكيه عقلها، على حد تعبيرها. وإذا ما بدت محزونة كامرأة فقدت كل نزلائها، وانقلبت حياتها، إلا إنها ما تزال تحتفظ بدماغها سليمة، وأظهرت ما هو الألم الحقيقي، ألم غائر، الألم الناتج عن المنفعة المادية المهدرة، والعادات المنقطعة. وبالتأكيد، فإن

النظرة التي يلقيها العاشق على الأماكن التي التقى فيها بعشيقته، لدى مغادرتها، ليست أشد حزنًا من نظرات السيدة ڤوكيه إلى مائدتها الخالية. قام يوچين بمواساتها قائلاً إن بيانشون- الذي سينتهي من إقامته الداخلية بالمستشفى خلال أيام- قادم لا شك ليحل محله؛ وأن موظف المتحف أبدى مرارًا رغبته في سكنَى شقة السيدة كوتور، وأنها خلال أيام قلائل ستعود إلى وضعها السابق.

- فليسمع الله منك، يا سيدي العزيز! لكن الشقاء هنا. فقبل عشرة أيام سيأتي الموت، وسترى، قالت وهي تلقي نظرة فاجعة على صالة الطعام. فمن سيأخذ؟

- الوقت ملائم للانتقال، قال يوچين بصوت خفيض تمامًا لجوريو.

- سيدتي، قالت سيلڤي وهي تهرع نحوها في هلع، منذ ثلاثة أيام لم أرَ "مستجري" القط.

- آه! حسنًا، إذا ما كان قطي قد نفق، إذا ما كان قد رحل، فأنا...

لم تنهِ المرأة المسكينة جملتها، شبكت يديها، وانقلبت على ظهر المقعد مقهورة بذلك التوقع المرعب!

وعند الظهيرة، في الساعة التي يأتي فيها موزعو البريد إلى حي "البانتيون"، استلم يوچين رسالة في مظروف أنيق، يحمل شعار بوزيان. كان يتضمن دعوة موجهةً إلى السيد والسيدة دو نوسنجن للحفل الراقص الكبير المعلن عنه منذ شهر، والذي سيقام في دار الكونتيسة. وفي بطاقة الدعوة كلمة صغيرة موجهة إلى يوچين:

"لقد فكرت يا سيدي أنك- وبكل سرور- معنيٌّ بأن تكون ترجمان

أشواقي للسيدة دو نوسنجن. لذا فإنني أرسل إليك الدعوة التي طلبتها مني، وسأكون سعيدة بالتعرف إلى شقيقة السيدة دو روستو. هيا أَقدِمْ إليّ إذن بهذه الشخصية الرائعة، ولتحرص على ألا تأخذ كل مشاعرك، فأنت مدين لي بالكثير منها مقابل ما أكنه لك ".

الكونتيسة: دو بوزيان

ـ ولكن، قال يوچين لنفسه وهو يعيد قراءة الدعوة، فالسيدة دو بوزيان تخبرني بكل وضوح أنها لا تريد البارون دو نوسنجن.

سارع إلى دلفين، سعيدًا بأنه سيفرحها بخبر سيتلقى بالتأكيد ثمنه. كانت السيدة دو نوسنجن في الحمام. انتظرها راستنياك في مخدعها، محتملاً اللهفة الطبيعية لشاب مضطرم ومندفع نحو اتخاذ عشيقةٍ، كانت موضوعًا لرغباته طوال عامين. إنها مشاعر لا تحدث مرتين في حياة الشُّبان. المرأة الأولى التي يرتبط بها الشاب، أي المرأة التي تتمثل له داخله في ألق الزينة الكمالية التي يريدها المجتمع الباريسي؛ فتلك لا منافس لها أبدًا. فالحب في باريس لا يشبه غيره من الحب. فلا الرجال ولا النساء ينخدعون بالأشياء المبتذلة التي يستخدمها الجميع لحجب رغباتهم أو مكروهاتهم. وفي تلك المدينة، ليس على المرأة أن تشبع فقط رغبات القلب والإحساس، بل تعرف أن عليها التزامات كبرى عليها أن توفيها تجاه ألف من النعرات التافهة التي تشكل الحياة. الحب هنا بالذات في جوهره متبجح، مسرف، دجال، ومترف! وإذا ما كانت جميع النساء في بلاط "لويس الرابع عشر" يحسدن الآنسة "ڤاليير" على سطوتها العاطفية التي جعلت هذا الأمير العظيم ينسى أن ثمن كل قضيب من تلك القضبان ألف ريال، عندما دمرها، ليسهل على دوق "دو مرفندوا"

الدخول إلى العالم؛ فماذا يمكن أن نطلب من بقية البشر؟ عليكم أن تكونوا شبابًا، أغنياء، ذوي ألقاب شرفية، كونوا ما هو أكثر من كل هذا إن استطعتم، وكلما أكثرتم من حرق البخور في محراب معبودتكم، كلما راقتكم أكثر، هذا إن كانت لكم معبودة أصلاً. فالحب عبادة؛ وطقوسها تكلف أكثر من جميع العبادات الأخرى؛ سريع الزوال، يشبه الصبي المدلل الذي يُعلِّم طريقه بدمار ما فيه. إن ترف العواطف هو شعرُ الغرف العلوية؛ وبدون هذا الغنَى فماذا سيكون الحب؟ وإذا ما كان ثمة استثناءات لهذه القوانين الجائرة للشريعة الباريسية، فهي في العزلة، لدى النفوس التي لم تترك نفسها تنجر وراء المذاهب الاجتماعية، والتي تعيش قُرب الينابيع الصافية، الشاردة، لكنها متواصلة العطاء؛ نفوس مخلصة لظُلَلِها الخضراء، سعيدة بإصغائها إلى لغة اللانهائي، المكتوبة لها في كل شيءٍ، والتي تجدها أيضًا في ذاتها، وبفارغ الصبر تنتظر أجنحتها، مشفقين على مَن بالأرض.

لكن راستنياك، شأنه شأن معظم الشبان الذين تذوقوا العظمة في وقتٍ مبكر، كان يريد أن يمثُل مُدرعًا تمامًا في حلبة العالم؛ فلفحته الحُمَّى وربما كان يشعر بالقدرة على السيطرة عليها، لكنْ دون معرفةٍ بالوسائل أو الغاية من هذا الطموح. وفي حال انعدام الحب النقي المقدس، الذي يفعم الحياة، فإن هذا التعطش إلى السلطة يمكن أن يغدو شيئًا جميلاً؛ فيكفي أن نجرده من كل مصلحة شخصية، مع اتخاذ عظمة الوطن موضوعًا له. لكن الطالب لم يكن قد شارف بعد على النقطة التي تمكنه من تأمل مسارات الحياة، وإصدار أحكام عليها. فحتى ذلك الحين، لم تكن قد تزعزع تمامًا سحر طزاجة ونقاء سلامة الأفكار، الذي يغلف

كأوراق الشجر شبابَ مَن نشأوا في الريف. لقد كان دائمًا مترددًا في اتخاذ قرار باريسي خطير. وعلى الرغم من الفضول الحماسي، فإنه دائمًا ما كان يحتفظ ببعض أفكار خلفية عن حياة سعيدة يتمتع بها السيد الفاضل داخل قصره. ومع ذلك، فقد تلاشت وساوسه الأخيرة بالأمس، بتواجده في شقته. وفي تمتعه بالمزايا المادية للثروة، مثلما كان يتمتع منذ مولده بالمزايا الأخلاقية، سلخ جلده كرجل ريفي، واتخذ بسلاسة وضعية كان يكتشف منها مستقبلا مشرقًا. هكذا، في انتظار دلفين، مسترخيًا في جلسته في مخدع جميل، كان يعتقد إلى حدٍّ ما أنه ملكه، كان يرى نفسه بعيدًا كل البعد عن راستنياك الذي جاء إلى باريس السنة الماضية، والذي- عندما يرنو إليه من زاوية أخلاقية- يتساءل عما إذا كان الآن يمتُّ إليه بشَبَه.

- السيدة في غرفتها، جاءت تيريز لتقول له، ففزع.

وجد دلفين ممددةً على أريكتها في ركن المدفأة، منتعشة، مسترخية. وحين رآها هكذا ممددة على أمواج من الموسلين، كان مِن المستحيل ألا يشبهها بتلك النباتات الهندية الرائعة التي ينبثق ثمرها من زهورها.

- حسنًا! ها نحن، قالت بدلال.

- خمني! بم جئتك! قال يوچين وهو يجلس بالقرب منها، وقد أمسك بذراعها ليقبل يدها.

ندت عن السيدة دو نوسنجن حركة فرح عندما قرأت الدعوة. أدارت في وجه يوچين نظرات عينيها النديتين، وطوقت عنقه بذراعيها، جاذبةً إياه نحو حضنها، ممتنة له.

- وأنتم (أنت- قالت له في أذنه- لكن تيريزا ما تزال موجودة،

فتحشَّم! [*])، هل أنتم من أدين لهم بسعادتي هذه؟ أجل، بإمكاني أن أسمي هذا سعادة. منحتموها لي. أليست أكثر من انتصار للكرامة؟ لم يُرد لي أحدٌ ولوجَ هذا العالم. وربما تجدني- في هذه اللحظة- صغيرة، غِرة، خفيفة كما الباريسيات؛ ولكن تذكر يا صديقي، أنني مستعدة للتضحية بكل شيء من أجلك، وأني إذا ما تمنيت بشغف- أكثر من أي وقت- أن أذهب إلى ضاحية "سان-جرمان"، فذلك لأنك تذهب إليها.

- ألا تفكرين، قال يوچين، في أن السيدة دو بوزيان ربما تريد إخبارنا أنها لا تعوِّل على حضور دو نوسنجن حفلها الراقص؟

- أرى ذلك، قالت البارونة وهي تعيد الرسالة إلى يوچين. هؤلاء النسوة يتمتعن بعبقرية التلهف. ولكن لا يهم، فسأذهب. لابد أن أختي ستكون هناك. أنا أعرف أنها تجهز فستانًا رائعًا. يوچين! همست، هي ذاهبة لتبدد شكوكًا مرعبة. ألا تدري شيئًا عن اللغط الذي يُثار حولها؟ جاء نوسنجن ليخبرني هذا الصباح أنهم كانوا يتناولون سيرتها أمس في المحفل، ولم ينزعج! يا إلهي! علام يتعلق شرف النساء والعائلات! أشعرُ أني قد هوجمتُ وجرحتُ في شقيقتي البائسة. وطبقًا لبعض الأشخاص، فإن السيد دو تراي مدينٌ بسندات مستحقة الدفع، تصل قيمتها إلى مئة ألف فرنك، كلها تقريبًا فات موعد سدادها، وبموجبها ستتم ملاحقته جنائيًا. وفي هذه الفاقة المطلقة، قامت أختي ببيع حليها الماسية ليهودي، تلك الحلي الرائعة التي رأيتها تتحلى بها، والتي ورثتها عن السيدة "دو

---

[*] تفرض لغة الخطاب الفرنسية استخدام الضمير Vous (أنتم)، إذا ما كان المخاطَب لا يرتبط بعلاقة حميمة مع المتكلم؛ أما إذا كان مرتبطًا به بعلاقة حميمة، فيتم استخدام الضمير Tu (أنتَ/أنتِ). وهو ما يفسر الارتباك في استخدام الضمير، في وجود الوصيفة؛ (المحرر).

روستو" الأم. وأخيرًا، فلا حديث في اليومين الماضيين إلا حول هذا الأمر. وأتصور أن أنستازي تجهز فستانًا موشًّى بالذهب، لتجتذب به كل الأنظار لدى السيدة دو بوزيان، عندما تستعرض ألقها هناك بكل ما لديها من ماس. لكنني لا أريد أن أكون أدنَى منزلة منها. لقد سعت دائمًا إلى سحقي، ولم تكن أبدًا طيبةً معي، وقد أسديت لها الكثير من خدمات، وأمددتها بالمال دائمًا كلما احتاجت إلى مال. ولكن دعنا من الآخرين، فاليوم أريد أن أكون في غاية السعادة.

كان راستنياك- في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل- لا يزال لدى السيدة دو نوسنجن التي- بعد أن أسرفت في توديعه وداع العاشقين، ذلك الوداع المفعم بالفرح المأمول- قالت له بإيماءٍ حزين: مذعورة أنا، متطيرةٌ، اختر لأحاسيسي الاسم الذي يروقك؛ فأنا أرتعد من أن أدفع ثمن سعادتي بكارثة مرعبة.

- طفلة! قال يوچين.

- آه! أنا الطفلة هذه الليلة!

وعاد يوچين إلى "دار ڤوكيه" وكله عزمٌ على أن يترك البنسيون اليوم التالي، واستسلم في الطريق لتلك الأحلام البهيجة التي تراود الشبابَ عندما يكون مذاق السعادة ما يزال يرطب شفاههم.

- إذن؟ قال الأب جوريو لدى مرور راستنياك أمام باب غرفته.

- إذن! أجاب يوچين، سأخبرك صباح الغد بكل شيء.

- كل شيء، أليس كذلك؟ صاح الرجل الطيب. نم جيدًا، وغدًا سنبدأ حياتنا السعيدة.



الفصـــل الرَّابع

مَــوت الأب

في اليوم التالي، لم يكن الأب جوريو وراستنياك ينتظران سوى حُسن نية السمسار لينتقلا من البنسيون البرجوازي، لكن- نحو منتصف النهار- تردد في شارع "نيڤ-سانت-جانڤياڤ" صوت عربة كانت تتوقف تحديدًا أمام بوابة دار ڤوكيه. ترجلت السيدة دو نوسنجن من العربة، وسألت عما إذا كان والدها لم يغادر البنسيون بعد. وإذ ردت سيلڤي بالإيجاب، صعدت الدرج بخفة. كان يوچين في حجرته، دون أن يدري بذلك جاره. كان قد طلب من الأب جوريو- وهما يتناولان الفطور- أن يراعي أشياءه عند نقلها، لأنهما سيكونان- في الرابعة- في شارع "أرتوا". ولكن- فيما كان الرجل الطيب يبحث عن حمالين- كان يوچين قد ذهب إلى معهده بسرعة، وعاد دون أن يحس به أحدٌ، ليتحاسب مع السيدة ڤوكيه، دون ترك هذا العبء على جوريو، الذي تصور بلا شك أنه في حماسته سيدفع عنه حسابه. كانت السيدة ڤوكيه قد خرجت، وصعد

يوچين إلى غرفته ليرى ما إذا كان لم ينسَ شيئًا، وهنأ نفسه على فكرته تلك، وهو يلمح- في درج منضدته- السند الموقع عليه من ڤوتران على بياض، الذي كان قد ألقاه بلا مبالاة في اليوم الذي سدد قيمته فيه. لم يجد نارًا، فهمَّ بتمزيقه قطعًا صغيرة، عندما تبين صوت دلفين، فلم يشأ إصدار أي صوت، وجمدَ ليسمعها، موقنًا أنْ ليس بينها وبينه أسرار. فإذا به- من أول كلمة- يجد الحوار بين الابنة والأب أكثر إثارةً من ألا يُسمَع.

- آه! يا أبتِ، شاءت الأقدار أن تخطر لك- في الوقت المناسب- فكرة السؤال عن حساب ثروتي، حتى لا يطالني الخراب! هل يمكنني الكلام؟

- أجل، فالدار خالية، قال الأب جوريو وقد تغير صوته.

- ماذا بك، إذن، يا أبي؟ سألت السيدة دو نوسنجن.

- لقد انهلتِ عليَّ، قال العجوز، بفأس على أم رأسي. فليسامحك الله، يا ابنتي! أنتِ لا تدرين كم أحبك، ولو كنتِ تعرفين، لما فاجأتِني بمثل هذه الأقوال، وخاصةً ألا شيء قد ضاع. فما الذي حدث فجأةً، وجاء بك إلى هنا، إذا ما كنا بعد لحظاتٍ سنلتقي في شارع "أرتوا"؟

- إيه! يا أبي، هل نحن الذين نختار ردات أفعالنا الأولى لدى مصائبنا؟ لقد جُننتُ! فقد جعلنا محاميك نكتشف- قبل الأوان بقليل- الشقاء الذي سيدوي فيما بعد. وخبرتك التجارية القديمة ستغدو ضرورية لنا؛ ولذا هرعت إليك كمن يتعلق بقشة لحظة الغرق. عندما رأى السيد درڤيل دو نوسنجن أخبره أنه يمسك عليه ألف غلطة، وهدده بأنه سيرفع عليه قضية قائلاً إن إذن رئيس المحكمة في طريقه إلى الصدور. جاءني نوسنجن هذا الصباح، يسألني ما إذا كنت أريد أن أدمره وأدمر نفسي. أجبته بأنْ لا علم لي إطلاقًا بهذه الأمور، إلا بأن لي ثروة، وأني لابد أن أتمكن من

التصرف فيها، وأن كل ما له صلة بهذا الأمر يتابعه المحامي وأجهله تمامًا ولا قدرة لي على سماع شيء عنه. أليس هذا ما كنت توصيني دائمًا بأن أقوله؟

ـ تمام، قال الأب جوريو.

ـ حسنًا! أكملت دلفين، وقد أوضح لي حقيقة موقفه. لقد ألقى بكامل رأسمالنا معًا في مشاريع ناشئة، بحاجة إلى ضخ كميات ضخمة من المال إلى الخارج. فإذا ما أجبرته على أن يعيد إليَّ مَهري، فلا محالة سيعلن إفلاسه؛ أما إذا ما انتظرت مدة عام، فإنه يقسم لي بشرفه أن يعيد لي المال مضاعفًا مرتين أو ثلاثة، وأن يوظف رأسمالي في عمليات محلية، سأكون في نهايتها سيدةَ ثروتي كلها. كان مخلصًا، يا أبي العزيز. أرعبني، قبل أن يطلب صفحي عن سلوكه. أعاد لي حريتي، ووعدني أن يأخذني على هواي، بشرط أن أدعه يدير العمل في مالي باسمي. ولكي يثبت لي حسن نيته، سيدعو السيد درڤيل ـ كلما طلبتُ ـ ليقرر ما إذا كان كل شيء يسير في الطريق الصحيح. وأخيرًا، فها هو ذا بين يديَّ، مُقيد اليدين والرجلين. وهو يطلب أيضًا إدارة شؤون المنزل لمدة عامين، وألا أنفق شيئًا على شؤوني إلا بموافقته. وأكد أن كل ما كان يعمله لم يكن إلا محافظةً على المظاهر، وأنه استغنى عن الراقصة، وسيُضطر إلى تقشف صارم، لكن خفيةً، لكي ينجح في مضارباته، ولا يتلف رصيده. لقد أذللته، وشككّت في كل شيء لأدفعه إلى الحافة، وأعرف المزيد؛ فأراني سجلاته، وبكى في النهاية. لم أر في حياتي رجلاً في مثل هذه الحال. لقد فقدَ عقله، كان يتحدث عن الانتحار، كان يهذي، وجعلني أشفق عليه.

ـ وهل تصدقين مثل هذا الهراء؟ صاح الأب جوريو. يا له من ممثل!

سبق لي أن التقيت في تجاراتي ببعض الألمان: جميعهم تقريبًا حسنو النية، مفعمون بالطيبة؛ لكنهم- تحت مظهرهم الصريح الطيب- يخفون الخبث والدجل، فإذا بهم أسوأ من سواهم. زوجك يستغلك. أحس أنه مأزوم، فتماوت، ليظل سيدًا باسمك بأكثر مما كان باسمه. وسوف يغتنم هذه الظروف ليؤمن نفسه إزاء مخاطر أعماله. إنه ناعم بقدر ما هو غادر؛ إنه شخص سيء. إياكِ، ثم إياكِ؛ فأنا لن أذهب إلى مدافن "الأب لاشيز" وأترك ابنتيَّ خاليتي الوفاض. وما أزال أعرف شيئًا عن التجارة. لقد استثمر أمواله- كما قال- في مشاريع، حسنًا! وكانت أملاكه تتمثل في سندات وإقرارات واتفاقات، فليُرها لك، ويُصفِّها معكِ. ونحن سنختار أفضل المضاربات، ونستبق الفُرص، وتكون لنا عقودنا الاعترافية*، باسمنا الذي يخصنا "دلفين جوريو"، الزوجة المنفصلة ماليًا عن البارون دو نوسنجن. هل يعتبرنا هذا الرجل معتوهين؟ هل يعتقد أنني يمكن أن أحتمل ليومين فكرة تركك بلا ثروة، ولا خبز؟ لن أحتمل ليوم واحد، ولا لليلة، ولا حتى لساعتين! ولو كانت تلك الفكرة صحيحة، ما تركتها. حسنًا! لقد اشتغلت أربعين عامًا من حياتي، حملت الأجولة على ظهري، وتصبَّب العرق من جسدي، وحرمت نفسي على مدى العمر كله من أجلكما، يا ملاكيَّ، أنتما من خفف عني أحمالي وهون عليَّ متاعبي؛ واليوم أتذهب ثروتي وحياتي أدراج الرياح؟ كان يمكن لذلك أن يميتني مسعورًا! قسمًا بكل ما هو مقدس فوق الأرض أو في السماء، أننا سنعمل على تجليةِ هذا الأمر، ونتحقق من الأوراق والخزينة والمشاريع! أنا لا أنام، لا أغفو، لا آكل، إلى أن أتثبت من أن ثروتك كلها موجودة.

---

* نوع من العقود، يتم فيه إقرار حق كان مُدرجًا- من قبل- في عقد سابق؛ (المحرر).

شكرًا لله! أنك منفصلة ماليًّا؛ وسيكون لديك دورڤيل محاميًا عنكِ، وهو- لحسن الحظ- رجلٌ شريف. قسمًا بالله! ستحتفظين بمليونك الصغير الظريف، والخمسين ألفًا عائدك السنوي، حتى آخر أيام حياتك، أو سأثير صخبًا في باريس كلها. آه! آه! وإن لم تنصفني المحاكم سأتوجه إلى المجالس المنتخبة. فأن أعرف أنك هادئة وسعيدة فيما يتعلق بالأموال، لما يخفف عني آلامي، ويهدئ أحزاني. المال؟ هو الحياة. النقود تعمل كل شيء. فأية أغنية سيغنيها إذن هذا الألزاسي السمين؟ دلفين! إياكِ أن تتنازلي عن ربع ليرة لهذا الحيوان السمين، الذي كبلك بالسلاسل وأحالك تعيسة! إذا ما كان في حاجة إليكِ، فسنحكم وثاقه ونجعله يمشي مستقيمًا. يا إلهي، أعصابي محروقة، ثمة شيء يشيط في جمجمتي. دلفينتي، على كومة قش! آه! يا صغيرتي! أنتِ! اللعنه! أين قفازي؟ هيا، فلنرحل! أود رؤية كل شيء، أوراقي، شؤوني، خزينتي، مراسلاتي، حالاً. حالا. لن أهدأ حتى أتأكد أن ثروتك لا خطر عليها، وأني سأطلع عليها بعينيْ.

- يا أبي العزيز! فلنتحرك بحرص. فلو صدرت منك أدنى لمحة- في هذا الشأن- إلى الانتقام، وإذا ما أبديت نوايا عدوانية، فسأضيع. إنه يعرفك، وقد وجد أن من الطبيعي تمامًا- وبإلهامك- أن أقلق على ثروتي؛ لكني أقسم لك أنه يمسك بها بكلتا يديه، وينوي أن يظل كذلك. فهو منذور للفرار بالمال كله، ويتركنا هناك، المجرم! وهو يعلم تمامًا أنني لن ألوث بنفسي الاسم الذي أحمله، بتعقبه. إنه- في آنٍ- قوي وضعيف. لقد تفحصت كل شيء جيدًا، وإذا ما دفعناه إلى الحافة، فسيدمرني.

- لكنه، إذن، نصاب.

- أجل، معك حق يا أبي، قالت وقد أسلمت نفسها لأقرب كرسي،

وانهمرت دموعها. لم أكن أريد أن أعترف لك، كي أوفر عليك الحزن على أني تزوجت رجلاً من تلك النوعية! السلوكيات الحميمة والضمير، الروح والجسد، كل شيء داخله متصالح! شيءٌ مرعبٌ: أكرهه وأحتقره. نعم، لم يعد بإمكاني احترام هذا "النوسنجن" الخسيس، بعد كل ما قاله لي. رجل قادرٌ على الارتماء في معاملات تجارية حدثني عنها بأسلوب بلا أدنى تهذيب، فتولدت خشيتي مما قرأته مكتملاً في روحه. لقد اقترح عليَّ حرفيًا، هو زوجي، أن يعطيني حريتي! أتعرف معنى ذلك؟ أن أكون أداةً بين يديه- إن شئت، في حالة فشله- لأخدمه باسم مستعار.

- لكن القانون موجود! وهناك ميدان جريڤ* للأصهار من هذا النوع، صاح الأب جوريو؛ ومع ذلك فبإمكاني أن أعدمه بالمقصلة، إن لم يتوفر الجلاد!

- لا، يا أبي، فلا قوانين ضده. أصغ إلى قوله، بعد تنقيته من التعميات التي كانت تلفه: "عند خسارة كل شيء، لن يصبح لديكِ ليرة واحدة، ستُدمرين تمامًا؛ لأني لن أختار شريكًا لي سواك؛ وإلا فاتركيني أدير مشاريعي بنفسي". أهذا واضح؟ ما يزال يتعلق بي. فاستقامتي كامرأة تطمئنه؛ وهو يعلم أني سأترك له ثروته، وأقنع بنصيبي. تلك شراكة مستهجنة ولصوصية، وعليَّ أن أذعن لها كيلا يلحقني الدمار. يريد أن يشتري ضميري مقابل أن يتركني على هواي كامرأة ليوچين. "سأسمح لكِ باقتراف أخطاء، فاسمحي لي بارتكاب جرائم بتدمير الفقراء". هل تلك اللغة واضحة بما يكفي؟ أتعرف ماذا يقصد بالمشاريع؟ أن يشتري

---

* أحد ميادين باريس، أصبح- عام 1806- ميدان "البلدية"؛ وكان العمال يذهبون إليه بحثًا عمن يستأجرهم للعمل البدني؛ (المحرر).

الأراضي الجرداء باسمه، ثم يقوم ببنائها منازل، بأسماء أناس بدلاء، يتعاقدون مع مقاولين لبنائها، ويكون الدفع على أقساط طويلة الأجل، وفي مقابل مبالغ زهيدة لهم، يحولون ملكية هذه الأبنية إلى زوجي، الذي يصير بالتالي صاحب المنازل، ويتخالص هؤلاء مع المقاولين المخدوعين بإشهار إفلاسهم. ويكون اسم شركة "نوسنجن" قد أبهر المعماريين الفقراء. أدركتُ ذلك. وأدركتُ أيضًا أنه ـ عند الضرورة ـ لإثبات سداده لمبالغ طائلة، قد أرسل أموالاً معتبرة إلى أمستردام ولندن ونابولي وڤيينا. فكيف يمكنه إستعادتها؟

سمع يوچين صوت الارتطام الثقيل لركبتي الأب جوريو، الذي سقط بلا شك على أرض غرفته.

ـ يا إلهي، ماذا فعلت؟ لقد أُسلمت ابنتي إلى هذا الشقي. وسيطالب بها كلها إن أراد. سامحيني يا ابنتي! صاح العجوز.

ـ أجل! أنا متردية في هاوية، ربما تكون غلطتك، قالت دلفين. فنحن نكون على قدر ضئيل من العقل عندما نتزوج! هل نعرف العالم، الأعمال التجارية، الرجال، الأخلاق؟ لابد للآباء أن يفكروا من أجلنا. أبي العزيز، أنا لا أؤنبك إطلاقًا، فاغفر لي كلمتي تلك. الذنب ذنبي وحدي. لا، لا تبكِ أبدًا، يا أبي؛ قالت وهي تقبل جبينه.

ـ لا تبكي بعد الآن، يا دلفينتي الصغيرة. هاتي عينيك أجففهما بقبلاتي. هيا! سأسترد عقلي وأرتب خيوط الأعمال التي عقَّدها زوجك.

ـ كلا! دعني أفعل أنا ذلك؛ فأنا أجيد المناورة. هو يحبني، حسنًا، سأستخدم نفوذي لأجعله يسارع بوضع جزء من رأسمالي في ملكيتي. ربما أجعله يعيد شراء ممتلكات "نوسنجن" باسمي، في الألزاس، وهي فكرة

تراوده. فتعال غدًا لفحص مستنداته وحساباته. فالسيد درڤيل لا يدري شيئًا عن الخبايا التجارية. لا، لا تأتِ غدًا. لا أريد أن أعكر دمي. فحفل السيدة دو بوزيان بعد غدٍ، وأريد أن أعتني بنفسي لأكون جميلة، مرتاحة. وأمنح السعادة لعزيزي يوچين. هيا إذن نُلقِ نظرة على حجرته.

في تلك اللحظة، توقفت عربة في شارع "نيف-سانت-جانڤياڤ"، وتردد صوت السيدة دو روستو على السلالم، وهي تقول لسيلڤي: "هل والدي موجود؟" لحسن الحظ، أنقذت هذه المصادفة يوچين، الذي كان يفكر في أن يلقي بنفسه على السرير، ويتظاهر بأنه يغط في نوم عميق.

- آه! يا أبي، هل أخبروك شيئًا عن أنستازي؟ قالت دلفين وقد تبينت صوت أختها. يبدو أن أشياء غريبة تحدث أيضًا في بيتها.

- ماذا؟ قال الأب جوريو؛ سيكون في ذلك نهايتي. إن رأسي المسكين لا يتحمل ضربة شقاء مزدوجة.

- صباح الخير، يا أبي، قالت الكونتيسة وهي داخلة، آه! هذه أنتِ هنا، يا دلفين!

بدت السيدة "دو روستو" محرجة بمقابلة أختها.

- صباح الخير "نازي"، قالت البارونة، هل تجدين تواجدي غير عادي؟ أنا أرى والدي يوميًا!

- منذ متى؟

- لو كنتِ تجيئين، لكنتِ عرفتِ.

- لا تنكدي عليَّ يا دلفين، قالت الكونتيسة بصوت نائح، أنا في غاية التعاسة، ضائعة يا أبي المسكين! أووه! خائفة جدًّا هذه المرة!

- ماذا بك، يا "نازي"؟ صاح الأب جوريو. أخبريني بكل شيء، يا

طفلتي. إنها تشحب. دلفين، هيا! ساعديها، كوني طيبة معها، لأحبك أكثر، لو أستطيع.

ـ مسكينتي "نازي"! قالت السيدة دو نوسنجن وهي تُجلس أختها، تكلمي. فأنت ترين فينا الشخصين اللذين سيظلان يحبانك إلى الأبد، بما يكفي ليغفرا لك كل شيء. ها إن المحبة العائلية هي المؤكدة أكثر من سواها؛ وشمَّمَتْها الملحَ، وبدأت الكونتيسة في الإفاقة.

ـ سأموت بذلك، قال الأب جوريو. اقتربا! نطقها وهو يحرك نارَ الموقد، اقتربا أنتما الاثنتين. أنا بردان. ما قولك، يا "نازي"؟ أخبريني بسرعة، إنكِ تقتلينني.

ـ حسنًا! قالت المرأة البائسة، إن زوجي على علم بكل شيء، تخيل، يا أبي، هل تذكر ذلك السند الذي استُحق منذ وقت على مكسيم؟ حسنًا! إنه لم يكن أول سند. فقد دفعتُ له من قبل عن سندات أخرى كثيرة! وفي منتصف يناير، تبدى السيد دو تراي لي بالغ الحزن. لم يبح لي بشيء؛ لكن من السهل أن نتبين ما هو مخطوط في أفئدة من نحب. تكفيني كلمة "لا شيء": ثم هناك الحدس. وفي النهاية، فقد كان حبُوبًا أكثر، حنونًا أكثر مما كان عليه طوال حياتنا معًا. وكنت دائمًا أنعم بالسعادة. يا للمسكين مكسيم! داخله، كان يودعني الوداع الأخير، كما قال لي؛ كان يريد إطلاق النار على رأسه. وما زلت أثقل عليه وأزيد من توسلاتي، مكثت ساعتين تحت ركبتيه. أخبرني أنه بحاجة إلى مئة ألف فرنك. أوه! بابا، مئة ألف فرنك! أصابني الجنون: ألا أجدها معك؟ لقد استنفدت كل...

ـ لا! قال الأب جوريو، لا أستطيع فعل ذلك، على الأقل أن

أسرقها من أجلك. لكني كنت أمتلكها من قبل. نازي! سأمضي!

بهذه الكلمة المتحشرجة، كصوت حشرجة لمحتضر، التي تفصح عن عذاب الشعور الأبوي الناجم عن العجز، توقفت الشقيقتان. فأية أنانية يمكن أن تبقى باردةً إزاء صرخة اليأس هذه، الشبيهة بحجر ألقي في بئر لسبر عمق أغواره؟

ـ لقد حصلت على المبلغ بعد أن تصرفت في أشياء لا تخصني، يا أبي، قالت الكونتيسة ودموعها تفيض. تأثرت دلفين وبكت، واضعةً رأسها على رقبة أختها.

ـ الكلام كان صحيحًا، إذن؟ قالت.

ـ طأطأت أنستازي رأسها، واحتضنتها السيدة دو نوسنجن وقبلتها بحنان، وهي تضمها إلى صدرها، ستظلين دائمًا حبيبتنا، ولن نحاكم فعلتك تلك.

ـ يا ملاكيَّ، قال الأب جوريو بصوت واهٍ واهن، لماذا يكون تقاربكما مبنيًّا على الشقاء؟

ـ لإنقاذ حياة مكسيم، من أجل إنقاذ سعادتي كلها، قالت الكونتيسة متشجعة بشهادات الحنان الدافئ المختلج، فحملتُ إلى ذلك المرابي الذي تعرفانه، السيد جوبسيك ـ المخلوق من نار جهنم، فلا شيء يمكنه أن يرقق مشاعره ـ ماسات العائلة التي كان يتمسك بها كثيرًا السيد دو رستو ماساته، ماساتي، كلها بعتها. بعتها! أتفهمانني؟ بهذا أنقذته! وقتلت نفسي. وعرف "روستو" كل شيء.

ـ من أخبره؟ وكيف؟ سأقتله!

ـ أمس، استدعاني إلى حجرته، فذهبت إليه؛ "أنستازي، قال لي

بصوت... (آه! صوته يكفيني، فخمنتُ كل شيء)، أين الماسات"؟ معي، "لا" قال وهو يتطلع في وجهي، "بل هناك فوق الخزانة". وكشف العلبة التي كان يغطيها بمنديله. "هل تعرفين من أين استرجعتها؟" فألقيت بنفسي على ركبتيه... أبكي، وسألته عن الطريقة التي يفضل أن يراني أنهي بها حياتي.

ـ أقلتِ له ذلك؟ صاح الأب جوريو، أقسم باسم الله المقدس، أن من يؤذي أيًّا منكما، وأنا حي أرزق، فإنني سأحرقه على نار هادئة! أو سامزقه إربًا مثل...

وصمت الأب جوريو. كانت الكلمات تذوي في حلقه.

ـ وأخيرًا، يا عزيزتي، فقد طلب مني أن أفعل ما هو أصعب عليَّ من الموت. فلتحفظ السماء أية امرأة من سماع ما سمعت.

ـ سأغتال ذلك الرجل، قال الأب جوريو بهدوء. لكنه لا يملك سوى روح واحدة، ويلزمني اثنتان. وأخيرًا، ماذا؟ قال وهو ينظر إلى أنستازي.

ـ حسنًا! قالت الكونتيسة بعد وقفة، وتابعت، أنستازي! قال لي، "سأدفنُ كل شيء في الصمت. سنبقى سويًّا، فلدينا أطفال. لن أقتل السيد دو تراي فقد أفتقده، أما التخلص منه بطريقة أوْ بأخرى، فقد تجعلني أصطدم بالعدالة. وقتله وهو في حضنك، سيشين الأطفال. وحتى لا تري أحدًا يموت، من أطفالك، ووالدهم ولا نفسي، فإنني أشترط شرطين، فأجيبي: هل لي ولدٌ من صلبي؟ أجبته "نعم"؛ "أيهما؟ "إيرنست" ابننا البكري؛ "حسنًا" قال. "الآن أقسمي لي أنك ستمتثلين لأمري في نقطة واحدة أحددها لك"، فأقسمت. "ستوقعين على بيعي ممتلكاتك الخاصة كلها عندما أطلب منكِ ذلك".

ـ لا توقعي، صاح جوريو. لا توقعي على ذلك أبدًا! آهٍ! آهٍ! يا سيد دو رستو! إنك لا تدري ما الذي يجعل امرأة سعيدة، ستذهب لتفتش عن السعادة هناك، أينما توجد، وأنت تعاقبها على عجزك السخيف! أنا هنا. أنا. فليتوقف! سيجدني دومًا أسدُّ عليه الطريق. نازي! ارتاحي يا ابنتي! آه! إنه يعوِّل على وريثه! حسنًا! حسنًا! سأحرمه من ابنه، حفيدي. هل بإمكاني رؤيته، الآن؟ سآخذه إلى قريتي وأعتني به. فاهدئي تمامًا! سأقبض على ذلك المسخ، وأقول له: باختصار، إن كنت تبغي استعادة ولدك، فأعد لابنتي أموالها، ودعها تعش حياتها كما تريد.

ـ أبي!

ـ أجل، أبوك! آه! أنا أبٌ بمعنى الكلمة. طريفٌ لو أنَّ هذين السيدين الكبيرين أساءا معاملة ابنتَيَّ. اللعنة! لا أدري ما الذي يسري في شراييني. إنه دم النمور، وتراودني النفس أن ألتهم هذين الرجلين. أواه يا ابنتيَّ! أهذه إذن حياتكما؟ بل هي موتي. فما الذي تخبئه لكما الأيام من بعدي؟ ليت الآباء يعيشون بقدر حياة أبنائهم. يا ربي! كم إن عالمك رديء التنظيم! ومع هذا، فإن لك ابنًا كما يقال لنا. فلعلك لا تجعلنا نتعذب في أولادنا! ملاكيَّ العزيزين! ليس سوى الألم هو ما يجمعكما بي! ولا تجعلاني أعرف منكما غير الدموع! فليكن! حسنًا، أنتما تحبانني، وألمح ذلك الحب. هيا إليَّ، هيَّا، اشكيا! قلبي كبيرٌ ويمكنه أن يسع كل شيء. نعم، لكما أن تشقانه، فستتحول كل مزقة منه إلى قلب أب. كم أود أن أستلب منكما عذاباتكما فأقاسيها عنكما. آه! فعندما كنتما صغيرتين كنتما في غاية السعادة...

ـ لم نشعر بالسعادة إلا في ذلك العهد، قالت دلفين. فأين تلك

اللحظات التي كنا فيها نتدحرج من فوق الزكائب في مخزن الغلال؟

ـ ليس هذا كل شيء، يا أبي، همست أنستازي في أذن جوريو الذي خطا للأمام. فالماسات لم توفر له المئة ألف. فمكسيم لا يزال ملاحَقًا. وليس لدينا سوى اثني عشر ألف فرنك لندفعها. وقد وعدني أن يكون عاقلاً، وألا يعود للقمار. وأنا لم يتبق لي شيءٌ في هذا العالم سوى حبه، وقد منحته كل شيء كيلا أموت إذا ما تركني. لقد ضحيت من أجله بثروتي وشرفي وراحتي وأطفالي. أوه! فاحرص على أن يكون مكسيم- على الأقل- حرًّا شريفًا، يستطيع أن يبقى في العالم، حيث يمكنه أن يصنع مكانة. إنه لا يدين لي الآن سوى بالسعادة، ولنا أطفالنا الذين سيمسون معدمين. سيضيع كل شيء، إذا ما تم حبسُ زوجي في "سان بيلاجي".

ـ لا أمتلكه، نازي. لم يعد لديَّ شيء، لا شيء! تلك نهاية العالم. آه! العالم ينهار، بالتأكيد. هيا اذهبي! أنقذي نفسك! آه! ما يزال لديَّ بضعة أقراط فضية، وست ملاعق، هي أول ما اقتنيت في حياتي. وفي النهاية، ليس هناك سوى ألف ومئتي فرنك، دخلي السنوي.

ـ فما الذي فعلته إذن بدخلك الدائم؟

ـ بعته، واحتفظت بهذا النصيب الصغير لاحتياجاتي. كان يلزمني اثنا عشر ألف فرنك لتأثيث شقة لـ"فيفين"!

ـ لكِ أنتِ، يا دلفين؟ قالت السيدة دو روستو لشقيقتها.

ـ ما جدوى هذا! رد الأب جوريو، فالاثنا عشر ألفًا أنفقت بالفعل.

ـ أظن أن الشقة، قالت الكونتيسة، للسيد راستنياك. آه! يا دلفين المسكينة، توقفي! اتعظي بحالي!

ـ عزيزتي، السيد راستنياك شابٌ طريُّ العود، لا يقدر على تدمير حبيبته.
ـ شكرًا دلفين. في الأزمة التي أمر بها، كنت أتوقع منكِ ما هو أفضل من ذلك، لكنكِ لم تحبيني في أي يوم.
ـ بالعكس، هي تحبك، يا "نازي"، صاح الأب جوريو، وقد أخبرتني بذلك قبل مجيئك. كنا نتحدث عنكِ، وأكدت أنك جميلة، بينما هي ليست سوى مقبولة، هي!
ـ هي، تعيد الكلمة، إن جمالها بارد!
ـ إذا كان ذلك كذلك، قالت دلفين وقد احمر وجهها، فكيف تصرفتِ أنتِ تجاهي؟ لقد جحدتني، وتسببتِ في إغلاق أبواب جميع البيوت التي كنت آمل دخولها، وأخيرًا فإنك لم تفوّتي أدنى مناسبة دون أن تسببي لي الآلام فيها. أما أنا! فهل جئت أنا إلى هذا الأب المسكين، مثلك، لأبتز منه ألف فرنك فألف فرنك، ثروته، وأجعله في حالته هذه؟ هذا ما قمتِ أنت به، يا أختي! أما أنا، فكنت أزور أبي كلما استطعت، ولم أطرده خارج بيتي، ولم أكن أجيء إليه لألعقَ يديه كلما احتجت إليه. بل إنني لم أعلم أبدًا بأمر الاثني عشر ألف فرنك هذه التي أنفقها من أجل الشقة. أنا منظمة ودقيقة، كما تعلمين! وفضلاً عن ذلك، فإذا ما كان أبي قد قدم لي هدية، فإنني ما استجديته أبدًا.
ـ كنتِ أسعد حظًا مني؛ فالسيد دو مرساي بالغُ الثراء كما تعرفين، لكنك دائمًا بشعة كالذهب. الوداع؛ فليس لديَّ أخت، ولا..
ـ اسكتي، يا نازي! صاح الأب جوريو.
ـ ليس هناك سوى أخت واحدة مثلك بإمكانها ترديد ما لم يعد أحد

يصدقه. أنتِ مسخ! قالت دلفين.

ـ ابنتيَّ! ابنتَيَّ! اصمتا! وإلا قتلتُ نفسي أمام أعينكما!

ـ اذهبي، يا "نازي"، أنا أسامحك، استكملت السيدة دو نوسنجن فأنتِ بائسة. وأنا أفضل منك. كيف تقولين ذلك، في اللحظة التي كنت أحس فيها بالقدرة على كل شيء لتأمينك لإنقاذك، حتى وإن دخلتُ إلى غرفة زوجي، وهو ما لا أفعله من أجل نفسي، ولا من أجل.. ذلك يتوافق مع كل ما ارتكبته في حقي من شرور خلال التسعة أعوام الماضية.

ـ ابنتَيَّ! يا ابنتيَّ، تعانقا! قال الأب. فأنتما ملاكان.

ـ لا، دعني، صاحت الكونتيسة التي أمسكها جوريو من ذراعها، وتحررت من حضنه. إن شفقتها بي أقل من شفقة زوجي بي. فلعلها تكف عن وصف نفسها بأنها مثال الفضائل!

ـ أفضل أن أكون مدينةً للسيد دو مرساي بأكثر من أن أعترف بأن السيد دو تراي يكلفني أكثر من مئة ألف فرنك، ردت السيدة دو نوسنجن.

ـ دلفين! صرخت الكونتيسة، وهي تتقدم خطوة باتجاهها.

ـ أنا أقول لك الحقيقة، أما أنت، فتفترين عليَّ، قالت البارونة ببرود.

ـ دلفين، أنتِ...

قفز الأب جوريو، وضع يده على فم الكونتيسة ليمنعها من الكلام.

ـ يا إلهي! يا أبي، ماذا فعلتَ هذا الصباح؟ قالت أنستازي.

ـ بالفعل، لقد أخطأت، قال الأب المسكين، وهو يجلس ويداه في بنطلونه. ولكني لم أعلم أنكما قادمتان، فأنا راحل.

كان سعيدًا بنجاحه في استقطاب غضب ابنته عليه، بدلا من صب غضبها على أختها.

ـ آه! قال وهو جالس، كسرتما قلبي. أنا أموت، يا ابنتَي. كأنما النار مشتعلة في جمجمتي. كونا لطيفتين إذن، وأحببا بعضكما بعضًا. ستقتلانني. دلفين، نازي، هيا، كنتما على حق، وعلى باطل، أنتما الاثنتين. وأنتِ يا "ديديل"، قال وهو يتطلع إلى البارونة بعينين يملأهما الدمع، يلزم لأختك اثنا عشر ألف فرنك، فلنوجدها لها. لا تنظرا هكذا لبعضكما البعض! وركع على ركبتيه أمام دلفين. ـ اطلبي منها الصفح لتسرِّي عن قلبي، همس لها في أذنها. إنها الأكثر تعاسة! انظري!

ـ حبيبتي نازي المسكينة! قالت دلفين، وقد هالها ما رأت على وجه والدها من تعابير وحشية وجنونية كان الألم يطبعها على ملامحه، أنا غلطانة، ضميني إلى صدرك.

ـ آه! أنتما تضعان بلسمًا على قلبي، صاح الأب جوريو. ولكن مِن أين لي باثني عشر ألف فرنك؟ هل يمكنني أن أقترح نفسي كبديل؟

ـآه! يا أبتي، قالتا وهما تحيطان به، كلا، كلا.

ـ سيكافئك الله على هذه الفكرة، فحياتنا لا تكفي لذلك! أليس كذلك، يا نازي؟ قالت دلفين.

ـ وبعد، يا أبي المسكين، فذلك سيكون قطرة ماء، قالت الكونتيسة.

ـ ولكن، أليس للمرء أن يبيع دمه؟ صاح العجوز يائسًا، أتعهد لمن يحل لك مشكلتك يا نازي أن أقتل رجلا من أجله! سأفعل مثل ڤوتران، ويكون مصيري السجن. أنا.. وتوقف كما لو نزلت عليه صاعقة. لم يعد لديَّ شيء، قال وهو يشد شعره. لو كنت أعرف السبيل للسرقة، لكن

من الصعب أن تجد ما تسرقه، والاستيلاء على بنك يتطلب أناسًا ووقتًا. ها! عليَّ أن أموت، لم يعد لديَّ سوى أن أموت! نعم، لست صالحًا لشيء، ولم أعد أبًا! حتى. لا. إنها تطلب مني، إنها بحاجة! وأنا البائس لا شيء لديَّ. آه! كان لديك المال الدائم أيها الوغد العجوز! وكان لديك ابنتاك! ولكن ألا تحبهما إذن؟ فمت! مت كالكلب الذي هو أنت! أجل، أنا أقل من كلب. فالكلب لا يسلك هكذا! آه! رأسي، إنها تنفجر!

ـ أبتاه! صاحت الشابتان اللتان كانتا تحيطان به كي تمنعاه من أن يخبط دماغه بالجدار، كن عاقلاً يا أبي.

كان ينتحب.

أخذ يوچين ـ مذعورًا ـ السندَ الذي يحمل توقيع ڤوتران، ويتضمن مبلغًا أكبر بكثير؛ فغيَّر الرقم وجعله في شكل شيك عادي بقيمة اثني عشر ألف فرنك لأمر جوريو، ثم دخل عليهم.

ـ هذا هو المال الذي تطلبون، قال وهو يقدم السند. كنت نائمًا فأيقظني حديثكم، وتذكرت ما كنت قد اقترضته من الأب جوريو. خذيه. يمكنك تحويله، وسأدفع قيمته في الموعد بإخلاص.

أخذت الكونتيسة السند وهي جامدة.

ـ دلفين! قالت ووجهها ممتقع، وترجف غضبًا وغيظا وحنقًا. يشهد الله أني كنت أسامحك على كل شيء، لكن هذا! فكيف كان هذا السيد موجودًا، كنتِ على علم! لديكِ تفاهة الانتقام مني بتركي أكشف عن مستور حياتي، وأسرار أطفالي، وعاري، وشرفي! اذهبي، فأنت من الآن لا شيء لي. أكرهكِ، ولن أتورع عن إيذائك كلما أمكن. سوف.. وقطع غضبُها صوتَها، وجف حلقها!

ـ ولكنه ابني، ابننا، أخوك، منقذك، صاح الأب جوريو. عانقيه، إذن يا نازي! هأنذا أعانقه! واحتضنه بحدة، أوه يا بنيَّ، سأكون لك أكثر من أب، فأنا أريد أن نكون عائلة. ولو كنت ربًّا لألفيتَ الكون كله تحت قدميك. هيا، قبليه يا نازي! إنه ليس رجلاً، بل هو ملاك حقيقي.

ـ دعها، يا أبي، فهي الآن مجنونة، قالت دلفين.

ـ مجنونة! مجنونة! وأنت ماذا تكونين؟ سألت السيدة دو روستو.

ـ سأموت، يا ابنتيَّ، إذا ما استمر احتدادكما، صاح العجوزُ وهو يهوي على سريره كمن ضُرب بطلق ناري، إنهما يقتلانني، قال.

نظرت الكونتيسة إلى يوجين، الذي ظل جامدًا بلا حراك، مذهولاً من عنف المشهد.

ـ سيدي، قالت متسائلة بالإيماءة، بالصوت والنظرة، دونما انتباه لوالدها الذي كانت دلفين قد فكت بسرعة أزرار صدريته.

ـ سيدتي، سأدفع وأصمت، أجابها دون انتظار سؤالها.

ـ لقد قتلت والدنا، يا نازي! قالت دلفين وهي تُري العجوز المغمى عليه لأختها، التي سارعت بالفرار.

ـ إنني أسامحها، قال الرجل الطيب وهو يفتح عينيه، وحاله مروعة، يكاد يفقد صوابه. خففي آلام نازي، وكوني لطيفة معها. أعطي أباكِ المسكين وعدًا بذلك. أباكِ الذي يموت! قال ذلك وهو يضغط على يدها.

ـ ولكن ماذا بك؟ سألته مذعورة.

ـ لا شيء، لا شيء، قال الأب، سيزول. شيءٌ ما يضغط على جبهتي، صداع. نازي المسكينة، أي مستقبل ينتظرك؟

عادت الكونتيسة في هذه اللحظة، ركعت عند ركبتي أبيها: سامحني!

صاحت.

ـ هيا، قال الأب جوريو. أنتِ تجعلينني الآن أسوأ حالاً.

ـ سيدي، قالت الكونتيسة لراستنياك وعيناها تغرقان في الدموع، جعلني العذاب ظالمة. أتكون أخًا لي؟ قالت وهي تمد له يدها.

ـ نازي، قالت دلفين وهي تحتضنها، صغيرتي نازي! فلننسَ كلَّ شيء.

ـ لا، بل إنني سوف أظل أذكر كل هذا.

ـ الملائكة! صاح الأب جوريو، إنكما تزيلان الغمامة عن عيني. صوتكما يحييني. فلتتعانقا مرةً أخرى، إذن. حسنًا! نازي، هل هذا السند ينقذك؟

ـ آمل ذلك. قل لي، يا أبي، هل ستتكرم بالتوقيع عليه؟

ـ أنا غلطان، لأني نسيت ذلك! لكنني في حال سيئة. فلا تمسكيه عليَّ يا نازي. وأرسلي لي ما يفيد أنك في مأمن. لا، سأذهب. ولكن لا، لن أذهب، فليس بإمكاني بعدُ رؤية زوجك. سأقتله حتمًا! وأما تغيير ممتلكاتك، فأنا موجود. أسرعي يا ابنتي، واعملي على أن يكون مكسيم عاقلاً.

كان يوجين مذهولاً.

ـ هذه المسكينة أنستازي عنيفة طول عمرها، قالت السيدة دو نوسنجن، لكن قلبها طيب.

ـ لم تعد إلا من أجل تظهير السند!

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ أتمنى لو لم يكن هذا صحيحًا. وعلى أية حال، احذريها! رد وهو

يرفع عينيه كما لو كان يستعيذ بالله من وساوس لا يجرؤ على ذكرها.

ـ كانت دائمًا شبه ممثلة، وكان أبي ينقاد بحركاتها.

ـ كيف حالك الآن، يا والدي الطيب جوريو؟ سأله راستنياك.

ـ أود أن أنام! أجابه.

قام يوچين بمساعدة جوريو على الرقاد. ولما أخذه النوم، وهو يمسك بيد دلفين، انسحبت.

ـ هذا المساء سنسهر في مسرح الإيطاليين، قالت ليوچين، وستخبرني عن أحوال أبي. أما غدًا فموعد انتقالك يا سيدي. هيا فلنر غرفتك! أوه! فظيعة! قالت وهي داخلة، كنتَ أشدَّ بؤسًا من أبي. ثم إنك سلكت سلوكا طيبًا يا يوچين. ولكنتُ أحبك أكثر لو كان ذلك ممكنًا. لكنك إذا أردت أن تُكوِّن ثروة، فلا تبعثر أموالك بهذه الطريقة، وتلقي باثني عشر ألف فرنك من النافذة. الكونت دو تراي مقامر. وأختي لا تريد أن ترى ذلك. وكان بإمكانه أن يحصل على الاثني عشر ألف فرنك هناك، حيث يعرف كيف يكسب أو يخسر تلالاً من ذهب.

دفعتهما تأوهات إلى العودة لحجرة جوريو، فوجداه على ما يبدو نائمًا؛ لكن الحبيبين حين اقتربا سمعاه يغمغم: "إنهما ليستا سعيدتين!" وسواء أكان مستغرقًا أم تائهًا في الصحو، فقد ضربت هذه الكلمة بقوة قلب ابنته، التي اقتربت من مضجعه وقبلت جبينه. فتح عينيه وقال:

ـ أنتِ دلفين؟

ـ نعم، كيف حالك الآن؟ سألته.

ـ بخير، قال، لا تقلقي. أنا خارج. هيا هيا يا أولاد، ولتسعدوا!

أوصل يوچين دلفين حتى بيتها؛ ولكنه رفض تناول عشائه معها لأنه

كان قلقًا على حال الأب جوريو، وعاد أدراجه إلى دار ڤوكيه. وجد الأب جوريو واقفًا يستعد للجلوس إلى المائدة. كان بيانشون جالسًا بطريقة تسمح له بتفحص وجه صانع الشعرية القديم. وعندما رآه يأخذ خبزه ويشمه ليعرف نوع الدقيق الذي صُنع منه، لاحظ الطالبُ في حركته تلك غياب ما يمكن أن يُسمَّى الوعي بالفعل، فبدرت عند لفتة متشائمة.

ـ تعال، إذن، إلى جانبي سيدي الطالب، قال يوچين.

سعد بيانوشون بالانتقال الذي يجعله أقرب إلى النزيل العجوز.

ـ ماذا به؟ سأل راستنياك

ـ لو لم أكن مخطئًا، فإنه ملتهبٌ! من المؤكد أن شيئًا استثنائيًّا قد أصابه، ويبدو لي أنه على شفا سكتةٍ دماغيةٍ خطيرة. وعلى الرغم من أن الجزء الأسفل من الوجه يبدو مستقرًّا، لكن الأعلى مشدودٌ نحو الجبين رغمًا عنه. انظر! ثم إن حال العينين تنم عن غزو مصل الدم للجمجمة. كأنهما مليئتان بالغبار الناعم. صباح الغد سنعرف تطورات الأمر.

ـ هل لهذا الأمر من علاج؟

ـ لا. لكن من الممكن تأخير وفاته إذا ما توصلنا إلى وسائل تحديد رد فعل الأطراف والساقين خصوصًا؛ أما إذا لم تتوقف الأعراضُ حتى مساء الغد، فإن الرجل المسكين سيكون قد انتهى. أتعرف ما سببَ له هذا المرض؟ لابد أنه تلقى ضربةً قاسية فانهارت تحت وطأتها معنوياته!

ـ أجل، قال راستنياك، وقد تذكر كيف أن ابنتي الرجل ضَربتاه في قلبه بلا هوادة.

ـ على الأقل، فكر يوچين، فإن دلفين تحب والدها.

وفي المساء، في مسرح الإيطاليين، احتاط راستنياك لئلا يزعج السيدة دو نوسنجن.

ـ لا تقلق، ردت على الكلمات الأولى التي نطق بها يوچين، فأبي قوي. والأمر لا يتعدى أننا أزعجناه قليلاً هذا الصباح. فثروتنا مهددة، أتعلم مدى هذه الكارثة؟ وما كنت لأحيا لو لم تجعلني مودتك لامباليةً إزاء ما اعتبرته من قبل كربًا قاتلا. وهو اليومَ لا يتعدى خوفًا واحدًا وشقاءً واحدًا لي، أن أفقد الحب الذي جعلني أستلذُّ الحياة. وما خلا ذلك الشعور، فكله عندي سواء ولا آبه له، لم أعد أحب أي شيء آخر في العالم. أنت كل شيء بالنسبة لي. ولو سعدت بأن أكون غنية، فلكي أدخل السرور على قلبك أكثر. إنني ـ ويا لخجلي ـ محبة بأكثر من كوني امرأة. لماذا؟ لا أدري. كل حياتي فيك. أبي هو من منحني قلبي، لكنك أنت من جعلته يخفق. بإمكان العالم كله أن يلومني، فماذا يهمني! إذا ما كنتَ أنت ـ مَن لا تملك الحق في إدانتي ـ قد برّأتَني من الجرائم التي تدينني على إحساس لا يُقاوَم؟ أتراني فتاة عاقة؟ أوه! لا، فمن المستحيل عدم حُب أب طيب مثل أبينا. هل بإمكاني أن أحول بينه وبين تألمه من زواجنا المؤسف؟ أما كان عليه أن يمنعه؟ ألم يفكر بنا؟ اليوم، أعلم أنه يعاني بأكثر منا؛ ولكن ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ أن نواسيه! لن نواسيه على شيء. إن خضوعَنا يسبب له ألمًا فوق ما يمكن أن يسببه تأنيبنا ولومنا له. إن في الحياة لمواقفَ لا تنطوي إلا على المرارة.

ظل يوچين صامتًا، مأخوذًا بحنان تعابيرَ ساذجةٍ عن عاطفة حقيقية. وإذا ما كانت الباريسيات غالبًا مزيفات، مخمورات بالغرور، أنانيات، متأنقات، باردات، فمن المؤكد أنهن إذا أحببن حبًّا حقيقيًّا، فإنهن

يضحين بمشاعرهن بأكثر من الأخريات؛ يتعالين على تفاهتهن، ويصبحن ساميات. ذُهل يوچين من البصيرة العميقة الفاصلة التي كشفت عنها المرأة، في حكمها على عاطفة طبيعية، حين تفصلها عاطفة متميزة وتجعلها متباعدة. تكدرت السيدة دو نوسنجن بالصمت الذي التزمه يوچين.

- فيم تفكر؟ سألته.

- ما أزال أستمع لأقوالك! كنت حتى الآن أظن أني أحبك أكثر مما تحبينني..

ابتسمت، لكنها تسلحت ضد الفرحة التي اجتاحتها، لتظل المحادثة في الحدود التي تفرضها اللياقة. لم يسبق أبدًا أن سمعت تعبيرات حب فتِي مؤثرة، مخلصة كهذه. بضع كلمات أخرى، ولن يكون بإمكانها الاستمرار في المقاومة.

- يوچين، قالت لتغيرَ مجرى الحوار، ألا تدري إذن ما الذي يجري؟ باريس كلها ستكون غدًا لدى السيدة دو بوزيان. آل "روشفيد" والماركيز "داجودا" اتفقا على تكتم الخبر، لكن الملك سيوقع غدًا على عقد الزواج، وابنة عمومتك المسكينة لا تدري بشيء. ولن تستطيع إعفاء نفسها من استقبالهم، و"الماركيز" لن يكون موجودًا بالحفل. لا أحد إلا ويفكر في هذه المغامرة!

- ويضحك العالم من عمل شائن، ويشارك فيه! ألا تعلمين أن السيدة دو بوزيان من الممكن أن تموت بسببه؟

- لا، قالت دلفين مبتسمة، أنت لا تعلم شيئًا عن هذه النوعية من النساء. لكن باريس كلها ستأتي إلى قصرها، وأنا أيضًا، وأنا مدينة لك

بهذه السعادة.

ـ ولكن، قال راستنياك، أليست هذه إحدى تلك الشائعات السخيفة التي دائمًا ما تسري في أرجاء باريس؟

ـ سنعرف الحقيقة غدًا.

لم يرجع يوچين إلى "دار ڤوكيه". لم يستطع أن يكبح نفسه عن الاستمتاع بشقته الجديدة. وإذا كان قد أُجبر على ترك دلفين في الواحدة بعد منتصف الليلة البارحة، فإن دلفين هي التي تركته حوالي الساعة الثانية لتعود لمنزلها. وفي اليوم التالي، ظل نائمًا إلى وقت متأخر، وانتظر عند الظهيرة السيدة دو نوسنجن لتتغدى معه. كان الشابان متلهفين على تلك الملذات الجميلة، إلى حد أن نسيا تقريبًا الأب جوريو. ستدوم بهجته طويلاً حتى يعتاد هذه الأشياء الأنيقة التي صارت تنتمي إليه. السيدة دو نوسنجن معه، تعطي لكل شيء قيمةً جديدةً. وفي الساعة الرابعة خطر لهما التفكير في الأب جوريو، والسعادة التي ستغمره إذا ما جاء للإقامة في هذا المنزل. أشار يوچين إلى أنه من الضروري نقل الرجل الطيب على عجل، خشيةً من تفاقم مرضه، وترك دلفين ليجري إلى إلى البنسيون. لا بيانشون ولا الأب جوريو كان إلى مائدة الطعام.

ـ حسنًا! قال الرسام، الأب جوريو يشكو من ساقه، وبيانشون في الأعلى إلى جواره. لقد زارته ابنته الكونتيسة "دو روستوراما". وأراد الخروج لكن حالته ساءت. سيحرم المجتمعُ من إحدى تحفه الرائعة!

هُرع راستنياك نحو السلم.

ـ مهلاً، يا سيد يوچين.

ـ سيد يوچين، السيدة تدعوك، صاحت سيلڤي.

ـ سيدي، قالت له الأرملة، السيد جوريو وأنت، كان عليكما مغادرة البنسيون منتصف الشهر؛ وقد مرت ثلاثة أيام على ذلك الموعد؛ فنحن في الثامن عشر، وعليكما أن تدفعا لي شهرًا كاملا، أنت وهو، ولكن إذا ما ضمنته أنت، فهذا يكفيني.

ـ ولماذا؟ ألا تثقين به؟

ـ أثق! وإذا ما فقد الرجل عقله ومات، فلن تعطيني ابنتاه ليرةً واحدة، وجميع أغراضه لا تساوي عشرة فرنكات. لقد خرج بأوانيه الفضية هذا الصباح، لا أدري لماذا. وتبدى لي كما لو كان شابًّا. فليسامحني الله! كان وجهه موردًا، وكأنما عاد إلى صباه!

ـ سأضمنه في كل شيء، قال يوچين وهو يختلج من الرعب، ويتوجس من كارثة.

صعد إلى الأب جوريو. كان العجوز مستلقيًا في فراشه، وبيانشون إلى جواره.

ـ صباح الخير، يا أبي، قال له يوچين.

ابتسم الرجل الطيب بوداعةٍ، ورد وهو يدير نحوه عينين زجاجيتين.

ـ كيف حالها؟

ـ بخير، وأنت؟

ـ بين بين.

ـ لا ترهقه، قال بيانشون، وهو يسحب يوچين إلى ركن الغرفة.

ـ لن ينجو إلا بمعجزة. الاحتقان الخطير حدث. وقد وضعنا له لصقات الخردل، ولحسن الحظ فإنه يحس بها. وهي تفعل مفعولها.

ـ هل من الممكن نقله؟

ـ مستحيل. لابد من تركه على حاله، وتجنيبه أي انفعال جسدي أو عاطفي..

ـ يا عزيزي بيانشون الطيب، سنعتني به كلانا، معًا.

ـ لقد استدعيت كبير أطباء المستشفى الذي أعمل به.

ـ وماذا بعد؟

ـ سيخبرني بالنتيجة مساء الغد. وعدني أن يحضر بعد انتهاء عمله. ولسوء الحظ، فهذا المسكين- الميئوس منه- ارتكب هذا الصباح غلطة طائشة لم يشأ تفسيرها لي. إنه عنيدٌ كبغل. عندما أتحدث إليه، يتصنع عدم سماعي، وينام حتى لا يجيبني؛ فإذا ما كانت عيناه مفتوحتين، فإنه يأخذ في النواح. لقد غادر البنسيون هذا الصباح وسار على قدميه في باريس، لا أدري إلى أين. كان يحمل كل ما يملك من فضيات، كأنما يقوم بمسيرة مقدسة تجاوز فيها قدراته! كانت إحدى ابنتيه قد جاءت إليه.

ـ الكونتيسة؟ قال يوچين، طويلة، سمراء، مشرقة العينين، حسنة التقاطيع، جميلة القدمين، لدنة القوام؟

ـ أجل.

ـ اتركني معه لحظات، قال راستنياك، سأجعله يعترف. سيخبرني بكل شيء.

ـ وسأكون أنا قد تعشيت، خلال هذا الوقت. فاحذر أن تستثيره، فما يزال لدينا أمل.

ـ اطمئن.

ـ الأختان ستقضيان وقتًا رائعًا غدًا، قال الأب جوريو إلى يوچين حين أصبحا وحدهما. سيذهبان إلى حفل كبير.

ـ فما الذي فعلته هذا الصباح، يا أبي، حتى تتألم هكذا في المساء؟ وكان عليك البقاء في فراشك؟

ـ لا شيء.

ـ هل جاءت أنستازي إلى هنا؟ سأله راستنياك.

ـ أجل، أجاب الأب جوريو.

ـ حسنًا! فلا تخفِ شيئًا عني. ماذا طلبت منك أيضًا؟

ـ آه! أجاب وهو يستجمع قواه ليتحدث، كانت في غاية التعاسة. هكذا، يا بني! لم يكن مع "نازي" فلس واحدٌ منذ مسألة الماسات. وكانت قد أمرت ـ من أجل هذا الحفل ـ بفستان مذهب يتلألأ عليها كجوهرة. خياطتها امرأة حيزبون، لم تقبل الإمهال في السداد، ودفعت وصيفتها الألف فرنك تحت الحساب. يا لـ"نازي" المسكينة! لقد وصلت إلى هذا الحد! ذلك يمزق قلبي! لكن الوصيفة ـ حين رأت أن هذا "الرستو" سحب الثقة من "نازي" ـ خافت أن تفقد المال الذي دفعته، فاتفقت مع الخياطة على ألا تسلم الفستان إلا إذا استعادت الألف فرنك. والحفل غدًا، والفستان جاهز، و"نازي" يائسة. فأرادت أن أعيرها فضياتي لترهنها. ويريد زوجها منها أن تحضر الحفل لتُرى باريس كلها الماسات التي تظاهرنا ببيعها. فهل يمكنها القول لهذا المسخ: "عليَّ ألف فرنك، فادفعها"؟ لا. وفهمت ذلك. أختها دلفين ستكون هناك في زينة رائعة. ولابد ألا تكون أنستازي أقل من أختها الأصغر. يا لابنتي البائسة! لقد غرقت في دموعها. أنا الذي تعرضت للإهانة أمس، لأني لا أملك اثني عشر ألف فرنك، كان لي أن أعطي بقية حياتي البائسة لأتدارك ذلك الخطأ. أتفهمني؟ كانت لديَّ القوة لأتحمل كل شيء، ولكن النقص

الأخير لأموالي مزق قلبي. آه! آه! رممتُ نفسي، وتعافيت؛ بعتُ بستمائة فرنك أدوات مائدة وأقراطًا، ثم رهنتُ- لدى بابا جوبسيك، لمدة عام- سَنَد الإيراد مدى الحياة مقابل أربعمائة فرنك تُدفع دفعةً واحدة. باه! فسآكل الخبز الحاف؛ فقد كان يكفيني عندما كنت شابًّا، ويمكن أيضًا أن يكفيني الآن. على الأقل، فستتمتع بسهرة رائعة، نازي الغالية. ستكون متألقة. معي ورقة نقدية من فئة الألف فرنك، تحت وسادتي. ذلك يدفئني أن يكون معي- وتحت رأسي- ما يدخل البهجة على قلب المسكينة نازي. بإمكانها أن تطرد وصيفتها "ڤكتوار". هل رأيت خادمات لا يثقن في سيداتهن؟ غدًا سأكون قد شفيت، وستأتي "نازي" في العاشرة. ولا أريد لهما أن تظناني مريضًا فلا يذهبن إلى الحفل، ويعتنين بي. ستعانقني "نازي" غدًا كأنني طفلها، وستشفيني مداعباتها. ثم، ألم أكن سأنفق ألف فرنك على الدواء؟ أكون مسرورًا إذا ما أعطيتُ هذا المبلغ لشافيتي، "نازيتي" لها مني كل شيء. سأواسيها، على الأقل، في محنتها. ذلك يبرئني من غلطة راتبي العُمري. إنها في قرارة الهاوية، وأنا لم أعد الآن بقادر على إخراجها منها. أوه! سأعود إلى التجارة. سأذهب إلى أوديسا لجلب الحبوب. القمح هناك بثلث ثمنه هنا. وإذا ما تمّ حظر إدخال الحبوب، فإن الجَسُورين الذين يشرِّعون القوانين لم يفكروا في حظر الصناعات التي يكون القمح هو الأساس فيها. هه؟ هه؟ أدركتُ ذلك، هذا الصباح! ثمة خبطات جيدة يمكن فعلها بخصوص النشاء.

- إنه مجنون، قال يوچين لنفسه، وهو يتطلع إلى العجوز، عليك بالراحة ولا تجهد نفسك بالكلام..

ونزل يوچين لتناول العشاء حين صعد بيانشون. ثم قضى الاثنان

ليلتهما مع المريض بالتناوب؛ أحدهما يقرأ كتب الطب، بينما الثاني يكتب خطابات إلى أمه وشقيقته.

في اليوم التالي، تبين أن أعراض المرض تبشر، طبقا لبيانشون، بشيء من التحسن، وإن كان يتطلب اهتمامًا دائمًا، كان الطالبان هما وحدهما مَن يقدر عليه، وهي مهمةٌ يستحيل وصفها بالأسلوب المتحفظ لتلك الحقبة. تم وضع العلق على الجسد المنهك مع اللصقات وحمامات القدمين، فضلا عن المهارات اليدوية التي تتطلب قوة الشابين وتفانيهما. لم تجئ السيدة دو روستو، بل أرسلت مَن يستلم لها المبلغ.

ـ كنت أظن أنها ستأتي بنفسها، ولكن لا بأس. فربما كانت ستقلق، قال الأب وهو على ما يبدو سعيد بما يحدث.

وفي السابعة مساءً، جاءت تيريز، ومعها رسالة من دلفين.

"ما الذي تفعله يا صديقي؟ ما إن أحسستُ بالحب، حتى هُجرت؟ لقد أبديتَ لي ببوحك المنسكب من القلب إلى القلب روحًا أروع من أن تكون من أولئك الذين يبقون دائمًا أوفياء وهم يرون كم تنطوي المشاعر على اختلاف في الدرجات. وكما قُلتَ، ونحن نصغي لصلاة "موسى"*: "إنها متشابهة بالنسبة للبعض، وبالنسبة للآخرين فهي لانهائي الموسيقى!" فكّر أنني أنتظرك هذا المساء للذهاب إلى حفل السيدة دو بوزيان. مؤكدٌ أن عقد زواج السيد "داجودا" تم صباحًا في بلاط الملك، ولم تعرف الكونتيسة المسكينة بأمره إلا الساعة الثانية بعد الظهر. ستتجمل

---

* Mose in Egitto موسى في مصر: عمل أوبرالي من ثلاثة فصول، كتبه الإيطالي جواشينو روسيني (1792ـ1868)؛ (المحرر).

باريس بأسرها لديها، مثلما يزحم الناس ميدان "جريڤ" عند تنفيذ الإعدام. أليس مريعًا الذهاب لرؤية ما إذا كانت هذه المرأة ستخفي ألمها، أم أنها ستموت؟ بالتأكيد، لم أكن لأذهب عندها، لو كنتُ قد ذهبتُ من قبل؛ ولكنها بالتأكيد لن تستقبل أحدًا فيما بعد، وكل جهد بذلته سيضيع هباءً. إن موقفي مختلف تمامًا عن مواقف الآخرين. ثم إنني سأذهب لأراك أنت أيضا. أنتظرك. وإذا ما دقت الساعة الثانية ولم أجدك إلى جواري، فلا أدري ما إذا ما كنت سأغفر لك هذا الغدر".

أمسك "راستنياك قلمًا وكتب الرد:

"أنتظرُ الطبيب لمعرفة ما إذا كان والدك يمكن أن يعيش. إنه يحتضر. سأحمل لك التقرير، وآمل ألا يكون تقرير وفاة. ستقدرين ما إذا كان بوسعك الذهاب إلى الحفل. قلبي معك".

جاء الطبيب في الثامنة والنصف. ودون أن يعطي رأيًا إيجابيًّا، فلم يعتقد أن الموت وشيك. وأعلن عن تحسنات وانتكاسات ستتوقف عليها حياة الرجل الطيب وسلامة عقله.

ـ من الأفضل له أن يموت سريعًا، كانت آخر ما قاله الطبيب.

فوض يوچين أمر العناية بجوريو لبيانشون، ليذهب حاملاً للسيدة دو نوسنجن الأخبار الحزينة التي، بعقلها الممتلئ بالالتزامات الأسرية، كان ينبغي أن تؤجل أية بهجة.

ـ قل لها أن تبتهج رغم ذلك، صاح به الأب جوريو، الذي كان يبدو ناعسًا، لكنه اعتدل جالسًا وقد رأى راستنياك يخرج.

ظهر الشاب لدى دلفين حزينًا من الألم، فوجدها وقد صففت

شعرها، وانتعلت حذاءها، ولا ينقصها سوى ارتداء فستان الحفل، ولكن، كضربات الفرشاة التي ينهي بها الفنانون لوحاتهم، كانت اللمسات الأخيرة تتطلب وقتًا أطول مما تتطلبه خلفية اللوحة.

ـ ماذا؟ ألم ترتد ثيابك؟ قالت.

ـ ولكن، يا سيدتي، والدك...

ـ أبي، من جديد؟ صاحت مقاطعة. أنت لن تعلمني ما يتوجب عليَّ تجاه أبي. إنني أعرف أبي منذ زمن طويل. ولا كلمة، يا يوچين. لن أسمع إلا إذا ارتديت ثياب السهرة. تيريز أعدت كل شيء في شقتك، وعربتي جاهزة، اذهب بها وتعالَ. سنتحدث عن صحة أبي في طريقنا إلى الحفل. علينا أن نذهب مبكرين؛ وإذا ما تورطنا في طابور العربات، فسنكون محظوظين إذا ما دخلنا الساعة الحادية عشرة.

ـ سيدتي!

ـ هيا، ولا كلمة! قالت وهي تهرع إلى مخدعها لتأخذ قلادة.

ـ هيا يا سيد يوچين، ولا تغضب السيدة، قالت تيريز وهي تدفع الشاب الذي أرعبته هذه الأنيقة قاتلة أبيها.

ذهب ليرتدي ملابسه، حزينًا، محبطًا. كان يرى العالم كمحيطٍ من الوحل يغوص فيه المرءُ حتى رقبته، ما إن يضع المرء فيه قدمه. "ولا تُرتكب فيه سوى جرائم حقيرة!"، فكّر. ڤوتران كان أكبر من ذلك. كان يرى التعبيرات الكبرى للمجتمع: الطاعة، النضال، الثورة؛ الأسرة، والعالم، وڤوتران. ولم يكن ليجرؤ على اختيار طرف. كانت الطاعة مضجرة، والثورة مستحيلة، والنضال غير مؤكد. حملته أفكاره إلى حضن أسرته. تذكر المشاعر الطاهرة بهذه الحياة الوادعة، وتذكر الأيام

الخوالي التي كان فيها بين أناس يحبونه. خاضعين لقوانين الطبيعة في الحياة المنزلية، كان هؤلاء الناس الأحباء يجدون سعادة كاملة، دائمة، بلا كدر. إلا أنه- رغم أفكاره الطيبة تلك- لم يستشعر الشجاعة اللازمة للحديث مع دلفين عن النفوس النقية، ولا أن يطلب منها الفضيلة باسم الحب. والآن، كان التعليم الذي بدأه يؤتي ثمارَه. كان الآن يحب بأنانية. وكانت حصافته قد سمحت له بالتعرف على طبيعة قلب دلفين. كان يستشعر أنها لا تتورع عن السير فوق جثمان أبيها من أجل الذهاب إلى الحفل. ولم تكن لديه القوة ليلعب دور المتعقل، ولا الشجاعة ليغضبها، ولا القدرة على تركها. "لن تسامحني أبدًا على تعقلي في مواجهتها في هذا الظرف"، قال لنفسه. ثم تأمل أقوال الطبيبين، وسَرَّه أن يعتقد أن الأب جوريو لم يكن في حالة مرضية خطرة كما كان يعتقد من قبل، وفي النهاية، راح يكدس حججًا مجرمة لتبرير تصرفات دلفين. فهي لم تكن تعلم حال والدها. وكان للرجل الطيب ذاته أن يطلب منها الذهاب إلى الحفل، لو جاءت لزيارته. وكثيرًا ما يدين القانون الاجتماعي- الصارم في صياغته- ذلك، حيث الجُرم الواضح يتم تبريره بتعديلات لا حصر لها، تضع في الاعتبار اختلافات الطبائع، وتنوع المصالح والمواقف. تمنى يوچين لو خدع نفسه، وكان على أتم استعداد أن يقدم لعشيقته التضحية بضميره! في يومين، تبدل كل شيء في حياته. وقامت المرأةُ ببث فوضاها فيها، جعلت صورة العائلة تبهت لديه، وصادرت كل شيء لصالحها. لقد التقى راستنياك ودلفين في ظروف يحقق كل منهما للآخر فيها أكثر الملذات حيوية. تنامت عاطفتهما، المؤهلة تمامًا، بفعل ما يقتل العاطفة، المتعة. وبالاستحواذ على تلك المرأة، تراءى لراستنياك أنه-

حتى ذلك الحين- لم يكن الأمر سوى رغبة، وأنه لم يحبها إلا بعد أن شعر بالسعادة: ربما يكون الحب هو العرفان بالمتعة. وسواء كانت شائنةً أم سامية، فقد كان يعشق هذه المرأة، لما تحققه له من شهوات كمَهر لها، ولكل ما تلقاه منها؛ وأيضًا كانت دلفين تحب راستنياك مثلما كان يمكن لتنتالوس* أن يحب الملاكَ الذي كان يأتيه ليُشبع جوعه، أو يروي عطش حلقه الجاف.

- حسنًا، كيف حال والدي؟ قالت له السيدة دو نوسنجن، وقد عاد من شقته في ثياب السهرة.

- سيءٌ للغاية، أجابها، إن كنت تريدين أن تثبتي لي عاطفتك تجاهه، فلنُهرع لنراه.

- حسنًا، فعلاً، قالت، ولكن بعد الحفل. يا يوچيني الطيب، كن لطيفًا، ولا تكثر من وعظي. تعال!

رحلا. بقي يوچين صامتًا حتى اجتازوا مسافة من الطريق.

- ماذا بك، إذن؟ سألته.

- أسمع حشرجة والدك، أجاب بنبرة غضب. راح يقص عليها بنبرة حارة، لشاب يافع، الحدثَ الشنيع الذي قامت به السيدة دو روستو مدفوعة بخيلائها، والأزمة القاتلة التي حتمها إخلاصُ الأب، الأخيرُ، وما تكلفه فستان أنستازي الموشى بالذهب.

بكت دلفين.

- سأكون قبيحة، فكرت. جففت دموعها. سأذهب وألازم أبي، ولن

---

* تنتالوس Tantale: ملك فريجيا أو ليديا؛ ولأنه أغضب الآلهة، رُمي به في الجحيم، محكومًا عليه بالجوع والعطش القاتلين؛ (المحرر).

أبرح حجرته، قالت.

ـ آه! ها أنتِ كما أود لك أن تكوني، صاح راستنياك.

كانت مصابيح خمسمئة عربة تضيء محيط قصر دو بوزيان. وعلى جانبي البوابة المضاءة، كان ثمة دركي مدجج بالسلاح. وكانت جموع المجتمع الراقي تتدفق بغزارة، وكل منهم متلهف على رؤية هذه السيدة العظيمة لحظة سقوطها، حتى إن جميع حجرات الطابق الأرضي كانت متخمة بمن فيها، لحظة وصول السيدة دو نوسنجن وراستنياك.

فمنذ الواقعة التي أوثق فيها "لويس الرابع عشر" يدَي عشيق الآنسة الكبيرة، وساقيه، لم تحدث كارثةٌ عاطفيةٌ أكثر دويًّا من تلك التي أصابت السيدة دو بوزيان. في هذا الظرف، بدت مَن تُعتبر آخر فتيات "البلاط الملكي" لبورجونيا، متساميةً على آلمها، وهيمنت ـ حتى اللحظة الأخيرة ـ على العالم الذي لم تقبل زهوه إلا ليخدمها في انتصار عاطفتها. أجمل نساء باريس، بكامل زينتهن وابتسامهن، يملأن الصالونات. وأكثر رجال البلاط تميزًا، والسفراء والوزراء، والرجال المرموقون في كل مجال، وقد زركشت صدورهم الصلبان والأوسمة، والشرائط متعددة الألوان، كانوا يتزاحمون حول الكونتيسة. وموسيقى الأوركسترا تتماوج تحت زخارف الأسقف المذهبة، لذلك القصر، المهجور بالنسبة لمليكته.

كانت السيدة دو بوزيان واقفةً أمام الصالون الكبير في استقبال أصدقائها المزعومين. في ثيابها البيضاء، بلا أية زينة في شعرها المضفور ببساطة، كانت تبدو هادئة، لا ألم، ولا كبرياء، ولا فرحة زائفة. لا أحد تمكن من قراءة أعماقها. يمكن القول إنها "نيوبي"* من مرمر. وابتسامتها

* نيوبي Niobé: ابنة تنتالوس وزوجة أمفيون، في الأساطير الإغريقية؛ (المحرر).

لأصدقائها المقربين كانت أحيانًا ساخرة؛ لكنها ـ بالنسبة للجميع ـ شبيهة بذاتها، وبدت تمامًا مثلما كانت حين كانت السعادة تزينها بأشعتها، فيُعجب بها حتى أكثر الناس برودةً، مثلما كان شباب الرومان يصفقون للمصارع الذي يمكنه الابتسام وهو يحتضر. كان العالم يبدو قد تزين ليلقي نظرة وداع على إحدى عاهلاته.

ـ كنت أرجف خشية ألا تأتي، قالت لراستنياك.

ـ سيدتي! أجاب وقد أخذ كلمتها على محمل التأنيب، هأنذا قد جئت، وسأظل حتى آخر الحفل.

ـ حسنًا، قالت وهي تتناول يده. ربما تكون الوحيد الذي أثق به هنا. فلتحب امرأةً ـ يا صديقي ـ يمكنك أن تحبها إلى الأبد. ولا تهجرها. أمسكت بذراع راستنياك وأوصلته إلى كنبة كان يدور فيه لعب الورق.

ـ فلتذهب إلى الماركيز، قالت له. سيوصلك خادمي جاك، وستنقل إليه خطابًا. إنني أطلب منه إعادة رسائلي. سيعيدها إليك جميعها على ما أظن. فإذا ما استلمتها، فاصعد بها إلى غرفتي. وسيخطرونني بمجيئك.

نهضت لتستقبل الدوقة "دولانجيه" أعز صديقاتها، التي كانت قادمة تجاهها أيضًا.

ذهب راستنياك، إلى الماركيز "داجودا" في قصر "روشفيد"، حيث كان من المتوقع أن يسهر هناك، ووجده. اصطحبه الماركيز إلى منزله، وقدم إليه صندوقًا، قائلاً: "الرسائل كلها هنا". بدا راغبًا في التحدث إلى يوجين، إما ليستفهم منه عن سير أحداث الحفل والكونتيسة، وإما ليعترف له بأنه ربما يكون قد تملكه اليأس من زواجه؛ لكن ومضة كبرياء التمعت في عينيه؛ فإذا بالشجاعة الأليمة تدفعه إلى أن يطوي صدره على

مشاعره الأكثر نبلاً.

ـ لا تخبرها بشيء عن أحوالي، يا عزيزي يوچين. وضغط على يد راستنياك بحركة مودة حزينة، وهو يومئ إليه مودعًا.

عاد يوچين إلى قصر "بوزيان" وأوصلوه إلى غرفة الكونتيسة، فلمح التأهب للرحيل. جلس بالقرب من المدفأة، فرأى العلبة المصنوعة من خشب الأرز، وهوى في حزن عميق.

كانت للسيدة "دو بوزيان ـ في نظره ـ مواصفات ربات الإلياذة.

ـ آه! يا صديقي، قالت الكونتيسة وهي تدخل، وأراحت يدها على كتف راستنياك.

لمح الدموع في عيني ابنة عمومته. عيناها إلى أعلى، ويد ترجف، والأخرى مرفوعة. فجأةً، أخذت الصندوق، ورمت به في النار، وظلت تحدق فيه وهو يحترق.

ـ إنهم يرقصون، لقد جاءوا جميعًا في موعدهم تمامًا، طالما أن الموت يأتي فيما بعد. اسكت! يا صديقي، قالت وهي تضع إصبعًا على شفتي راستنياك الذي كان على وشك أن يتحدث. لن أرى بعد الآن باريس ولا العالم. وعندما تحين الساعة الخامسة صباحًا، سأرحل لأتوارى في أعماق "النورماندي". منذ الثالثة بعد الظهر، وأنا غارقة في التحضير، وتوقيع العقود، ومراجعة أعمالي. لم أكن قادرةً على إرسال أحد عند.. وتوقفت. كان واثقًا أنه سيكون موجودًا لدى.. وتوقفت مرةً أخرى وقد أضناها الألم.

في مثل هذه اللحظات تكون المعاناة هي كل شيء، وثمة كلمات تكون عصية على النطق. ـ أخيرًا، قالت، فإنني أعتمد عليك هذا المساء

في خدمة أخيرة. أود أن أقدم لك عربون صداقتي. سأفكر دائمًا فيك، أنت الذي بدوتَ لي طيبًا ونبيلاً، شابًّا حسن النية في خضم هذا العالم الذي تندر فيه هذه الصفات. وآمل لو فكرت فيَّ أحيانًا. خذ، قالت وهي تتلفت حولها، هذه علبة كنت أضع فيها قفازاتي. كل مرة كنت أفتحها فيها- قبل الذهاب إلى حفل أو عرض مسرحي- كنت أشعر أنني جميلة لأنني سعيدة، وما لمستها إلا لأترك فيها ذكرى لطيفة. فيها الكثير من "أناي"، ستجد فيها كل السيدة دو بوزيان التي لم يعد لها وجود. فاقبلها. وسأهتم بأن تُنقل إليك، بشارع "أرتوا". السيدة دو نوسنجن كانت في غاية الروعة هذا المساء، فأحببها جيدًا! وإن لم نتلاق بعد الآن يا صديقي، فثِق أنني سأحمل أمنيات طيبة لك، أنت الذي كنتَ طيبًا معي. فلننزل، فلا أريدهم أن يظنوا أنني أبكي. فالأبدية كلها أمامي، سأكون وحيدة، ولن يسألني أحدٌ عن سبب دموعي. نظرةٌ أخرى على هذه الغرفة. وتوقفت. ثم، بعد أن غطت عينيها لحظاتٍ بيديها، جففتهما، وغسلتهما بالماء المنعش، وأمسكت بذراع الطالب: "هيا بنا".

لم يكن راستنياك قد أحس من قبل بشعور مشبوب كهذا الشعور الذي أحسه أمام هذا الألم النبيل. وعندما عادا إلى الحفل، قام يوچين بجولة في المكان مع السيدة دو بوزيان؛ الظهور الأخير الرهيف لهذه المرأة الرائعة. سرعان ما لاحظ الأختين: السيدة دو روستو والسيدة دو نوسنجن. كانت الكونتيسة رائعة بمجوهراتها الماسية، الحارقة- ولا شك- بالنسبة لها؛ فقد كانت تتزين بها لآخر مرة. منحها زهوها وحبها شيئًا من المقدرة، فلم تحتمل نظرات زوجها. ولم يكن العرض من طبيعة تخفف من حزن أفكار راستنياك، ولو قليلاً. رأى حينئذٍ تحت بريق

مجوهرات الأختين- السريرَ البائسَ الذي كان يتمدد عليه الأب جوريو. ضللت هيئته السوداوية الكونتيسة، فسحبت ذراعها.

- اذهب! لا أريد أن أحرمك من الاستمتاع! قالت.

سرعان ما استدعت دلفين يوچين، وهي سعيدة بالتأثير الذي كانت تحدثه، مصرَّةً على أن تضع تحت قدمي الطالب تلك التحايا التي تلقتها من ذلك العالم الذي تأمل أن تُعتمد فيه.

- كيف وجدت "نازي"؟ سألته.

- لقد حسمت كل شيء، قال راستنياك، حتى وفاة والدها.

حوالي الساعة الرابعة فجرًا، بدأ حشدُ الصالونات ينجلي. وسرعان ما أمست الموسيقا غير مسموعة. كانت الدوقة "دو لانجيه" وراستنياك وحيدين في الصالون الكبير. ظنت الكونتيسة أنْ لا أحد سوى الطالب، فجاءت إليه، بعد أن ذهبت وقالت "وداعًا" للسيد دو بوزيان الذي ذهب لينام، فأعاد على مسامعها: "إنكِ تخطئين يا عزيزتي، بانغلاقك هذا، وأنتِ في ريعان شبابك. ابقي معنا".

لكن السيدة دو بوزيان وقد رأت الدوقة، لم تستطع منع تعجبها.

- لقد خمنتُ ما ستفعلين، يا "كلارا"، قالت السيدة "دو لانجيه". سترحلين بلا عودة؛ لكنك لن ترحلي إلا بعد أن تسمعيني، وإلا بعد أن نكون قد تفاهمنا.

وأمسكت صديقتها من ذراعها، واقتادتها إلى الصالون المجاور، وهناك، وهي تنظر إليها والدمع في عينيها، ضمتها إلى صدرها، وقبلت خديها.

- لا أريد أن نفترق بفتور، يا عزيزتي، لأن الندم سيكون باهظًا.

يمكنك الاعتماد عليَّ مثلما على نفسك. لقد كنتِ عظيمة هذه الليلة، وشعرتُ بأني جديرة بك، وودِدت لو برهنت لك على ذلك. لقد ارتكبت في حقك بعض الأخطاء، فلم أكن معك دائمًا على ما يرام، فاغفري لي يا عزيزتي: إنني أتنصل من كل ما جرحك، وأود أن أسترجع أقوالي. إن ألمًا واحدًا قد وحدَ روحينا، ولا أدري أينا الأكثر تعاسة. لم يكن السيد "دو منتريڤو" موجودًا بالحفل هذا المساء، أتفهمين معنى ذلك؟ إن كل من رآكِ الليلة، خلال الحفل، يا "كلارا"، لن ينساكِ أبدًا. أما أنا، فسأبذل جهدًا أخيرًا. فإذا ما فشلت، فسألتحق بأحد الأديرة! فإلى أين أنتِ ذاهبة؟

ـ إلى "النورماندي"، إلى "كورسيل"، أحبُّ وأتعبدُ إلى يوم يأخذني الله من هذا العالم.

ـ تعال، يا سيد "راستنياك"، قالت الكونتيسة بنبرة منفعلة، وقد رأت أن ذلك الشاب ينتظر.

ركع الطالب على ركبتيه، وتناول يد ابنة عمومته وقبلها.

ـ وداعًا أنطوانيت، قالت السيدة دو بوزيان، أتمنى لكِ السعادة. أما بالنسبة لكَ، فأنت سعيد، أنت شاب، ويمكنك أن تجد ما تؤمن به، قالت للطالب. عند رحيلي عن هذا العالم، سيكون لديَّ ـ كبعض المحتضرين المحظوظين ـ مشاعر ورعة، ومخلصة تحيط بي!

انصرف راستنياك في نحو الساعة الخامسة، بعد أن رأى السيدة دو بوزيان في عربتها "البرلين" الخاصة بالسفر، وقد تلقى وداعها الأخير المبلل بالدموع، الذي يبرهن على أن الأشخاص ذوي التربية الرفيعة ليسوا خارج نطاق قوانين العاطفة، ولا يعيشون بلا أحزان، مثلما

يحاول المدَّعون أن يقنعوا الناس بذلك.

عاد يوچين ماشيًا إلى دار ڤوكيه في جو رطب بارد. كانت دراسته على وشك الانتهاء.

ـ لن ننقذ الأب جوريو المسكين، قال بيانشون لراستنياك عندما دخل عنده.

ـ يا صديقي، قال له يوچين وقد رأى العجوز نائمًا، فلتذهب لتستكمل المصير المتواضع الذي تقلص به من رغباتك. أما أنا، ففي الجحيم، وعليَّ ألا أبرحه. فلتصدق كل ما سمعته عن آلام العالم! وما مِن جوڤينال* يمكنه أن يرسم الفظائع المغطاة بالذهب والأحجار الكريمة.

أيقظ بيانشون راستنياك الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي، فرجاه، لأنه خارج، أن يلازم الأب جوريو الذي تتفاقم حالته منذ الصباح.

ـ لن يعيش الرجل الطيب يومين آخرين، بل ولا ست ساعات، قال طالب الطب، ومع ذلك فلن نكف عن مجابهة المرض. علينا أن نقدم عناية مكثفة ورعاية تامة، لكني لا أملك فلسًا واحدًا. وقد قلبتُ جيوبه، ونبشت في خزانته: النتيجة صفر. وقد سألته ذات لحظة أفاق فيها، فأخبرني أنه لا يملك ليرة واحدة؛ فهل معك أنت؟

ـ كل ما تبقى معي عشرون فرنكًا، أجاب راستنياك، لكني سأقامر بها، وسأكسب.

ـ وإذا خسرت؟

ـ سأطلب من صهريه وابنتيه.

ـ وإذا رفضوا إعطاءك؟ قال بيانشون، ليس الأكثر إلحاحًا الآن هو

---

* جوڤينال Juvénal: شاعر لاتيني، تمثل هجائياته نقدًا عنيفًا للأخلاقيات الفاسدة بروما.

الحصول على المال، بل أن نلف الرجلَ بضمادة ساخنة من قدميه وحتى منتصف فخذيه، فإذا صرخ، فسيكون ثمة أمل ما يزال. تعرف كيف يتم ذلك. وسيساعدك كريستوف. أما أنا، فسأذهب إلى الصيدلي لأستفسر عن الأدوية التي سنأخذها. من المؤسف أن الرجل الطيب لا يمكن نقله إلى مستشفانا، فهناك يمكن أن يكون أحسن. هيا! فلتبق معه، ولا تتركه إلا بعد أن أكون قد عدت.

دخلا معًا إلى الحجرة التي كان يرقد فيها العجوز. ارتعب يوچين لدى رؤية ذلك الوجه المتشنج، المبيَض، بالغ الوَهَن.

ـ لعلك بخير، يا أبي، قال وقد انحنى على سرير المريض.

رفع جوريو نحو يوچين عينين ذابلتين، وتطلع إليه باهتمام تام، دون أن يتعرف عليه. لم يتحمل الطالب هذا المشهد، وملأت عينيه الدموع.

ـ بيانشون، ألا يجب أن نغطي النوافذ بالستائر؟

ـ لا، فالظروف المناخية لم يعد لها تأثير عليه. ستكون حاله أفضلَ بكثير لو أحس بالحرارة أو حتى بالبرد. ومع ذلك، فنحن بحاجة إلى نار لإعداد مشروبات ساخنة وأشياء أخرى. سأرسل لك بعض المحار الذي سنستخدمه إلى أن نحصل على أخشاب. أمس والليلة الماضية، استهلكت كل ما كان لديك ولدى الرجل المسكين من أخشاب. كان الجو رطبًا، والماء يقطر من الجدران. بشق النفس قمت بتجفيف الحجرة. وقام كريستوف بكنسها، كانت زريبة. وقمت بإحراق العرعر لتبديد نتانتها.

ـ يا إلهي! قال راستنياك، وأين بناته؟

ـ انتبه، فإذا طلب أن يشرب أعطه هذا، قال الطالب وهو يُري راستنياك وعاءً كبيرًا أبيضَ. وإذا سمعته يشكو، وسخنت بطنه وتحجرت

فلتستعن بكريستوف للتصرف معه.. وأنت تعرف. وإذا ما حدث له- بالصدفة- اهتياج كبير، إذا ما أكثر من الكلام، إذا ما وصل إلى حد الهذيان، فدعه في حاله. فليس هذا نذير خطر. لكن أرسل كريستوف إلى مستشفى كوشان. وسيأتي طبيبنا، زميلي أو أنا، للقيام بعمليات كي له. لقد قمنا هذا الصباح، وأنت نائم، باستشارة كبيرة، شارك فيه أحد تلامذة الدكتور "جال" وأحد كبار أطباء "أوتيل ديو" وكبير أطبائنا. اعتقدَ هؤلاء السادة أنهم تعرفوا على أعراض عجيبة، وسنتتبع تطور الحالة المرضية لتسليط الأضواء على نقاط علمية هامة إلى حد كبير. وقد ادعى أحد هؤلاء السادة أن ضغط الدم إذا ما زاد على عضو أكثر من آخر، فإن نتائج معينة ستنجم عنه. فاستمع إليه جيدًا، إذن، إذا ما تكلم، لنعرف إلى أي نوع من الأفكار تنتمي كلماته: أهي من مفعول الذاكرة؟ أم الذكاء، لنتحقق مما إذا كانت تخص أمورًا مادية أم شعورية؛ أهو قادر على الحساب، أم يعود إلى الماضي؛ المهم أن تكون جاهزًا لإعداد تقرير دقيق. فمن الممكن أن يحدث الانتشار دفعةً واحدة، ويموت معتوهًا، كما هو الآن. كل شيءٍ غريبٌ جدًّا في هذا النوع من الأمراض! فإذا ما انفجرت القنبلة هنا، قال بيانشون وهو يشير إلى مؤخرة رأس المريض، فستكون لدينا نماذج لظواهر عجيبة: فالدماغ ستستعيد بعض قدراتها، ويكون الموت أبطأ في تجلياته. وقد تتحول السوائل عن الدماغ إلى مسارات لا نعرفها إلا بتشريح الجثة. في مستشفى الأمراض المستعصية، ثمة عجوز أبله، حدث لديه التدفق في عموده الفقري؛ يعاني بصورة مريعة، لكنه يعيش.

- هل استمتعا بوقتهما؟ قال الأب جوريو الذي تعرف على يوجين.

ـ حسنًا! إنه لا يفكر إلا بابنتيه، قال بيانشون، لقد قال لي الليلة الفائتة أكثر من ألف مرة: "إنهما ترقصان! ولديها فستانها". كان يذكرهما بالاسم. لقد جعلني أبكي، فليأخذني الشيطان! مع نبرات صوته: "دلفين! صغيرتي دلفين! نازي!". بشرفي، قال طالب الطب، كان ذلك يدفع المرء للانفجار في البكاء.

ـ دلفين، قال العجوز، إنها موجودة هنا، أليس كذلك؟ أنا أعرفها جيدا، وأشرقت عيناه بنشاط مجنون وهو ينظر إلى الجدران والباب.

ـ سأنزل لأطلب من سيلفي أن تجهز الكمادات، صاح بيانشون، فالوقت ملائم الآن.

بقي راستنياك وحيدًا إلى جوار العجوز، جالسًا في طرف السرير، مركزًا عينيه على هذه الرأس التي تبعث رؤيتها الرعب، والألم.

ـ السيدة دو بوزيان تهرب، وهذا يموت، قال، النفوس الجميلة لا تستطيع أن تبقى طويلاً في هذا العالم. فكيف للعواطف النبيلة أن تتوافق- في الواقع- مع مجتمع دنيء وقميء وسطحي؟

راحت صور الحفل الذي حضره تتالى على مخيلته، وتتناقض مع مشهد سرير هذا الميت. ظهر بيانشون فجأة.

ـ قُل لي، يا يوجين، لقد رأيتُ لتوي كبيرَ أطبائنا، وجئتك أجري. إذا ما أبدى أعراض الإدراك، إذا ما تكلم، فلتمدده على لصقة خردل بحيث يلتف بالخردل من رقبته حتى أسفل ظهره، وقم باستدعائنا.

ـ عزيزي بيانشون، قال يوجين.

ـ حسنًا! تلك حقيقة علمية، قال طالب الطب بحماس المبتدئين.

ـ هيًا، سأكون الوحيد الذي يعالج بالمودَّةِ مثلَ هذا العجوز المسكين.

ـ لو أنك شاهدتني صباح اليوم، ما قلت ذلك، قال بيانشون دون غضب من كلامه. الأطباء الذين فحصوه لم يروا فيه سوى المرض؛ أما أنا، فإنني أرى أيضًا المريض يا صغيري العزيز.

ومضى تاركا يوچين وحيدًا مع العجوز، متخوفًا من أزمة شرعت بوادرها في الظهور.

ـ آه! هو أنت، يا بني العزيز، قال الأب جوريو متعرفًا على يوچين.

ـ أأنت الآن على ما يرام؟ سأله الطالب، وهو يتناول يده.

ـ نعم، رأسي مقبوضة كأنما بين فكين من حديد، لكنها تنفلت. هل شاهدت ابنتيَّ؟ سرعان ما ستأتيان، ستهرعان إليَّ ما إن تعلما أنني مريض؛ يا طالما اعتنتا بي في شارع "چوسيان"! يا إلهي! لكم أود لو كانت حجرتي نظيفة صالحة لاستقبالهما! وثمة شاب أحرقَ كلَّ خشب التدفئة الذي كان عندي!

ـ أسمع صوت كريستوف، قال له يوچين، ها هو يحمل إليك الخشب الذي أرسله لك ذلك الشاب.

ـ حسنًا، ولكن من أين لي بثمنه؟ أنا لا أحتكم على فلس واحد، يا بني. لقد أعطيتُ كل شيء، كل شيء. وأنا طالب إحسان! قل لي، أكان الفستان المذهب رائعًا، على الأقل؟ (آه! إنني أعاني!) شكرًا، كريستوف. وليكافئك الرب، يا بني! فأنا لم أعد أمتلك شيئًا.

ـ أنا الذي سأدفع لك أنت وسيلڤي، همس يوچين في أذن الغلام.

ـ قالت ابنتاي لك إنهما ستأتيان، أليس كذلك يا كريستوف؟ اذهب ثانيةً وسأعطيك مئة فلس. قل لهما إنني لستُ بخير، وإنني أود معانقتهما، ورؤيتهما مرةً أخرى قبل أن أموت. قل لهما ذلك، ولكن

بطريقة لا تفزعهما.

خرج كريستوف بعد غمزةٍ من عين راستنياك.

ـ طبعًا، ستأتيان، قال العجوز. أنا أعرفهما. هذه "الدلفين" الطيبة، كم سأتسبب لها من ألم، إن مت. و"نازي" أيضًا؟ إنني لا أريد أن أموت، كيلا تبكيان. أن أموت، يا يوچين الطيب، معناه أن أتوقف عن رؤيتهما. وهناك حيث سأمضي، سأسأم تمامًا. فالجحيم ـ بالنسبة لأي أب ـ هو ألا يكون له أطفال، وقد تدربت على ذلك منذ زواجهما. فردوسي كان شارع چوسيان. قُل لي إذن، إذا ما ذهبتُ إلى الفردوس، فيمكن لروحي العودة إلى الأرض وأكون بقربهما. لقد سمعتُ مَن يقول ذلك. أذلك حقيقي؟ أظن أنني سأراهما في تلك اللحظة مثلما كان يحدث في شارع چوسيان. كانتا تنزلان كل صباح: "صباح الخير، يا أبي". فأحملهما على ركبتيَّ. أدللهما ألف تدليل ومزحة. كانتا تداعبانني برقة. نفطر معًا كل صباح، ونتعشى، وفي النهاية كنت أبًا أتمتع بابنتيَّ. عندما كنا في شارع چوسيان، لم تكونا تعقلان ولا تفهمان شيئًا عن العالم، وتحبانني حبًّا عظيمًا. يا إلهي! لماذا لم تظلا طفلتين على الدوام؟ (إنني أتعذب، ورأسي تمزقني) آه! آه! آسفٌ يا أطفالي. إنني أتعذب بفظاعة. هكذا لابد أن يكون الألمُ الحقيقي، وقد جعلتموني قويًّا تمامًا في مواجهة الألم. يا إلهي! لو أن أيديهما كانت في يدَيَّ، لما أحسستُ أبدًا بألمي. هل تظنون أنهما ستأتيتان؟ كريستوف غبيٌّ جدًّا! كان عليَّ أن أذهب إليهما بنفسي. سيذهب هو ليراهما. لكنك كنت بالأمس في الحفل. أخبرني إذن كيف كانتا. لم تعلما أي شيء عن مرضي، أليس كذلك؟ لو علمتا ما رقصتا، المسكينتان الصغيرتان! آه! لم أعد أريد أن أبقى مريضًا. فما تزالان بحاجة

ماسة لي. ثرواتهما في مهب الريح. وإلى أي زوجين أسلمتهما! اشفوني، اشفوني! (آه! كم أتعذب! آه! آه!) أترون، عليكم بشفائي لأنهما محتاجتان للنقود، وأنا أعرف من أين أحصل على النقود. سأذهب لأصنع النشا في أوكرانيا. إنني داهية، وسأجني الملايين. (أوه! كم أتعذب!).

لزم جوريو الصمت للحظات، وكأنما يستجمع قواه لمقاومة الألم.

ـ لو كانتا هنا، لما كنت أتألم، قال. فلماذا أتألم إذن؟

حلت عليه غفوة خفيفة، واستمرت طويلاً.

عاد كريستوف. وترك يوچين ـ الذي كان يظن أن الأب جوريو نائمًا ـ الصبي يحكي عن مهمته بصوت عال:

ـ سيدي! ذهبتُ أولا إلى السيدة الكونتيسة، وكان مستحيلاً الحديث معها؛ لأنها منشغلة بأعمال كثيرة مع زوجها. ولأنني أصررت، جاء السيد دو روستو بنفسه، وقال لي ما معناه: "السيد جوريو يموت، إذن! هذا أفضل ما بإمكانه أن يفعل. إنني محتاج للسيدة دو روستو لإنهاء أعمال مهمة، وستذهب عندما يكون كل شيء قد أنجز". كانت عليه سيماء الغضب، ذلك السيد. وهممت بالخروج، عندما دخلت السيدة الغرفة الملحقة، من باب لم أره، وقالت لي: "كريستوف، أخبر أبي أنني في نقاش مع زوجي، وليس بمقدوري تركه؛ إنها مسألة حياة أو موت لأطفالي؛ ولكن بمجرد الانتهاء سأذهب إليه". أما بالنسبة للسيدة البارونة فالقصة مختلفة! لم أرها، ولم أتمكن من مخاطبتها. وصيفتها قالت لي إن "السيدة قد عادت من الحفل الساعة الخامسة والربع، وهي نائمة، ولو أيقظتها قبل الظهر، فستزجر في وجهي. وعندما ترن الجرس، سأخبرها بأن والدها تسوء حالته. فثمة وقت دائمًا لإبلاغ الخبر السيء". كان لديَّ

رجاء أخيرٌ! طلبتُ مقابلة السيد البارون، لكنه كان قد غادر القصر.

ـ ولا واحدة من ابنتيه ستحضر! صاح راستنياك. سأكتب إليهما.

ـ ولا واحدة، رد العجوز، وهو يعتدل على مقعدته. لديهما مشاغل، نائمتان، ولن تأتيا. كنت أعلم ذلك. على المرء أن يموت حتى يعلم ماهية الأبناء. آه! يا صديقي، لا تتزوج، ولا تنجب! فأنت تعطيهم الحياة وهم يعطونك الموت. أنت تدخلهم إلى العالم وهم ينزعونك منه. لا! لن تأتيا! أعلم هذا منذ عشرة أعوام. وحدثتُ به نفسي أحيانًا، وإن لم أجرؤ على تصديقه. (انحدرت دمعة من كل عين على الجفن المحمَر دون أن تجرؤ على السقوط). آه! لو كنت ثريًا، لو احتفظت بثروتي فلم أعطها لهما، لكانتا الآن هنا، تلعقان خديَّ بقبلاتهما، ولأقمتُ في فندق، ولكانت لي غرف جميلة، وخدم، وتدفئني المدافئ؛ ولكانوا جميعًا منخرطين في البكاء، هما وزوجاهما وأطفالهم. كان لكل هذا أن يكون لي. ولكن لا شيء. فالمال يمنحك كل شيء، حتى البنات. أوه! يا أموالي، أين أنت؟ لو أنني قد تبقت لي كنوز، لجاءتا إلي تمرِّضانني وترعيانني؛ ولكنت سمعت صوتهما ورأيتهما. آه! يا بنيَّ العزيز، يا بُنيَّ الوحيد! هأنذا أفضلُ عزلتي وبؤسي! على الأقل؛ لأن البائس حين يحَب، فإنه يكون متأكدًا من الحب. لا، وددت لو كنت غنيًّا، لأراهما. يا إلهي، مَن يدري؟ فإن لهما كلتيهما قلبًا من حجر. وإنني لأُكنُّ لهما من الحب فوق ما يكنان لي بكثير. على الأب أن يظل غنيًّا دائمًا، وأن يشد الأولاد إليه بإحكام كأحصنة حرون. وكنت أركع على ركبتيَّ أمامهما. المسكينتان! تتوجان كما ينبغي سلوكهما تجاهي منذ عشرة أعوام. لو عرفت كم كانتا تعتنيان بكل صغيرة من أمري في بدايات زواجهما! (آه! يا له من ألم مبرح قاتل!)

كنت قد أعطيت كلاً منهما نحو ثمانمئة ألف فرنك؛ فلم تقدرا- ولا أيضًا زوجاهما- أن يكونوا خشنين معي. وكان يتم استقبالي بـ"والدي، مِن هنا؛ يا أبي العزيز، مِن هناك.." مُقامي كان دومًا لديهما. في النهاية، كنت أتعشى مع زوجيهما اللذين كانا يحترمانني. كانت لي سيماء مَن لا يزال يملك شيئًا ما. ولِم ذلك؟ لم أكن أتحدث أبدًا عن أعمالي. والرجل الذي يعطي ثمانمئة ألف فرنك لكل من ابنتيه هو رجل يستحق المراعاة. كان ثمة اعتناء بكل صغيرة، لكن ذلك لم يكن إلا من أجل أموالي. العالم ليس جميلاً. رأيت ذلك، بنفسي! كانوا يأخذونني إلى العروض، وأبقى كيفما أشاء في السهرات. كانتا تعرفانني بأني أبوهما، وتدعوان أنفسهما ابنتيَّ. ما تزال لديَّ دقتي، حسنًا، ولا شيء يفلت مني. مضى كل شيء نحو هدفه، واخترق قلبي. كنت أرى جيدًا أن ذلك أحابيل، لكن الشر كان بلا علاج. لم أكن لديهم على راحتي، مثلما أكون إلى المائدة في الأسفل. لم أكن أدري ماذا أقول. وعندما كان أحد سادة ذلك العالم يهمس في أذن زوج ابنتي: "من ذلك السيد؟" كان الرد يجيء: "إنه أبو الريالات! هو ثري". آه! يا للشيطان! كانوا ينظرون إليَّ بالاحترام الذي يرجع إلى المال. وكنت إذا ما سببتُ لهم أحيانًا بعض الضيق كنت أُكفِّر تمامًا عن خطئي! ومع ذلك، فمَن هو الشخص الكامل؟ (رأسي جُرح!) إنني أتعذب الآن كأنه العذاب الذي يفضي إلى الموت، يا سيد يوجين العزيز؛ آه، حسنًا! ذلك لا يقارن بالألم الذي سببته لي النظرة الأولى التي أفهمتني بها أنستازي أنني ارتكبت حماقة أهانتها: فتحت نظرتُها جميع شراييني. كنت دائمًا أريد أن أعرف كل شيء، ولكن ما أعرفه جيدًا هو أنني كنت عبئًا على الحياة. في اليوم التالي ذهبتُ إلى دلفين لتخفف ألمي، فإذا بي أرتكب حماقة أخرى

تغضبهما. أصبحت كالمجنون. مرت عليَّ ثمانية أيام دون أن أدري ما أفعل. لم أتجرأ على الذهاب لرؤيتهما، خشيةً من تقريعهما لي. وهأنذا على باب ابنتيَّ. يا إلهي! بما أنك تعلم ما أعاني من بؤس وشقاء؛ وبما أنك أحصيت ما تلقيتُ من ضربات في ذلك الزمن الذي شيَّبني، وبدلني، وقتلني، وأشاخني، فلماذا تعاقبني الآن إذن؟ لقد كفرتُ عن خطيئة حبي المفرط لهما. وقد انتقمتا تمامًا من عاطفتي، وعذبتاني كجلادين. آه، حسنًا! ما أحمق الآباء! لقد كنت أحبهما إلى حد العودة إليهما، كمقامر يعود إلى المقامرة. ابنتاي، كان عيبي أنهما كانتا سيدتَيْ، في النهاية! كانتا دائمًا في حاجة إلى شيءٍ ما، مجوهرات؛ أخبرتني وصيفتاهما بذلك، ومنحتهما لتحسنا استقبالي. لكنهما رغم ذلك كانتا تعطيانني دروسًا صغيرة حول طريقتي في التصرف في العالم الباريسي. أوه! ولم تنتظرا اليوم التالي. وبدأتا في الاكفهرار مني. تلك هي التربية الجيدة للأطفال. وفي سني، لم أكن لأستطيع مع ذلك الذهاب إلى المدرسة (يا إلهي! إنني أتعذب عذابًا مريعًا. الأطباء! الأطباء! لو فتحوا رأسي فسيخف عذابي). ابنتاي، ابنتاي، دلفين، أنستازي! أريد أن أراهما. أرسلوا لإحضارهما، بالدرك، بالقوة! القانون في صفي، كل شيء معي، الطبيعة والقانون المدني. أحتج! ستهلك البلاد إذا ما ديس الآباء بالأقدام. هذا مؤكد. فالمجتمع، والعالم يقوم على الأبوة، وكل شيء ينهار إن لم يحب الأطفال آباءهم. أوه! أراهما، أسمعهما، لا يهم ما الذي ستقولان لي، من أجل أن أسمع صوتهما؛ فذلك سيخفف آلامي، خصوصًا دلفين. لكن، قل لهما، حين تجيئان، ألاَّ تنظرا إليَّ ببرود كما تفعلان. آه! يا صديقي الطيب، يا سيد يوچين، أنت لا تعرف معنى أن

تجد ذهب النظرات وقد تحول فجأةً إلى رصاص رمادي. فمنذ أن كفت عيونهما عن الإشعاع عليَّ، والسنة كلها عندي شتاء قارس؛ ولم يعد لي ما أقتات عليه سوى الأحزان، وقد عشتُ عليها! لقد عشت حياتي لأُذل وأهان. إنني أحبهما إلى حد أنني ابتلعت كل المهانات التي باعتا لي بها مُتعة صغيرة بائسة مُذلة. أبٌ يتخفى ليتمكن من رؤية ابنتيه! أنا الذي وهبتهما حياتي، لا تمنحاني الآن ساعة زمن! عطشان، جائع، قلبي يحترق، ولن تأتيا لترطبا حَرَّ احتضاري، لأنني أموت، أحس بذلك. لكنهما لا تدركان معنى المشي على جثة الأب! هناك إلهٌ في السماء، ينتقم لنا، شئنا أم أبينا، نحن الآباءَ الآخرين. أوه! إنهما آتيتان! تعاليا! أقبلا يا عزيزتَيَّ، قبلاني مرةً أخرى، قبلة أخيرة زاد أبيكما المسافر، الذي سيدعو الله لكما، الذي سيقول له إنكما كنتما فتاتين طيبتين، وسيتشفع لكما! فأنتما قبل كل شيء بريئتان. بريئتان، يا صديقي! قُل ذلك للعالم كله، فلا يزعجهما أحدٌ بسببي. هو خطئي، لأني أنا الذي عودتهما على أن تدوساني بالأقدام. كنت أحب ذلك، أنا نفسي. وهو ما لا يعني أحدًا، لا العدالة البشرية، ولا العدالة الربانية. سيكون الرب ظالمًا فيما لو عاقبهما بسببي. لم أعرف كيف أتصرف، وارتكبت حماقة التخلي عن حقوقي. لقد ذللتُ نفسي من أجلهما! فماذا تريدون! فالطبيعي الأكثر جمالا، والنفوس الرفيعة كان لها أن تستسلم لفساد ذلك التساهل الأبوي. إنني بائسٌ، وقد عوقبت بعدل. فأنا وحدي من تسبب في فوضى ابنتَيَّ، لأنني دللتهما. فهما اليوم تنشدان المتعة، كما كانتا في الماضي ترغبان في الحلوى. ودائمًا ما كنت أعدهما بأن ألبي نزواتهما كفتاتين. في الخامسة عشرة صارت لديهما السيارة! لم يقف في طريقهما

عائق. أنا وحدي المذنب، لكني المذنب بفعل الحب. كان صوتهما يفتح قلبي. أسمعهما، فهما قادمتان. آه! أجل، ستجيئان. فالقانون ذاته يقضي بأن تأتيا لرؤية أبيهما المحتضر، القانون في صفي. ثم إن هذا لن يكلف سوى مشوار. سأتوسل إليهما. اكتبوا إليهما أن لديَّ الملايين سأتركها لهما! كلمة شرف. سأصنع المكرونة الإيطالية في أوديسا. أعرف الطريقة. وفي خطتي ما يجلب الملايين. لم يفكر أحدٌ في ذلك. ولن يفسد ذلك في النقل كما يحدث مع القمح أو الدقيق. إيه! إيه! والنشا؟ ستكون هناك الملايين! لن تكذبوا، قولوا لهما عن الملايين، وحتى إذا ما جاءتا بفعل الطمع، فإنني أفضل أن أُخدَع، وسأراهما. أريد ابنتيَّ. لقد صنعتهما! وهما لي!

قال ذلك، وهو يجلس في سريره، ويكشف ليوچين رأسه الشعثاء بالشعر الأبيض، التي كانت تهدد بكل ما يمكنه التعبير عن التهديد.

ـ هيا، قال له يوچين، عُد إلى استلقائك، يا أبي الطيب جوريو، سأكتب إليهما. وما إن يرجع بيانشون، فسأذهب بنفسي إن لم تأتيا.

ـ إن لم تأتيا؟ كرر العجوز وهو ينوح. لكنني سأكون قد مت، مت في نوبة غضب، غضب! الغضب يستبد بي! في هذه اللحظة، أرى حياتي كلها. إنني مغفل! وهما لم تحباني، لم تحباني قَط! ذلك واضح. وبما أنهما لم تأتيا، فلن تأتيا. وبقدر ما ستتأخران بقدر ما سيقل عزمهما على منحي هذه البهجة. أنا أدرَى بهما. إنهما لم تعرفا أبدًا تخمين شيء عن أحزاني أو عذاباتي أو احتياجاتي، ولن تخمنا موتي، ولا تدريان سر حناني عليهما. نعم، أراه، إنه عادة أن أفتح قلبي لهما لانتزاع ثمن كل ما كنت أفعل. ولو كانتا قد طلبتا فقء عينيَّ، لقلت لهما: "افقآهما!" إنني بالغ الحماقة. وهما

تعتقدان أن كل الآباء على شاكلة أبيهما. لابد دائمًا أن يحفظ المرء قيمته. أطفالهما سينتقمون لي. ولكن من مصلحتهما أن تأتيا إلى هنا. أبلغهما أنهما تشوهان ألمهما. إنهما ترتكبان جميع المعاصي دفعةً واحدة. لكن اذهب، إذن، وأخبرهما أن عدم مجيئهما إنما هو نوع من "قتل الأب". لقد ارتكباه طويلاً دون احتساب هذه المرة. فلتصرخ إذن مثلي: "أنت! نازي! أنت! دلفين! تعاليا إلى أبيكما الذي كان طيبًا معكما، والذي يتعذب". لا شيء، لا أحد. فهل سأموت إذن كالكلب؟ تلك مكافأتي: الهجران. هما حقيرتان، شريرتان؛ ألعنهما وأمقتهما، وسأنهض في الليل من نعشي لأعيد صب اللعنة عليهما، لأن الأمرَ- في النهاية- يا أصدقائي: أأنا غلطان؟ إنهما تسلكان السلوك المشين! هه؟ ماذا أقول؟ ألم تخبروني بأن دلفين هنا؟ إنها أفضل الاثنتين. وأنت- يا يوچين- أنت ابني! أحببها! كن لها أبًا. أما الأخرى ففي غاية التعاسة. وثرواتهما! آه، يا رب! إنني أحتضر، وأتعذب فوق الاحتمال! فاقطعوا رأسي، واتركوا لي قلبي فقط.

- كريستوف، اذهب وابحث عن بيانشون، صاح يوچين مرتعبًا من النبرة التي كانت تمزج بين الشكوى وصيحات العجوز، اذهب وأحضر لي عربة كبريوليه.

- سأذهب لإحضار ابنتيك، يا أب جوريو، يا طيب. سآتيك بهما.

- بالقوة، بالقوة! اطلب حراسة، خط النار، كله! كله، قال وهو يلقي على يوچين آخر نظرة يشرق فيها العقل، أبلغ الحكومة والمدعي العام أن يأتوني بهما، هذا ما أريده.

- ولكنك لعنتهما!

- مَن قال ذلك؟ أجاب العجوز مشدوهًا، أنت تعلم جيدًا أنني

أحبهما، أتولّهُ بحبهما، وأشفَى تمامًا إذا ما رأيتهما.. هيا، يا جاري الطيب، يا بني الغالي، أنت لطيف، وأود أن أشكرك؛ لكني لا أملك ما أعطيك إياه سوى بركات المحتضر. آه! أرجو أن أرى دلفين- على الأقل- لأطلب منها أن توفي دَيني لك. وإن لم تتمكن الأخرى، فلتأتِ بدلفين لي. قل لها إنك لن تحبها إن لم تأتِ. وهي تحبك وستجيء. اسقوني، أحشائي تحترق! ضعوا لي شيئًا على رأسي. يد ابنتي، هو ما ينقذني، أحس بذلك. يا إلهي! من سيعيد مدهما بالمال إذا ما ذهبت أنا؟ أتمنى أن أذهب إلى أوديسا من أجلهما، إلى أوديسا! لأصنع هناك المكرونة.

- اشرب هذا، قال يوچين وهو يرفع المحتضر، بذراعه اليسرى، فيما يمسك بيمناه كوبًا مليئًا بالمشروب.

- عليك أن تحب أباك وأمك! قال العجوز وهو يحتضن بيديه الخائرتين يد يوچين. هل تدري أنني أموت دون أن أراهما، ابنتَي؟ أن تكون ظامئًا أبدًا، ولا تشرب أبدًا؛ تلك هي الكيفية التي عشتُ بها منذ عشر سنوات.. صهراي قتلا ابنتَي. نعم، لم تعد لديَّ ابنتان منذ زواجهما. وعلى الآباء أن يخاطبوا المجلس التشريعي لإصدار قانون ضد الزواج! فلا تزوج بناتك إن كنت تحبهن. فالصِّهر خسيسٌ يفسد كل شيء لدى الفتاة، ويدنس كل شيء. لا زواج! إنه ما يسرق منا بناتنا، ولا نجدهن عندما نموت. فلتسنُّوا قانونًا عن موت الآباء. ذلك مريع! الانتقام! إنهما صهراي مَن يمنعانهما من المجيء. اقتلوهما! الموت لروستو، الموت للألزاسي، فهما قاتلاي! الموت أو ابنتاي! آه! قُضي الأمر، فأموت بدونهما! هما! نازي، فيفين، هيا، تعاليا إذن! فأبوكما يخرج..

- أبي الطيب جوريو، فلتهدأ، وسنرى، ابق هادئًا، بلا حراك، ولا

تفكير.

ـ ولا أراهما؟ ذلك هو العذاب.

ـ ستذهب لرؤيتهما.

ـ حقًّا؟ صاح العجوز وهو زائغ البصر، أوه! أراهما! سأراهما وأسمع صوتهما. وسأموت سعيدًا. حسنًا! حقًّا! لن أطلب العيش بعد هذا، ولن أتمسك به من بعد، الآلام تتزايد. لكن رؤيتهما، لمس فساتينهما، آه! ليس سوى فستانيهما، ذلك قليل؛ لكن يكفي أن أحس بشيء يخصهما! اسمحوا لي أن ألمس شعرهما، أريد....

سقطت رأسه على الوسادة كمن تلقي ضربة هراوة. اختلجت يده على ملاءة السرير، كأنما ليتحسس شعر ابنتيه.

ـ أباركهما، قال بعناء، أُبارك.

تهاوى فجأة، في لحظة دخول بيانشون.

ـ لقد قابلت كريستوف، قال، سيجيء لك بسيارة. ثم نظر إلى المريض، وفتح جفنيه، ورأى الطالبان عينًا كامدة بلا حرارة. ـ لن يعود منها، قال بيانشون، لا أظن. جس نبضه، ووضع يده على قلبه.

ـ الماكينة تدور، لكن في حالته ـ لسوء الحظ ـ يكون الموت أفضل له!

ـ في الواقع، نعم، قال راستنياك.

ـ ماذا بك، إذن؟ فأنت شاحب كالموتى.

ـ يا صديقي، كم سمعتُ من صراخ وشكوى. الرب موجود! أوه! حقًّا! الرب موجود، وخلق لنا عالمًا أفضل، وإلا فدنيانا هراء. ولو لم يكن ثمة مأساوية لذرفت الدموع، لكني أشعر بانقباض فظيع في قلبي وأحشائي.

ـ قُل إذن، سنحتاج أشياء كثيرة، فكيف سندبر ثمنها؟

سحب راستنياك ساعته.

ـ خذ هذه، وارهنها بسرعة. لا أريد التوقف في الطريق، كيلا نضيع دقيقة واحدة، وأنا أنتظر كريستوف. ليس معي ولا ليرة، وعليَّ أن أدفع أجرة السائق عند العودة.

أسرع راستنياك على السُّلَّم، متوجهًا إلى شارع "هيلدر" قاصدًا السيدة دو رستو. أثناء الرحلة اهتاج سخطه بفعل خياله الذي ضربه المشهد المرعب الذي شهده. وعندما وصل إلى الحجرة الملحقة، وطلب السيدة دو روستو أجيب بأن رؤيتها غير مسموح بها.

ـ ولكني، قال لخادمها، قادم من طرف والدها الذي يحتضر.

ـ سيدي، لدينا أوامر صارمة من السيد الكونت.

ـ إذا كان السيد دو روستو موجودًا، فأخبره بالظروف التي يمر بها والد زوجته، وأنني بحاجة إلى التحدث معه حالاً.

انتظر يوجين فترة طويلة.

ـ ربما يموت الآن، في هذه اللحظة، فكر.

أوصله الخادم إلى الصالون الأول، حيث استقبله السيد دو روستو واقفًا، أمام مدفأة بلا نيران، دون أن يدعوه للجلوس.

ـ سيدي الكونت، قال له راستنياك، والد زوجتك ـ يا سيدي ـ يموت الآن في مكان أشبه بالماخور الحقير، وليس بحوزته ليرة واحدة لشراء خشب التدفئة. إنه مقضي عليه لا محالة، ويطلب رؤية ابنتيه.

ـ سيدي، رد الكونت دو روستو ببرود، لعلك لاحظت أني أحمل أقل القليل من المودة تجاه السيد جوريو. إن شخصيته مشوشة فيما يتعلق

بالسيدة دو روستو وأتعس حياتي، لذا أرى فيه عدو راحتي. وسواء مات أو بقي حيًّا، فالأمر لا يعنيني بأية حال. تلك مشاعري تجاهه. قد يلومني الناس، لكني أحتقر رأيهم. وعندي الآن من الأمور الهامة ما يشغلني أكثر عما يدور من أفكار في أدمغة الحمقى والمثرثرين. أما السيدة "دو روستو"، فهي ليست مستعدة للخروج. فضلاً عن ذلك، فأنا لا أريد أن تترك منزلها. فقل لوالدها إنها بمجرد أن تنتهي من واجباتها تجاهي، وتجاه أطفالها، فإنها ستذهب لتراه. وإذا ما كانت تحب والدها، فيمكنها أن تكون حرة خلال لحظات.

ـ سيدي الكونت، ليس لي أن أحكم على سلوكك، فأنت سيد زوجتك؛ لكن هل بإمكاني التعويل على إخلاصك؟ حسنًا! عدني فقط بأن تبلغها بأن والدها لن يعيش أربعًا وعشرين ساعة، وأنه قام بلعنها بالفعل إن لم يجدها إلى جوار سريره.

ـ قل لها أنت بنفسك، أجاب السيد دو روستو وقد أدهشته مشاعر السخط في لهجة يوچين.

دخل راستنياك ـ يقوده الكونت ـ إلى الصالون، الذي عادةً ما توجد به الكونتيسة: وجدها غارقة في دموعها، مدفونة في كرسيها، كامرأة ترجو الموت. أثارت شفقته. وقبل أن تنظر إلى راستنياك، ألقت على زوجها نظراتٍ خائفة تؤكد انبطاحًا تامًّا لقواها المنسحقة جراء إرهاب مادي ومعنوي. هز الكونت رأسه، فتشجعت للكلام.

ـ سيدي، لقد سمعتُ كل ما قيل. أخبرْ والدي أنه إذا ما عرف الموقف الذي أمر به، فسيسامحني. إنني لم أتوقع أبدًا هذا العذاب، فهو يفوق احتمالي، لكنني سأصمد حتى النهاية، قالت لزوجها. إنني أم. قل

لأبي إنني غير ملومة تجاهه، رغم ظاهر الأمر، صاحت للطالب بيأس.

حيا يوچين الزوجين، وهو يخمن الأزمة الرهيبة التي تعانيها المرأة، وانسحب مذهولاً. كانت لهجة السيد دو روستو قد أظهرت له عدم جدوى نهجه، وفهم أن أنستازي لم تعد حرة. سارع إلى السيدة دو نوسنجن فوجدها في سريرها.

- إنني أعاني، أيها الصديق المسكين، قالت له. أصابتني نزلة برد، لدى خروجي من الحفل، وأخشى أن يكون ذلك التهاب الرئتين، وأنتظر الطبيب..

- حتى لو كان الموت على بابك، قاطعها يوچين، فعليك أن تكوني الآن إلى جوار والدك. إنه يناديكِ! ولو سمعتِ أوهى صيحاته، لما شعرتِ بالمرض.

- يوچين، قد لا يكون أبي بهذه الدرجة من المرض التي تقولها. لكن اليأس سينتابني إذا ما ارتكبتُ أدنى خطأ في نظرك، وسأذهب أينما تريد. أما هو، فأنا أعرفه، فسيموت من الغم إذا تفاقم مرضي نتيجة لخروجي هذا. حسنًا! سأخرج حالما يأتي الطبيب. آه! لماذا لا أرى ساعتك معك؟ قالت عندما لم تلمح سلسلتها.

احمر وجه يوچين.

- يوچين! إذا ما كنت قد بعتها، أو أضعتها.. أوه! سيكون هذا سيئًا.

انحنى الطالب على سرير دلفين ووشوشها في أذنها:

- أتريدين معرفة السبب؟ حسنًا! فلتعرفيه! لم يكن مع والدك مالٌ لشراء الكفن الذي سيُلف به مساء اليوم. ساعتك مرهونة، لم يبق لديَّ شيء.

قفزت دلفين فجأةً من سريرها، هرعت إلى مكتبها، أخذت كيس نقودها، وسلمته لراستنياك. رنت الجرس، وصاحت: سأذهب يا يوچين، دعني أبدل ثيابي. كنت سأكون مسخًا. هيا، سأصل قبلك! تيريز، نادت على وصيفتها، أبلغي السيد دو نوسنجن أن يصعد ليحدثني حالاً.

وصل يوچين إلى شارع "نيف-سانت-جانڤياف" مبتهجًا تقريبًا، سعيدًا لأنه سيخبر المحتضر أن إحدى ابنتيه ستأتي.

فتش كيس النقود ليدفع أجرة السائق. كان كيس هذه السيدة الشابة، بالغة الثراء، بالغة الأناقة، لا يحتوي إلا على سبعين فرنكًا. وإذ صعد إلى أعلى السلم، وجد الأب جوريو في رعاية بيانشون فيما جرَّاح المستشفى يجهزه للعملية تحت بصر الطبيب. كانوا يكوون ظهره، كآخر علاج في جعبة العلم، علاج بلا جدوى.

- هل تشعر بالكي؟ سأل الطبيب.

ما إن لمح الأب جوريو الطالب، وهو يدخل، حتى أجاب: هما آتيتان، أليس كذلك؟

- من الممكن أن يضيع، قال الجراح. إنه يتكلم.

- أجل، أجاب يوچين، دلفين آتية ورائي.

- هيا، قال بيانشون، كان يتحدث عن ابنتيه، يصرخ من أجلهما كما يصرخ رجل أجلسوه على الخازوق، كما يقال، طلبًا للماء.

- كفى، قال الطبيب للجراح، لم يعد لدينا ما نفعله، فلن ينجو.

مدد بيانشون والجراح المحتضر على سريره النتن.

- علينا مع ذلك أن نغير الملاءة أيضًا، قال الطبيب. وما دام ليس ثمة

أمل، فلابد من احترام الطبيعة البشرية فيه. سأعود، يا بيانشون، قال للطالب. وإذا ما عاود الشكوى، فضع له الأفيون فوق الحجاب الحاجز.

خرج الجراح والطبيب.

ـ هيا، يا يوچين، تشجع يا بنيَّ! قال بيانشون لراستنياك عندما صارا وحدهما، علينا أن نلبسه قميصًا أبيض، ونغير مفروشات السرير. اذهب، وقل لسيلڤي أن تحضر ملاءةً وتأتي لتساعدنا.

نزل يوچين فوجد السيدة ڤوكيه مشغولة في رص أدوات المائدة مع سيلڤي. ولدى أول كلمة نطق بها راستنياك، أتت إليه الأرملة بسيماء متملقة بحدة لتاجرة مرتابة لا تريد أن تخسر أموالها ولا أن تغضب زبونها.

ـ عزيزي السيد يوچين، قالت، أنت تعرف مثلي أن الأب جوريو لم يعد لديه فلس. وتغيير الملاءات لرجل في النزع الأخير هو خسارتها، ثم إنني سأضحي بإحداها للكفن. بذلك، فأنت مدينٌ لي بمئة وأربعة وأربعين فرنكًا، زد عليها أربعين للملاءة وأشياء أخرى صغيرة والشمعة التي ستقدمها سيلڤي إليك، لتكون المحصلة مئتي فرنك، لا يمكن لأرملة مثلي أن تفقدها. يا إلهي! فلتكن عادلاً، سيد يوچين، فأنا تائهة منذ خمسة أيام، وسكن النحس عندي. كان عليَّ أن أدفع عشر ريالات حتى يغادر ذلك الرجل الطيب في تلك الأيام، كما قلت أنت. وذلك يزعج الزبائن. لذا سأعمل على نقله إلى المستشفى مجانًا. وفي النهاية، فلتكن في مكاني. إن بنسيوني يأتي عندي في المرتبة الأولى. إنه حياتي.

عاود يوچين الصعود مسرعًا إلى حيث الأب جوريو.

ـ بيانشون؟ أين نقود رهن الساعة؟

ـ على المنضدة. بقي منها ثلاثمئة وستون وبعض الفرنكات. دفعت

كل ما كان علينا أن ندفعه. ستجد سند الرهن تحت النقود.

ـ خذي، يا سيدتي، قال راستنياك بعد أن هبط بسرعة السلم بذعر، أنهي حسابنا. فالسيد جوريو لن يبقى عندكم لوقت طويل، وأنا...

ـ أجل، وسيخرج وأقدامه في الأمام، المسكين الطيب، قالت وهي تحصي مئتي فرنك، وعلى وجهها شيء من فرح وشيء من كآبة.

ـ انتهينا، قال راستنياك.

ـ سيلڤي! هاتي الملاءات، واذهبي لمعاونة السادة، في الأعلى!

ـ ولن تنسَى سيلڤي، همست السيدة ڤوكيه في أذن يوچين، فقد سهرت لليلتين.

ما إن أدار يوچين ظهره، حتى سارعت العجوز إلى الطاهية: خذي الملاءات المرتجعة، رقم سبعة. يا إلهي، فهي صالحة لميت، همست لها.

كان يوچين قد صعد بضع درجات من السُّلَّم، فلم يسمع ما قالت المضيفة العجوز.

ـ هيا، قال بيانشون، لنغير له قميصه، أمسك به مستقيما.

جلس يوچين عند رأس السرير، وأسند المحتضرَ الذي قام بيانشون بنزع قميصه، وبدرت عن المسكين حركة كأنما يخفي شيئًا على صدره، وأصدر أنات متوجعة، متقطعة، كحيوان يحس بألم هائل بلا تعبير.

ـ أوه! أوه! قال بيانشون، إنه يريد سلسلة من شعر وميدالية صغيرة كنا قد نزعناها عنه عند الكي. يا للرجل المسكين! لابد من إعادتها إليه. ها هي على المدفأة.

ذهب يوچين ليأخذ سلسلة مضفورة بشعر أشقر رمادي، لا شك أنه شعر السيدة جوريو. قرأ على وجه الميدالية: أنستازي، وعلى الوجه

الآخر: دلفين. شكلٌ لقلبه كان موجودًا دائمًا على قلبه، وكانت خصلات الشعر تلك ذات رهافة تدل على أنها أُخذت حينما كانت ابنتاه في بداية الطفولة. وحين لامست الميدالية صدره ندت عنه رجفة طويلة تنبئ عن رضاء مريعة رؤيته. كانت إحدى الارتجافات الأخيرة لحساسيته، التي كان يبدو أنها ترجع إلى مركز مجهول، تصدر عنه أو ترتد إليه عواطفنا. اتخذ وجهه المتشنج تعبير فرح عليل. والطالبان ـ وقد ضربهما ذلك الألقُ المرعب لعنفوانِ شعور كان يتجاوز الفكر ـ تركا دموعهما تنحدر ساخنةً على المحتضر الذي ندت عنه صيحة فرح حادة.

ـ نازي، فيفين، قال.

ـ إنه لا يزال حيًّا، قال بيانشون.

ـ وماذا سيجني من وراء ذلك؟ قالت سيلڤي.

ـ العذاب، أجاب راستنياك.

بعد أن أشار لزميله إشارةً تعني أن يفعل مثله، ركع بيانشون ليتمكن من تمرير ذراعيه تحت باطن ركبتي المريض، بينما راح راستنياك ـ من الناحية الأخرى من السرير ـ يمرر يديه تحت الظهر. كانت سيلڤي متأهبة لسحب الملاءة بمجرد رفع المحتضر لتوضع الأخرى مكانها. مبللاً بلا شك بالدموع، استهلك جوريو قواه الأخيرة ليمد يديه إلى رأسيْ الطالبين على جانبي السرير، يمسكهما بعنف من شعرهما، ويسمعانه يغمغم بوهن: آهٍ! يا ملاكيَّ! كلمتان، غمغمتان لهجت بهما روحٌ حلقت على أجنحة حروفهما.

ـ أيها الرجل العزيز البائس! قالت سيلڤي بإشفاق على ذلك النداء الذي كان يتضارب فيه شعور سامٍ تستثيره للمرة الأخيرة أكثر الأكاذيب

فظاعة وعفوية.

لابد أن آخر شهقة شهقها هذا الأب كانت شهقة فرح. كانت هذه الشهقة تلخيصًا لحياته كلها، وكان أيضًا يخطئ. كان قد تم تعديل وضعه على السرير بكل وقار. من تلك اللحظة، لزم سحنته الطابع المؤلم لمعركة دارت بين الموت والحياة، داخل آلةٍ لم يعد موجودًا بها ذلك النوع من الوعي الدماغي الذي ينتج منه الشعور باللذة والألم للكائن الإنساني. لم يكن الأمر سوى مسألة وقت ليحل التلف.

ـ سيظل هكذا لبضع ساعات، ويموت دون أن يلحظ أحد ذلك، بل إنه حتى لن يتحشرج. ولابد أن المخ سيكون قد تدمر تمامًا.

في تلك اللحظة، سُمع في السلم وقعُ خطى صعود امرأة شابة لاهثة.

ـ لقد وصلتِ متأخرةً جدًّا، قال راستنياك.

لكنها لم تكن دلفين، بل وصيفتها تيريز.

ـ سيد يوچين، قالت، لقد دارَ مشهدٌ عنيف بين السيد والسيدة بسبب المال الذي طلبته من أجل والدها تلك السيدة البائسة. لقد أغمي عليها، وجاء الطبيب، وكان لابد من أن يقوم لها بالحجامة، وكانت تصرخ: "أبي يُحتضر، وأريد رؤيته!" وفي النهاية دوت صرخاتٌ ينخلع لها القلب.

ـ كفى، يا تيريز. فمجيؤها الآن لا لزوم له؛ فالسيد جوريو فاقد الوعي.

ـ يا للسيد العزيز المسكين! أهو مريض إلى هذا الحد؟ قالت تيريز.

ـ لستم بحاجة إليَّ الآن، وعليَّ إعداد العشاء، فالساعة الآن الرابعة والنصف، قالت سيلڤي التي اصطدمت أعلى السلم بالسيدة دو روستو.

كان مظهره الكونتيسة أشد خطورةً وإفزاعًا. نظرت إلى سرير الموت، المضاء برداءةٍ بشمعةٍ يتيمة؛ فإذا بها تنخرط في البكاء وقد لاحظت سحنة والدها، حيث تخفق في صدره الاختلاجات الأخيرة للحياة. انسحب بيانشون بفطنةٍ وإدراك.

ـ لم يكن بالإمكان أن أجيء أبكرَ من هذا، قالت الكونتيسة.

هز الطالبُ رأسه بالإيجاب، مفعمًا بالحزن. أمسكت السيدة دو روستو بيد أبيها وقبلتها.

ـ سامحني، يا أبي! كنتَ قد قلتَ إن صوتي يجعلك تُبعث من القبر. حسنًا، عُد إذن إلى الحياة لحظاتٍ لتبارك ابنتك التائبة. اسمعني. ذلك فظيع! وبركتك هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن أتلقاه هنا، ومنذ الآن. الجميع يكرهونني، وأنت وحدك تحبني. حتى أطفالي أنفسهم سيكرهونني. خذني معك، وسأحبك، وأعتني بك. لم يعد يسمع، أنا بلهاء. ركعت على ركبتيها، وتأملت بهذيانٍ ذلك الحطام. قالت وهي تنظر إلى يوجين: إن شقائي بلا نقصان. لقد هجرني السيد دو تراي تاركًا وراءه ديونًا هائلة، وعلمت أنه كان يخونني. لن يغفر لي زوجي أبدًا، وقد تركتُ له كل ثروتي. لقد بددتُ كل أوهامي. وا حسرتاه! فمن أجل مَن خذلتُ القلب الوحيد (تشير إلى أبيها) الذي كان يحبني! لقد تنكرتُ له، دفعتُه بعيدًا، وأصبته بألف أذى، فيا لي من سافلة!

ـ كان والدك يعلم ذلك، قال راستنياك.

في تلك اللحظة، فتح الأب جوريو عينيه ولكن بتأثير التشنج. تلك الحركة، التي أحيت أمل الكونتيسة، لم تكن أقل إرعابًا من رؤية عين محتضر.

ـ أيسمعني؟ صاحت الكونتيسة، لا، قالت وهي تجلس إلى جواره.

ولأن السيدة دو روستو أبدت رغبتها في ملازمة والدها، نزل يوچين ليتبلغ بشيءٍ من طعام. كان الجميع متحلقين حول المائدة.

ـ حسنًا، قال الرسام، أيبدو أننا نشهد "موت راما" في الأعلى؟

ـ شارل! قال له يوچين، عليك أن تمزح في موضوع أقل قتامة.

ـ ألن يكون بإمكاننا أن نضحك هنا بعد الآن؟ قال الرسام. فما نتيجة ذلك، طالما أن بيانشون قال إن الرجل الطيب فقد وعيه؟

ـ حسنًا! قال موظف المتحف، سيموت كما عاش.

ـ مات أبي! صرخت الكونتيسة.

لدى تلك الصرخة الرهيبة، اندفع كل من سيلڤي وراستنياك وبيانشون صاعدين، فوجدوا السيدة دو روستو مغمًى عليها. وعندما استعادت وعيها، نقلوها إلى عربة الحنطور التي كانت بانتظارها. عهد يوچين إلى تيريز بأمر رعايتها، وطلب منها أن تذهب بها إلى السيدة دو نوسنجن.

ـ آه! لقد شبع موتًا، قال بيانشون وهو نازل.

ـ هيا، يا سادة، إلى المائدة، قالت السيدة ڤوكيه، فالحساء سيبرد.

جلس الطالبان أحدهما إلى جوار الآخر.

ـ ما الذي ينبغي عمله الآن؟ قال يوچين لبيانشون.

ـ لقد أغمضتُ له عينيه، وعدلت وضعه تمامًا. وعندما يصل طبيب البلدية سيتحقق من الوفاة وسنعلنها. سنضعه في الكفن ثم ندفنه. ماذا تريد أن نفعل غير ذلك؟

ـ لن يتشمم خبزه هكذا، قال أحد النزلاء، وهو يقلد تكشيرة الأب

جوريو.

ـ لنا الله يا سادة، قال المعيد، دعوا الأب جوريو إذن، ولا تجعلوا منه طعامًا لنا، لأننا جعلنا منه صلصلة منذ ساعة. إن إحدى مزايا مدينة باريس الطيبة أن المرءَ يمكن أن يولد ويعيش ويموت فيها دون أن ينتبه إليه أحد. فلنتمتع إذن بمزايا الحضارة. اليوم مات ستون شخصًا مثلاً، فهل تريدون منا التعاطف مع ضحايا المجازر الباريسية؟ فليدفن الأب جوريو، فذلك أفضل له! وإذا كنتم تحبونه فلتبقوا معه، ودعونا نأكل في هدوء، نحن الآخرين.

ـ أوه! نَعم، قالت الأرملة، فالأفضل له أنه مات! يبدو أن الرجل المسكين كان يعاني طيلة حياته من منغصات.

كانت تلك خطبة التأبين الوحيدة لمخلوق كان يمثل ليوچين رمز الأبوة. انهمك الزبائن الخمسة عشر في الحديث كالمعتاد. وعندما انتهى يوچين وبيانشون من طعامهما، إذا بصخب الشُّوَك والملاعق، وقهقهات الحوارات، والتعبيرات المتنوعة لهذه الوجوه الشرهة واللا مبالية، تتجمد من الرعب. خرجا لإحضار كاهن يسهر ويصلي خلال الليل إلى جوار الميت. وراحا يوائمان بين الواجبات التي عليهما تجاه الميت، وبين القليل من المال المتوفر لديهما.

حوالي التاسعة مساءً وُضع الجثمان ممددًا بين شمعتين في تلك الحجرة العارية، وحضر أحد الكهنة وجلس إلى جواره. سأله يوچين ـ قبل أن ينام ـ عن نفقة الدفن وسعر الخدمة والنقل، وكتب كلمة إلى البارون دو نوسنجن وإلى الكونت دو روستو، راجيًا إرسال رجالهما المختصين بهذا الشأن، حتى يدفعوا تكاليف دفن الميت. أرسل إليهما بها كريستوف، ثم

تمدد ونام وقد أنهكه التعب.

صباح اليوم التالي، اضطُر بيانشون وراستنياك أن يقوما بأنفسهما بإشهار الوفاة، التي ستكون ربما وقت الظهر. وبعد ساعتين، لم يكن أيٌّ من الصهرين قد أرسل نقودًا، ولم يجئ أحدٌ من طرفهما، وأصبح راستنياك مُضطرًّا الآن لدفع أتعاب الكاهن. وحين طلبت سيلڤي عشر فرنكات لتجهيز الرجل الطيب، وتخييط الكفن، قدَّر يوچين وبيانشون أنهما سيستطيعان بالكاد دفع تكاليف الجنازة، لو لم يشأ أقارب الميت المساهمة بشيء. بالتالي، قام طالب الطب بنفسه بوضع الجثمان في أحد توابيت الفقراء، جاء به من مستشفاه، بأرخص سعر.

- فلتجعل من هؤلاء المستفزين أضحوكة، قال ليوچين. اشتر مقبرةً لخمس سنوات في "مدافن الأب لاشيز" واطلب خدمةً من الدرجة الثالثة من الكنيسة ومن موكب الدفن. وإذا رفض الصهران والابنتان أن يعيدوا لك ما دفعت، فاكتب على شاهد المقبرة:

«هنا يرقد "السيد جوريو" والد الكونتيسة "دو روستو" والبارونة "دو نوسنجن" مدفونًا على نفقة اثنين من الطلبة»

لم يتبع يوچين نصيحة صديقه إلا بعد أن حاول بلا جدوى الوصول إلى حل مع السيد والسيدة دو نوسنجن والسيد والسيدة دو روستو. بل لم يتجاوز بابي قصريهما. لقد كان لدى البوابَين أوامر منع مشددة.

- السيد والسيدة لا يستقبلان أحدًا؛ فقد توفي والدهما، وهما في غاية الحزن والألم عليه، كان يُقال له.

كان يوچين قد اكتسب من العالم الباريسي خبرة تجعله يعرف أن عليه عدم الإصرار. انقبض قلبه بطريقة غريبة عندما تبين استحالة وصوله

حتى إلى دلفين.

- بيعي إحدى حليك، كتب لها لدى البواب، لأتمكن من دفن أبيك بطريقة لائقة.

وختم الكلمة، وطلب من البواب تسليمها إلى تيريز لتسلمها بدورها إلى سيدتها؛ لكن البواب أعطاها مباشرة إلى البارون "دو نوسنجن" الذي ألقاها في النار.

عاد يوچين إلى البنسيون البرجوازي، بعد أن قام بكل تلك التدابير؛ لكنه لم يكبح دموعه عندما لمح لدى الباب ذي النقوش التابوتَ مُغطًّى بالكاد بقماشة سوداء، موضوعًا فوق كرسيين في ذلك الشارع المقفر. كان ثمة مرشة حقيرة للماء المقدس- لم يلمسها أحد بعد- مغموسة في صحن من النحاس المفضض ممتلئ بالماء المبارك. لم يكن على الباب شارة حداد سوداء. تلك هي ميتة الفقراء، حيث لا سجل للمآثر، ولا مشيعين، ولا أصدقاء، ولا أقرباء. كتب بيانشون- الذي كان مجبرًا على البقاء في المستشفى- كلمة إلى راستنياك ليخبره بما فعل مع الكنيسة. كان القُداس خارج الثمن المتفق عليه، ولابد من الاكتفاء بخدمة أقل تكلفة من صلوات الستار*، وأنه أرسل كريستوف إلى "مواكب الدفن". ما إن قرأ يوچين الخط الرديء الذي كتبه بيانشون، حتى لمح في يدي السيدة ڤوكيه الميدالية ذات الدائرة الذهبية، التي كانت تحتوي على شعر الابنتين.

- كيف واتتك الجرأة لأخذ هذه؟ قال لها.

- ولم لا! ألابد من دفنها معه؟ ردت سيلڤي. إنها من الذهب.

* صلوات الستار: صلوات تُقام في توقيت العَصر؛ (المحرر).

ـ بالتأكيد! أجاب يوچين بسخط، لابد أن يحمل معه ـ على الأقل ـ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يمثل ابنتيه.

عندما وصلت عربة الدفن، رفع يوچين التابوت عليها، نزع مسامير غطائها، ووضع بورع على صدر الميت صورة ترجع إلى ذلك الزمن الذي كانت فيه دولفين وأنستازي يافعتين، عذراوين، طاهرتين، ولا تعقلان بعد، كما كان يصفهما في صيحات احتضاره.

اصطحب راستنياك وكريستوف وحدهما، برفقة اثنين من حفاري القبور، العربة التي أقلت جثمان الرجل الطيب إلى كنيسة "سانت-اتيين دو مو"، التي تبعد قليلاً عن شارع "نيڤ-سانت-جانڤياڤ". لدى الوصول، وُضع الجثمان في مُصلًّى صغير منخفض ومعتم، راح الطالب يبحث حوله عن ابنتي الأب جوريو، أو حتى زوجيهما، بلا جدوى.

كان وحده مع كريستوف، الذي كان يعتقد أنه مضطر للقيام بالواجبات الأخيرة لرجل طالما أعطاه إكراميات أثناء حياته. وفي انتظار الكاهنين، وصبي المذبح، وقواس الكنيسة، أمسك راستنياك بحرارة يد كريستوف، دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ـ أجل، يا سيد يوچين، قال كريستوف، إنه رجلٌ صالحٌ شريفٌ، لم يقل في حياته كلمة أعلى من الأخرى، ولم يضر أحدًا، ولم يسبب أدنى إيلام لأي كان.

جاء الكاهنان، وصبيُّ المذبح، وقواسُ الكنيسة، وقدموا كل ما لديهم مقابل سبعين فرنكًا، في زمن لم يكن الدين فيه غنيًّا بما يكفي لأن تتم الصلاة مجانًا. ترنم رجال الإكليروس بمزمور "صلاة الأموات" و"من الأعماق". استغرقت الطقوس عشرين دقيقة. لم تكن ثمة سوى عربة

حداد لقس وصبي المذبح، وسمحا ليوچين وكريستوف بالركوب معهما.

ـ لا أحد يتبعنا في الطريق، قال الكاهن، ويمكننا بالتالي الانطلاق بسرعة كيلا نتأخر؛ فالساعة الآن الخامسة والنصف.

ومع ذلك، ففي اللحظة التي وُضع فيها الجثمان في التابوت، ظهرت عربتان مزينتان بالشعارات، لكنهما خاليتان من أصحابهما، واحدة للكونت دو روستو والأخرى للبارون دو نوسنجن، وتبعتا عربة المتوفى حتى الوصول إلى "مدافن الأب لاشيز".

في الساعة السادسة مساء، أُنزل جثمان الأب جوريو إلى حفرته التي أحاط بها خدم ابنتيه، واختفوا مع القس، بمجرد الانتهاء من الصلاة القصيرة الواجبة للميت الطيب، حسب النقود التي دفعها الطالب. وعندما قام حفارا القبور بإهالة ما في الجواريف من التراب على النعش لإخفائه، نهضا، وتوجها صوبَ راستنياك يطلبان منه البقشيش. بحث يوچين في جيبه فلم يجد شيئًا. اضطُر لاقتراض عشرين فلسًا من كريستوف. وهذا الأمر ـ على صغره، بالنسبة لراستنياك ـ إلا أنه كان سببًا لدفقة مريعة من الحزن.

كان الظلامُ يحل، وغسقٌ رطب يهيج الأعصاب، نظر راستنياك إلى القبر وذرف فيه آخر دموع شبابه، دمعة انتزعتها المشاعر المقدسة لقلب نقي، إحدى تلك الدموع التي تسقط على الأرض، لكنها ترتفع إلى السماء. عقدَ ذراعيه، وتأمل الغيوم، وإذ رآه كريستوف على حالته تلك، انصرف عنه.

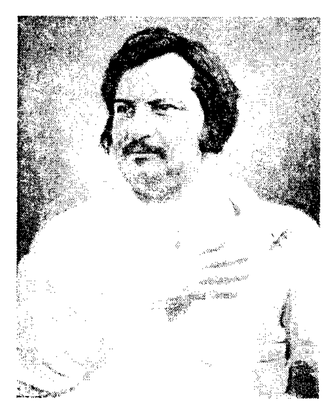
خطا راستنياك ـ الذي بقي وحيدًا ـ بضع خطوات نحو أعلى المقبرة، ورأى باريس تمتد متلويةً بامتداد ضفتي نهر السين، حيث كانت الأضواء

قد شرعت في البزوغ. تعلقت عيناه بحرقة تقريبًا فيما بين عمود ساحة "ڤاندوم" وقبة "الأنڤاليد"، حيث يعيش ذلك العالم الجميل الذي كان يريد أن يدلف إليه. ألقى على خلية النحل الطنانة تلكَ نظرةً كانت تبدو مجتذبةً للعسل مقدمًا، ونطق بهذه الكلمات الفخيمة: "الدور علينا الآن، نحنُ الاثنين".

ولكي يبدأ الفصل الأول من التحدي الذي كان يحمله تجاه المجتمع، ذهب راستنياك للعشاء لدى السيدة دو نوسنجن.

"ساشيه"

سبتمبر 1834



المؤلف: أونوريه دو بلــزَاك

أحد أعمدة الرواية الفرنسية والعالمية (20 مايو 1799ـ 18 أغسطس 1850): أســس ـ مـع فلــوبير ـ الواقعيــة في الأدب الأوروبي. قامــت رواياتــه علــى رؤيــة التراتبــات الاجتماعيــة والسياسية للنظام القديم وقد حلت محلها أرستقراطية المحاباة، والمحسوبية، والثروات التجارية؛ وحيث "الكهانة الجديدة" لرجال المال تملأ الفراغ الذي خلفه انهيار الدين النظامي.

مـن أهـم أعمالـه: **"أوچيني جرانديه"** (1833)، الأب جوريـو (1835)، **"الأوهـام الـضائعة"** (1837ـ1843)، **"العمـة بيـت"** (1846)، **"مبـاهج ومآسي العشيقات"** (1847).

المترجم: محمد محمد السنباطي

شـاعر وروائـي ومترجم. مـن مؤلفاتـه المنشورة: **"موسيقا النـار"** (شـعر)، **"الحجاج بـن يوسـف الثقفـي: السيف والكلمـة"** "اسـكندرية شـرقا وغربًـا" (رواية)، **"عشيقة عرابي"** (رواية)، **"خـط النـار ممتـد"** (رواية)، **"أنهـار الـدم"** (رواية).

من ترجماته: **"في البحث عن الزمن المفقود"** لمارسيل بروست، ج1، **"أخي آرتور"** لإيزابيل رامبو، رواية **"وراء الجبل"**.

صدر من سلسلة "المائة كتاب"

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

116 - بيت الدمية
تأليف : هنريك إبسن
ترجمة : زينب مبارك

117- لو أنَّ مسافراً فى ليلة شتاء
تأليف : إيتالو كالفينو
ترجمة : حسام إبراهيم

118- أغنيات البراءة والتجربة
تأليف : وليم بليك
ترجمة : حاتم الجوهرى

119 فى غيمة شفيفة
تأليف : شي بو
ترجمة : عاطف محمد عبد المجيد

120- الغريب
تأليف : البير كامى
ترجمة : عاصم عبد ربه

121- الراكبون إلى البحر
تأليف : تينسى وليامز ، يوجين أونيل ، وآخرون
ترجمة : عبد السلام إبراهيم

سلسلة

آفاق عالمية

«الأب جوريو» لبلزاك: دُرة الرواية الواقعية في العالم، ومعلمها الأشهر، لا تهويمات خيالية، أو رطانات لغوية وإنشائية. هو العالم وشخوصه وعلاقته كما هي، تتخبط في مصائرها الأليمة، التي صنعتها بنفسها، أو بالمواضعات الاجتماعية، باحثةً عن مَخرج أو مهرَب. وترجمة ربما كانت الأكمل والأدق في المكتبة العربية لـ «الأب جوريو»، حاملةً السمات الأسلوبية واللغوية الدقيقة لأحد سادة الرواية العربية.

اللوحة للفنان الفرنسي تولوز لوتريك ■ تصميم الغلاف: أحمد اللبّاد



www.gocp.gov.eg

السعر: ثلاثة جنيهات